مكتبة

تشوي إين يونج

ابتسامة شيوكو

مجموعة قصصية



أدب كوري حديث

ترجمة:
مروة زهران

المحروسة

ابتسامة شيوكو

تشوي إين يونج

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



عنوان الكتاب: ابتسامة شيوكو 쇼코의 미소
المؤلفة: تشوي إين يونج 최은영 저
ترجمة: مروة زهران
مراجعة لغوية: محمود شرف
إخراج داخلي: رشا عبدالله



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٦٦٨٣/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-894-083-1

"This book is published with the support of the Literature Translation Institute of Korea (LTI Korea)."

مجموعة قصصية



ابتسامة شيوكو

تشوي إين يونج

ترجمة

مروة زهران

الطبعة الأولى 2024



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فو، داريو

ابتسامة شيوكو/ تشوي إين يونج؛ ترجمة مروة زهران.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

271 ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-894-083-1

1 - القصص الكورية

2 - القصص القصيرة

أ- زهران، مروة (مترجم)

ب- العنوان

895.73

رقم الإيداع 2023/26683

ابتسامة شيوكو

غرستُ يديَّ في الرمال الباردة، بينما أراقب البحر المترقرق بالسَّواد.

بدا الأمر وكأنني أقف عند حافة الكون.

قالـت لي شـيوكو إنهـا كلـما وقفـت عنـد شـاطئ البحـر. أحسَّـت وكأنهـا تقـف عنـد حافـة العـالم. إحسـاس كأنهـا مدفوعـة للخـارج بقـوة الطـرد، مبتعـدة عـن المركـز وعـن البـشر. قالـت حينهـا إن شـعور ابتـلال قدميهـا في البحـر لم يكـن بتلـك الروعـة؛ فقـد بـدا الأمـر لهـا كلقـاء بـين شـخصين، كلاهـما منبـوذ.

"يومًـا مـا سـأرحل بعيـدًا عـن البحـر، وأقطـن في مدينـة تحوطهـا المبـاني مـن كل اتجـاه".

كانـت كثـيرًا مـا تُكـرِّر كلمـة "يومًـا مـا". حتـى وهـي في السـابعة عشرة، حتـى وهـي في العشريـن مـن عمرهـا. كانـت كلَّـما حكـت لي عـن شيء تريـد تجربتـه قالـت: "يومًـا مـا سـأذهب للمدينـة، ويومًـا مـا سـأزور

كوريا لمدة أسبوع، ويومًا ما سأجرِّب المُساكَنة مع رجل، ويومًا ما سأترك عملي بالمشفى، ويومًا ما سأربِّي قطَّة".

كانت إنجليزيَّةُ شيوكو سهلةَ الفهم. مَن يسمعها يعي على الفور أن المتحدِّثة يابانية بسبب لكنتها، رغم ذلك، فقد كان نُطقها سليمًا مع محافظتها على نبرتها الراقية. كانت تتحدث بإنجليزيتها الطَّلقة بين الطلاب اليابانين والكوريين الذين اجتمعوا تحت شجرة الوستارية.

"يومًا ما سأنقش وشمًا يحمل صورة فراشة بالقرب من حلمة صدري".

كنتُ الوحيدةَ التي ضحكت من بين الفتيات اللاتي احمرَّت وجناتهن خجلًا من كلامها.

كانت شيوكو، بالإضافة لثلاث طالبات أخريات، ضمن بعثة دراسية لمدرستنا. وقد كان الحدث تحت شعار "التَّبادُل الثقافي بين الطلاب الكوريين واليابانين". كان عامَ الانفتاح الثقافي الياباني في كوريا. وكانت المدرسة التي ترتادها شيوكو في مدينة "أ" مدرسة فتيات صغيرة، وكانت على نظام المدارس الأختيَّة مع مدرستنا. كانت شيوكو ضمن أربع طالبات من الصف الأول الابتدائي ممَّن أجدن اللغة الإنجليزية؛ فأتيح لهنَّ زيارة مدرستنا.

أمَّا مدير مدرستنا، والذي كان متحمِّسًا لذلك الحدث، فكان يصْطحب الفتيات الأربع ليمررن على الفصول تباعًا، بداية من الصف الأول وحتى الصف الثالث. ولا أعلم السِّرَّ، ولكن يبدو أن التعب لم يُنهِكهنَّ، فتراهن يلقين التحية على صفِّي بكل حيوية. بَدَت شيوكو خجولة بعض الشيء، إلا أنها في حقيقة الأمر لم تكن كذلك. يبدو وكأن التظاهر بالحياء عند الكلام كان إحدى عاداتها المُلازِمة.

وكنت قبل أن تأتي شيوكو إلى كوريا أُنظِّف المنزل مع أمي وجدي كلَّما سنح الوقت. كنت أنا وشيوكو بنفس المرحلة الدراسية. وكنت بين إحدى الطلاب القلائل في صفِّنا الأول التي تجيد الإنجليزية، رغم

تعلثمي؛ ولهذا السبب جاء اقتراح المعلم المسؤول عن الفصل لأمي أن نستضيف شيوكو في منزلنا طيلة مدة زيارتها لكوريا، والتي تستغرق أسبوعًا. كنّا نترك مسافة طفيفة بيننا ونحن نسير سويًا في طريقنا للمنزل وقد ساد بعض الإحراج في الجو العام من حولنا.

ولا زِلتُ أذكر حتى اليوم وجهَيْ جدّي وأمي حينما فتحت البوابة الأمامية، مُتهلّلَيْن بعودتنا. لم يكونا قد تعرّفا بعدُ على شيوكو، ولكنهما كانا يبتسمان بتلقائية؛ ترحيبًا بتلك الضيفة القادمة من مكان بعيد. أفراد أسرتي طريقتهم في التعبير عن الحب خرقاء، حتى الابتسام في وجه بعضنا البعض كان أمرًا ثقيلًا علينا؛ ولذا بدا لي منظر وجهيهما المُرحِّب غريبًا ومضحكًا.

"أنتِ شيوكو؟ تشرّفنا. لا أعلم إن كنت سترتاحين في منزلنا الضيق".

حدَّثَت أمي شيوكو بالكورية في مختلف المواضيع، وكأن الأخيرة تتحدث الكورية هي الأخرى، بينما كان جدي يتولّى ترجمة كلامها لليابانية، وفي كل مرة يُعقِّب بابتسامة.

اعتاد جدي الجلوس على الأريكة وهو يشاهد التلفاز، ثم يمطرني بطلباته، كأنْ يطلب مني أن أحضر له منفضة السجائر، أو بعض الماء، أو ماء ساخنًا ليضع فيه قدميه، كل ما كان يفعله هو توجيه الأوامر فقط. كما كان يرمقني بنظرة من طرف عينه حينما أعود من المدرسة وهو متسمر في نفس مكانه على ذات الأريكة بينما يشاهد التلفاز. ونفسُ ذلك الشخص، ومنذ أن حضرت شيوكو، أصبح يغلق التلفاز ويسألها عن مختلف الأمور. صوت جدي وهو يتحدث باليابانية كان مُفعَمًا بالثقة. كانت اليابانية هي اللغة الأجنبية الوحيدة التي يجيدها، رغم أنه قد تعلّمها من أساتذة يابانيين ضيِّقي الصدر.

لم تكن عائلتي تحبِّذ تبادُلَ أي نوع من الحوار على مائدة الطعام. كنا نفتح التلفاز ونتابع المسلسلات أو الأخبار بينما نهمُّ سريعًا بإنهاء

وجبتنـا. ولكــن ومنــذ أن ظهــرت شــيوكو، بــدأ جــدي يثرثــر باليابانيــة، لدرجـة أننـي لا أسـتطيع أن أعلّـق حتـى وسـط الـكلام، ثـم يضحـك بصـوتٍ عـالٍ بـين الحـين والآخـر. وكانـت تلـك المـرة الأولى التـي أراه فيهـا يثرثـر وهـو يضحـك عـلى هـذا النحـو.

كانـت شـيوكو تجلـس عـلى ركبتيهـا وهـي تُنصِـت لحديثـه وتبتسـم في أدب جـمٍّ.

تمامًـا كـما رأيتهـا للمـرة الأولى في فصلنا، وقد ارتسـمت عـلى وجهها ملامح الخجـل، حينهـا، ولسـببٍ مجهـول، شـعرت مـن ضحكتهـا بأننـا مختلفتـين. لم يكـن تبسـمها نابعًـا حقًّـا مـن تأثُّرهـا بطرافـة حديـث جـدّي، وحتـى إيمـاءة رأسـها لم تكـن مـن بـاب التعاطُـف حتـى؛ ويبـدو أن كل حركاتهـا تلـك كانت نابعـة مـن رغبتهـا في جعـل المتحـدث يشـعر بالراحـة فقـط.

كان جــدي يشــير إليَّ أحيانًــا ثــم يضحــك وهــو يتحــدث إلى شــيوكو. وحينـما كنـت أسـألها: فيـم كان يتحـدث؟ كانـت تجيـب أنـه يحـكي لهـا بعـض الحكايـات الطريفـة عنّـي. مثـل اليـوم الـذي نسـيت فيـه حقيبتـي المدرسـية بالمنـزل واضطُـرِرتُ للعـودة خصّيصًـا لإحضارهـا، أو عندمـا بلّلَـت ملابسـي ببـولي مـن أثـر الخـوف بعدمـا اسـتمعت لحكايـات عـن الأشـباح؛ باختصـار: حكايـات بلهـاء. ولا أفهـم كيـف تحوّلَـت تلـك الحكايـات إلى قصـص طريفـة مضحكـة بالنسـبة لـه، وهـو نفسـه الـذي كان يستشـيط غضبًـا كلّـما اقترفـت مثـل تلـك الأخطـاء.

يبـدو أن شـيوكو تتفاهـم بشـكل جيـد مـع جـدّي مقارنـة بتفاهُمهـا معـي. كان عليهـا أن تُحدّثنـي بالإنجليزيـة؛ ولـذا كانـت هنـاك الكثـير مـن النقـاط التـي عجزنـا فيهـا عـن التواصـل. بينـما كان حوارهـا مـع جـدي باللغـة اليابانيـة؛ فلـم يكـن هنـاك أيُّ إشـكالية في عمليـة التواصـل بينهـما. طلـب جـدي مـن شـيوكو أن تناديـه "مسـتر كيـم". قـال لهـا إنـه يريـد أن يصبـح صديقهـا، لا أن تعتـبره مثـل مديـر المدرسـة العجـوز.

في ليلـة مـن إحـدى ليـالي شـهر يوليـو قبيـل بدايـة الإجـازة الصيفيـة كنـت أسـير برفقـة شـيوكو نتبـادل الحديـث عـلى جانـب النهـر في الحـي الـذي نسـكنه، فقالـت لي إن أفـراد أسرتي جميعهـم لُطَفـاء ومَرِحـون. لم أُجبهـا بـأيِّ شيء؛ فحصيلتـي مـن الكلـمات الإنجليزيـة كانـت ضئيلـةً ولم تسـعفني، كـما أننـي أردت أن أعـبِّر لهـا عـن مشـاعري الطيبـة تجاههـا؛ فتأبَّطـتُ ذراعهـا.

حينهـا توقَّفَـت شـيوكو فجـأة عـن السـير، ونظـرت لي بملامـح صارمـة، وقالـت بإنجليزيـة جافـة:

"ميـولي مغايـرة، وليـس لـديَّ أي اهتـمام جنـسي بـك. والأمـر كذلـك مـع أصحـاب الميـول المثليـة. أُفضِّـلُ الرجـال".

قلـت لهـا إننـي تفاجـأت مـن كلامهـا، وأننـي أيضًـا لا أشـعر بـأي ميـول جنسـية نحوهـا، وأن تأبُّطـي لذراعهـا كان مجـرَّد تلامُـسٍ جسـدي وديٍّ بـين صديقتـين فحسـب، وأنهـا قـد أسـاءت فهمـي. بـدا وجههـا متشـككًا في صحـة كلامـي، ولكنهـا فهمـت قصـدي في اليـوم التـالي عندمـا ذهبنـا للمدرسـة، ورأت بعينهـا الكثـير مـن الطالبـات يتأبَّطـن أذرع صديقاتهـن.

قالـت لي إنهـا تسـكن مـع عمَّتهـا وجدِّهـا؛ ولهـذا السـبب فحينـما وصلـت لمنزلنـا لم تشـعر بـأيِّ غَرابـة، بـل عـلى العكـس فقـد شـعرت بالراحـة. قالـت إن عمتهـا هـي ربـة البيـت بشـكل فِعـليٍّ إلَّا أن عملهـا كان يضطرهـا للمبيـت بالخـارج بشـكل متكـرر. أمَّـا جدهـا فـكان يعاملهـا كإحـدى الأمـيرات، ويعتبرهـا أذكى وأجمـل فتـاة في العـالم.

"أنـا بالنسـبة لجـدي كالديـن، عالمـه الأوحـد. وكلَّـما تذكَّـرتُ ذلـك الأمـر تمنَّيـتُ المـوت".

قالـت لي إن جدهـا العجـوز قـد خـرج في إحـدى الأيـام الممطـرة حامِـلًا معـه مظلـة ليلتقـي بهـا أثنـاء عودتهـا مـن المدرسـة، إلا أنهـا فضَّلَـت أن تتسـلَّق الجـدار الحجـري وتذهـب مبـاشرة للمنـزل حتـى تتفـادى لقـاءه.

وفي مـرة أخـرى اشـترى لهـا جدُّهـا فسـتانًا ببعـض النقـود التـي كان قـد جمعها بصعوبـة، ولكنهـا ألقـت هديتـه بغلافهـا في سلَّة القمامـة. قالـت إنهـا كانـت تشـعر بالقشـعريرة كلَّـما تخيَّلَـت كيـف كان يعاملهـا جدهـا كـما لـو كانـت حبيبتـه. وأضافـت أنهـا لا تطيـق انتظـار تخرُّجهـا مـن المرحلـة الثانويـة حتـى ترحـل عـن مسـقط رأسـها بـلا عـودة، وتنتقـل للعيـش في طوكيـو.

"إذًا سـأعطيكِ جـدي. فجـدِّي يعتـبرني أغبـى طفلـة في العـالم. كـما أنـه يوبِّخنـي كلـما رآني، ويطلـب منـي أن أخفِّـف وزني، لم يسـبق لـه أن اشـترى لي أيَّ فسـتان، ولا حتـى علبـة علكـة واحـدة".

كانـت شـيوكو تنظـر لي وتضحـك في صمـت. كانـت ابتسـامتها لطيفـة وبـاردة في الوقـت ذاتـه، كابتسـامة شـخص بالـغ لطفـل سـاذج.

حالـة عجيبـة مـن النشـاط سـادت المنـزل بـأسْرِه طيلـةَ الأسـبوع الـذي قضتـه شـيوكو بمنزلنـا، فهـا هـو جـدي قـد نـزل إلى المتجـر ليشـتري البطيـخ الـذي تحبـه شـيوكو، وأمـي قـد قـرَّرَت تعلُّـمَ اللغتـين اليابانيـة والإنجليزية، غمَـرَت اللغـات الثـلاث منزلنـا، بينـما كانـت شـيوكو تعـدُّ لنـا مثلَّثـات الأرز اليابانية.

"سألتقط صورة".

وضعــت شــيوكو فيلـمًا في آلــة التصويــر خاصَّتهــا، والتــي كانــت مــن نــوع "البينتاكــس". والتقطــت صــورة لنــا ونحــن نتنــاول البطيــخ. ليــس هــذا فحســب، بــل إنهــا صــوَّرَت أمــي وهــي تُعــدُّ طعــام العشــاء، وأخــذت تصــوِّر جــدي، الــذي كان ينظــف غرفــة المعيشــة، كمصــوِّري الباباراتــزي. كان جـدي وأمـي كلاهـما محتـار بعـض الـشيء، إلا أن شـعورهما لم يكـن اسـتياءً، بـل أظهـرا ابتسـامة لشـيوكو تُنبـئ عـن عـدم اسـتيائهما مـن ذلـك النـوع مـن الاهتـمام.

كانت أمي الضاحكة ذات العينين اللامعتين، وجدّي كثير الكلام، أناسًا لم أعرفهم في تلك اللحظة. وربما لو كنت قابلتُ أشخاصًا مثلهم في الخارج لحسنت الظن بهم على الفور دون تردُّد كونهم أناسًا لُطَفاء. كانا من نوعية الأشخاص الخاملين الذين لا يجيدون عقد صداقات اجتماعية مع الآخرين. ولم أتعمَّد تحفيز أيٍّ منهما، وكنت أعتبرهما كساعة ببندول قديم تراكَمَت عليها ذرَّات التراب عبر السنين. أناس يفتقرون لأي رغبة في التغيير، قابعون في أماكنهم بلا أيِّ هدف.

أسرتنا كانت تضمُّ أشخاصًا غُرَباء على الدوام. ولا أعلم إن كانت شيوكو تعلم الكثير عن جدي، أكثر مني.

اعتدنا أنا وشيوكو على استعارة شرائط الڤيديو في طريق عودتنا للمنزل بعد انتهاء دوامنا المدرسي.

كانت معظمها أفلامًا من التي لا يُنصح بها للأطفال دون سنّ السابعة عشرة، ولكنني كنت أذهب مع شيوكو ونحصل على الأفلام من المتجر دون أن نثير أي شكوك حولنا.

كانت أفلامًا مثل فيلم "توقُّعات رائعة" للمثل إيثان هوك، والذي أدّى فيه دور رسَّام؛ وفيلم "شكسبير إن لوف"، الذي يحتوي على مشاهد حميمية؛ وفيلم الرعب الياباني "رينج"؛ وفيلم "نوتينج هيل" لجوليا روبرتس. كنَّا نُطفئ الأنوار في غرفة المعيشة ونشاهد الأفلام ونحن نحتسي الشاي الأخضر. وفي كل مرة مع ظهور المشاهد الحميمية كان الصمت يسود الأجواء بين ثلاثتنا؛ أنا وجدي وشيوكو.

قالت لي شيوكو وهي تعيد الفيلم:

"هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أحدًا يعشق الأفلام مثلك. لن أُفاجأ لو علمتُ يومًا ما أنك أصبحت من صانعي الأفلام".

قالت لي شيوكو ذلك الكلام ونحن نعيد الشرائط.

"أقصد ربما تصبحين مُعِدَّةً أو مُخرِجةً".

ضحكت بينما حرّكتُ رأسي بالنفي، ولغرابة الأمر فقد ترك كلامها أثرًا في نفسي. كلمات شيوكو كانت لها قوّة ما.

أهدتني شيوكو خريطة ورقية للعالم من النوع الذي يُطوى. قالت إن العالم واسع رحب، وأن باستطاعتنا السفر لأي مكان نريد. والقصد من كلامها ليس الخروج من قريتنا للمدينة المجاورة، بل نصحتني بأن أذهب لسيؤول لو أمكن الأمر، أو بكين، باريس، أو نيويورك. كان كلامها مُضحِكًا بالنسبة لي، فأخذت أضحك فحسب؛ لأنه لم يسبق لأحدٍ من أفراد أسرتي أن عاش في سيؤول من قبل، كما أنني كنت واثقة أنني سأظل في هذا الحي الذي أسكنه للأبد.

علّقتُ خريطة العالم التي أهدتني إيّاها على الحائط. ثم رسمت نقطتين حمراوين؛ إحداهما عند المدينة "أ" التي تقطنها شيوكو، والأخرى عند مدينتي. كانت المدينتان قريبتين لبعضهما البعض، بحيث لا أحتاج أن أبسط كفّي على آخره لأوصل بينهما. كما أضفت نقاط أخرى فوق المدن العالمية التي تمنّت شيوكو زيارتها؛ بكين، هانوي، سياتل، كرايست شرش، دبلن... ثم انتابتني الحيرة لخاطرٍ جالَ برأسي حينها؛ أن هناك بالفعل مَن يسكن بداخل تلك النقاط الضئيلة.

وصلني الخطاب الأول من شيوكو بعد مغادرتها بأسبوع. قالت بأنها لن تنسى الوقت الذي قضته في كوريا، وقالت إنه في يومٍ ما حينما تلتحق بالجامعة فإنها ستزور كوريا لنذهب في رحلة سويًّا. وقالت إنها عندما عادت لليابان وجدت الجوّ رطبًا للغاية، وأنها انزعجت لحظةَ دخولها لمنزلها لأنها أحسَّت وكأنها تدخل قبرًا. وقالت إنه حينما نلتقي في المرة القادمة فإن علينا أن نتأبّط ذراعينا بينما نمشي.

لم ترسل لي وحدي، كانت قد كتبت خطابًا باليابانية ووضعته في ظرف آخر ثم أرسلته لجدي. جلسنا جنبًا إلى جنب على الأريكة

نقـرأ الخطابـين؛ الإنجليـزي واليابـانيّ. وضـع جـدّي خطـاب شـيوكو عـلى مسـند الأريكـة، وكان يقـرأ خطابهـا المكتـوب بنظـام الكتابـة العموديـة، عـدّة مـرّات يوميًـا.

كانـت خطاباتهـا مُنصِفـة عـلى الـدوام. بحيـث تصلنـا، أنـا وجـدي، في نفـس اليـوم، بنفـس الكَمّ، فكنـت أحيانًـا أجـد خطابهـا في صنـدوق البريـد أوّلًا، بينـما يجدهـا جـدي في أحيـان أخـرى. وكأننـا نبتـارى أيّنـا يفتـح الصنـدوق أوّلًا ويعـثر عـلى خطابهـا، وبعدهـا كنـا نجلـس جنبًـا إلى جنـب عـلى الأريكـة نتحـدث عـن يوميـات شـيوكو.

ويبـدو أنهـا كانـت تحـرص دومًـا عـلى كتابـة موضوعـات مُفرِحـة في خطاباتهـا المُرسَـلة لجـدي، كأن تحـكي لـه عـن فوزهـا بالمركـز الأول في سـباق العـدو، أو عـن مطعـم الـكاري اللذيـذ الـذي زارتـه مـع عمّتهـا، أو رياضـة التجديـف التـي تمارسـها مـع أصدقائهـا في أيـام العطـلات، أو رحلتهـا لمدينـة هوكايـدو. وكانـت تلـك الأخبـار التـي ترويهـا في خطاباتهـا بالنسـبة لجـدي لوحـات رائعـة تصلـح لأن تكـون لوحـات فنيـة مطبوعـة عـلى البطاقـات البريديـة.

وعـلى الجانـب الآخـر كانـت الخطابـات التي تصلنـي منهـا لا تحتوي إلا عـلى الموضوعـات الكئيبـة، كحـين سَرَقـت نقـودًا مـن جدّهـا بينـما تظاهـر الرجـل بعـدم ملاحظتـه للأمـر، وبعدهـا ألقـت تلـك النقـود في فتحـة البالوعـة. كـما ذكـرت أنهـا تفكّـر أحيانًـا في وضـع السُـمِّ لـه في الطعـام، وأنهـا تعلـم بأمـر عمّتهـا التـي أضاعـت نقـود النفقـة التـي يرسـلها والدهـا لهـا وأنفقتهـا عـلى نفسـها؛ لـذا أخـذت ملابـس عمّتهـا الداخليـة ومزّقتهـا واحـدة تلـو الأخـرى، ثـم ألقـت بهـا في الشـارع. وأنهـا بـين الحـين والآخـر تَخِـز نفسـها بسـكين مُعقَّمـة بالقـرب مـن منطقـة الحـوض.

حينهـا، شـعرتُ بالفـوضى مـن كلماتهـا المتناقضـة. كان يصعـب عـليّ الحُكـم إنْ كان كلامهـا مـع جـدي هـو الصـدق أم أن كلامهـا معـي هـو

الصدق. ولكن بمرور الوقت خمّنتُ أن الوجهين كلاهما صادق. وحتى وإن لم تكن جميع التفاصيل حقيقية، إلا أن جميع حكاياتها حقيقية، لا بل إن الأمر لن يختلف في شيء حتى لو كانت تلك الحكايات كلها محض أوهام. وكما هو واضح في خطابات جدي، فهي شخصية تَنشد -من الآخر- الاعتراف والحب، وفي خطاباتي شخصية تريد الانتقام من أقرب الناس إليها، بما فيهم نفسها.

كانت شيوكو تراسلنا مرَّةً كل عشرة إلى أحد عشر يومًا. ولم تهتمّ، سواء بادلناها بالردِّ أو لم نفعل. وهكذا استمرت في مراسلاتها طيلة مرحلة الدراسة الثانوية وحتى التَّخرُّج.

كانت تقول إنه ليس لديها أصدقاء مُقرَّبون. النظر للأمر بشكل سطحي يوحي لك بأنها اجتماعية، إلا أنها كانت من النوع الذي لا يعرف كيفية بناء صداقات وثيقة مع الآخرين؛ لذا كان من الصعب عليها أن تفتح قلبها لأقرب الناس إليها، وبدلًا من ذلك اختارت طريقة تبادُل المراسلات مع الآخرين من الأجانب ممَّن لا حاجة لها في لقائهم. لو كنتُ يابانية تسكن في محيطها لما أظهَرَت حتى أيَّ اهتمام تجاهي.

يقولون إن البعيد عن العين بعيد عن القلب، وأنه سواء في حالة الحب أو الكره فلا بُدَّ من تكرار اللقاء حتى نشعر بالأُلفة والمودَّة، لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لها. كانت شخصًا لا يسمح لأحد باقتحام حياتها، بينما يمكنها أن تطلق لقب صديق على شخص لا تراه ولا تسمعه يعيش في مكان بعيد عنها.

كانت متفوِّقةً في دراستها. وكانت تعتقد أن بإمكانها السفر إلى طوكيو على أي حال.

انقطعت خطاباتها في شهر مارس قُبيل التخرُّج من المرحلة الثانوية.

وقد كتبت التالي في خطابها الأخير:

"أصبح من غير الممكن أن أسافر لطوكيو. شيوكو".

كما كتبت التالي في الخطاب الذي أرسلته لجدي:

"أردتُ السفر لكوريا للقائك يا مستر كيم. غير أني لا أعِدُكَ بشيء. أعتذر لك. شيوكو".

تنهَّد جدي وهو يحمل خطابها الذي حوى جملة واحدة فقط. كانت شيوكو بالنسبة له كرفيق السَّمر. وصل به الأمر أنه خطَّط لرحلة جماعية لجزيرة جيجو حين قدومها لكوريا وهي في المرحلة الجامعية. وكان يقول إنه بالنسبة لمشكلة العَداء مع اليابان والأشخاص المستائين، فعليهم أن يعرفوا أن المشكلة تكمن في رجال السياسة الأغبياء، وأن علينا ألَّا نُبطِنَ الكُرهَ للمواطنين الصالحين.

لم أتمكن حتى الآن من فهم تلك الصداقة التي جمعت بين شيوكو وجدي.

أخبرني جدي لاحقًا أنه كلما خرج للتمشية كان يتحقَّق من صندوق البريد بشكل دوريٍّ للتأكد إن كان قد وصل خطابها. وكلما تحدثنا في الهاتف كان يسألني التالي: "يبدو أن شيوكو مشغولة، ألم تتواصل معكِ؟". كان يحشر تلك الجملة دومًا قبل أن يُنهي محادثتنا الهاتفية. كنت محبطة بعض الشيء من توقُّف خطاباتها، ولكني كنت مشغولة، وعلى أعتاب حياة مهنية جديدة غامضة، والأمر كان كافيًا بالنسبة لي، فلم يشغل بالي حقًّا أمر خطاباتها، ولم يستحوذ على تفكيري. كنت حينها في إحدى الجامعات الخاصة بسيؤول.

مرَّت الأيام دون أن تخطر شيوكو ببالي. كان لي حبيب للمرة الأولى، وكنت أستعدُّ لبرنامج التبادل الطلابي. وبدأت أذاكر مفردات اللغة الإنجليزية استعدادًا لدخول امتحان "التوفل"، ثم تذكَّرتُ حينما كنا

نتحدث سويًّا بإنجليزيتنا المتواضعة بينما نسير قرب المجرى النهري القريب من منزلي. تذكَّرتُ حينما لمَسَت ذراعها ذراعي، وحينما رمقتني بنظرة كمن ينظر في وجه طفل صغير، كانت ابتسامتها مهذَّبة ولكنها باردة، استرجعت وجهها ونطقها الممتاز.

كل ما كنت أعرفه كان عنوانَ بيتها فحسب، لم أكن أعلم بريدها الإلكتروني، ولا حتى رقم هاتفها المنزلي. أرسلتُ لها عدَّة خطابات على عنوانها، ولكن لم يصلني منها أي رد، فنأيتُ عن الفكرة على الفور. ثم مرَّ عامان على هذا الحال، وبعدها سافرت لكندا في برنامج التَّبادُل الطلابي. كانت ذكراها تخطر ببالي أحيانًا، ولكن الأمر لم يبعث في قلبي حنينًا أو شوقًا لرؤيتها. كانت شخصية شجاعة، فتصوَّرتُ أنه لا شكَّ وأنها بخير. واعتقدت أنها تدرس مثلي في بلد بعيد عن ديارها.

وحينما أوشكت دراستي في الخارج على الانتهاء، استقللتُ الحافلة الليلية وعبرت الحدود في رحلة لنيويورك لمدة ثلاثة أيام وليلتين. سكنت في نُزل الشباب، وكنت أخفي الخبز الذي يُقدَّم مع وجبة الإفطار في منديل لأتناوله فيما بعدُ في كلٍّ من وجبتَيْ الغداء والعشاء؛ بالأحرى، كانت رحلةَ الأمعاء الخاوية.

وفي ذلك اليوم جلست على سلَّم مكتبة المدينة أتناول عشائي. فشعرت أن أحدهم يتفحَّصني بنظراته. كانت فتاة ذات ملامح آسيوية بشعر قصير تتفحَّصني بشكل واضح. فكَّرتُ أنه ليس من الصواب أن أنسحب من معركة النظرات تلك؛ فبادلتها النظرات المتفحِّصة على الفور. فاقتربت منِّي الفتاة رويدًا، ثم قالت:

"أنتِ من كوريا، أليس كذلك؟ هل تذكرينني؟ هذه أنا، هانا. التلميذة اليابانية التي سافَرَت إلى كوريا ضمن الرحلة المدرسية".

بدأت أومئ برأسي على مهل. كانت هانا إحدى الطالبات اليابانيات اللاتي حضرن في رحلة إلى كوريا. لم أكن أتذكر وجهها، ولكني لا زلت

أذكر صوتها الناعم ذا النبرة المنخفضة. رحّبَت بي هانا بشكل كبير، ثم دعتني إلى شقتها:

"هاجَرتُ إلى الولايات المتحدة قبل ثلاث سنوات. وكان حظي جيِّدًا بحيث تمكَّنتُ من زيارة كوريا قبل هجرتي. لا زلتُ أذكر تلك الأيام. الكل عامَلَنا بلطف وودٍّ بالِغَيْن. ولا زلت أذكر المرات التي كنَّا نخرج فيها لتناول العشاء في المطعم مع الأسرة التي استضافتني. كانوا يبتهجون ويصفقون لي جميعهم عندما أجرِّب تناول طبق قشور لحم الخنزير أو أمعائه".

"حقًّا".

"أنتِ أيضًا كنت من العائلات المستضيفة. لشيوكو".

أومأت برأسي بدلًا من الإجابة، وأطلقت بصري تجاه نهاية الطاولة.

"هل لا زلتِ على تواصل معها؟ أذكر أنها قالت إنها تتواصل معك بالخطابات".

حدَّثتها عن آخر خطاب وصلني منها؛ ذلك الخطاب ذي السطر الواحد الذي ذكَرَت فيه أنها لم تتمكن من السفر إلى طوكيو، وبعدها انقطعت أخبارها. أخبرتها أنني لا أدري فيمَ أخطأتُ، وأنني أشعر بالحسرة لأنني لم أتبادل معها من قبل رقم هاتفها أو عنوان بريدها الإلكتروني. ابتسمت هانا ابتسامةً واسعةً، وأخبرتني ألّا أقلق؛ فشيوكو بخير.

"التحقت بالجامعة في قريتنا. قُبِلَت في كلية الحقوق بجامعة واسيدا، ولكنها لم تذهب".

كانت المشكلة تكمن في جدِّ شيوكو؛ كان عليه أن يذهب إلى المشفى مرَّةً كل ثلاثة أيام للحصول على جلسة الغسيل الكلوي بعد

فشل كليتيه، وعمَّتها قد بلغت الخمسين، ولكنها شخص متبلِّد لا يشغل باله بمسؤوليته تجاه أبويه، إضافة لكونها مُدمِنَة تَسوُّق.

لذا لم تتمكن شيوكو من ترك جدِّها وهو على تلك الحالة وتنتقل إلى طوكيو. قالت هانا إن الأمر لا يخلو أيضًا من سبب اقتصادي؛ فقد تمكنت من الالتحاق بجامعة القرية بعد حصولها على منحة مُموَّلة لأربع سنوات، وكانت تستقلُّ الحافلة في طريقها للجامعة؛ لذا لم يكن لديها أي عائق بشأن المواصلات، وقد التحقت بقسم العلاج الطبيعي، وضمنَت لنفسها وظيفة حيثما شاءت فور تخرُّجها. أضافت هانا أن شيوكو اختارت طريقًا مضمونًا.

لم يسبق لي أن تخيَّلتُ بشكل تفصيلي الوظيفة التي ستعمل بها شيوكو، إلَّا أن شعورًا غير ملموس راوَدَني بأنها ليست من طراز الشخصيات التي من الممكن أن تستقرَّ في مكان واحد؛ لأنها سبق أن قالت لي، في غير اكتراث، إنها لو شاءت لسافَرَت أينما أرادت واستقرَّت في ذلك المكان؛ لذا عَلِقَ بذهني خبرُ عدم تمكُّنها من نقل آثار قدميها بعيدًا عن قريتها، محل ميلادها.

منظر شيوكو وهي تصطحب جدَّها للمشفى مرة كل ثلاثة أيام، ومنظرها وهي تلقي بتصريح القبول في جامعة واسيداه، شيوكو التي لم تستطع على الأغلب السفر لمدة تزيد عن يومين. في شقَّة هانا، تلاشت بداخلي كل مشاعر الحزن وتأنيب الضمير التي ساورتني حيالها من قبل.

حدَّثَتني هانا دون توقُّفٍ عن حياتها في الولايات المتحدة، ودراستها الجامعية. حاوَلتُ أن أصبَّ كل تركيزي على كلامها، ولكني كنت أتذكر أمر شيوكو بين الحين والآخر؛ فأفقد قدرتي على التركيز معها.

ولنفترض أن ظروفها أصبحت بهذا الشكل؛ فلماذا كان عليها قطع الاتصال بهذه الطريقة؟ وكيف صارت تعتني بجدها في مرضه وهي

مَن أرادت ترك ذلك المنزل بأي طريقة في السابق؟ أشياء لم أفهمها. تركتُ لهانا بريدي الإلكتروني وطلبت منها أن ترسل لي عنوان بريد شيوكو الإلكتروني لو وجدت مَن يَدلُّها عليه.

ولكن لم يصلني أي جواب من هانا. شعرت كأن شيوكو هي من طلبت منها ألَّا تخبرني ببريدها الإلكتروني.

ذهبت لمنزل شيوكو بنفسي في السنة الرابعة من دراستي الجامعية. استقللت الحافلة المسائية من طوكيو وأخذت أستقصي عن عنوانها حتى وصلت للقرية التي تعيش فيها. وصلت نُزُلًا صغيرًا بالقرية، وأفرغت أمتعتي، وقد قرَّرت البقاء لمدة أسبوع. واعتمدت في حساباتي على أن شيوكو لن تكون بعيدة عن المنزل لمدة تزيد عن اليومين. وكان قصدي من الزيارة أن ألقاها ولو لمرة واحدة.

وبمجرد أن وصلت إلى اليابان بدأت أفهم بجسدي رطوبةَ الجو التي تُبغِضها شيوكو، الرطوبة المختلطة بالهواء كانت كالعَرَق، لم يكن عَرَقًا صادرًا من مَسامٍّ جلدي، كان الأمر يشبه عَرَقًا ذائبًا ومختلطًا في الهواء يلامس سطح جلدي.

يقع منزلها في زُقاقٍ إذا خرجتَ منه وعَبَرتَ الشارع لوجدتَ شاطئ البحر مقابلا له. كانت منطقة هادئة ضمَّت مجموعة من المنازل المنفصلة الصغيرة. وعند الرصيف جلس رجلان في منتصف العمر يصيدان. كان من النادر أن أجد أطفالًا، ولكن لم يكن الأمر مقتصرًا عليهم، فلم ألحظ وجود الشباب كذلك. بينما كانت الأصوات مقتصرة على أصوات المركبات أو الدرجات النارية التي تمرُّ بين الحين والآخر.

توجَّهتُ بخطواتي تجاه منزل شيوكو. حيث كان الباب الرئيسي فضِّيَّ اللون بلون الكوبالت، ولم يُعلّق عليه اللوحة التي تحمل اسم العائلة التي تقطن المنزل.

وبمجرد أن وقفت أمام الباب الرئيسي دبَّت في قلبي شجاعةٌ لم تكن موجودةً قبل تلك اللحظة. على الأقل شيوكو لن تتظاهر بعدم معرفتها لي، وقد كنتُ واثقة من ذلك. وظننت أنه لا بأس حتى ولو لم أتمكن من لقائها. رصَصتُ أمام عينيَّ جميع الاحتمالات الممكنة من عدم جدوى تلك الزيارة التي أتت بي إلى هذا المكان، ويبدو أنني بذلت جهدًا لأفتح قلبي استعدادًا لتقبُّل تلك الاحتمالات.

وجدت الباب يُفتح بأسرع ممَّا توقَّعتُ. وإذا برجُلٍ مُسِنٍّ أشيب طويل القامة ينظر لي مبتسمًا. كان سَماره تشوبه الحُمرة. حاولت أن أسترجع بعضًا من اللغة اليابانية التي كنت قد تعلَّمتها في كتب المطالعة في المرحلة الجامعية، ولكن كل ما خرج من فمي حينها كان مجرد كلمات متلعثمة لبعض المفردات اليابانية مثل شيوكو، صديقة شيوكو، كوريا، الخطاب.

ضحك العجوز وهو ينظر لي بينما يحدِّثني بيابانية لم أفهمها، ثم أشار لي بيده أن أدخل. كان بالمنزل حديقة حَوَت زهور شب الليل، وأرضية خشبية لامعة. أشار لي العجوز أن أجلس على أرضية الردهة الخشبية. فخلعت حذائي ثم صعدت وجلست.

جلس الرجل وقد ترك مسافة بيننا، ثم أكمل حديثه على استحياء. لم أفهم ما قاله، ولكنه ذكر اسم شيوكو كثيرًا بين كلماته. تذكَّرتُ كلمات شيوكو التي كانت تحبس أنفاسها حينما قالت إن جدها يعتبرها الأجمل والأذكى على الإطلاق.

قدَّم لي العجوز كوبا مثلَّجًا من الماء.

"شيوكو. شيوكو".

كان صوته حَذِرًا.

ثـم قـال مـا خمَّنتـه "سـويو هنـا، سـويو جـاءت مـن كوريـا". لم أسـمع ولـوْ صوتًـا خافتًـا قادمًا مـن الغرفـة. حـاول أن يحـرِّك مقبـض بـاب الغرفـة ليفتـح البـاب، ولكنـه أشـار لي بحـركات يـده أنـه مُغلَـق مـن الداخـل. وبالرغـم مـن رطوبـة الجـو الحـار يومهـا إلَّا أننـي شـعرت بـبرودة تـسري في جسـدي. لم ترغـب شـيوكو في رؤيتـي مجـدَّدًا. كنـتُ مجـرَّد صديقـة خياليـة، أو جـزءًا مـن مُذكَّراتهـا اليوميـة، وكل مـا في الأمـر أنهـا أقلَعَـت عـن كتابـة تلـك المذكـرات، فبـأي حـقٍّ أحـاول أن أقتحـم موضوعـات حياتهـا التـي كتبتهـا في مذكراتهـا اليوميـة.

كـرَّر الرجـل العجـوز جملـة "لا بـأس" عـدَّة مـرات وهـو يرتـدي قبعتـه، وحـرَّك يديـه ليخـبرني بأنـه سـيخرج قليـلًا، وفي نفـس اللحظـة التـي دفـع فيهـا العجـوز البـاب الرئيـسي ليخـرج، فُتـح بـاب غرفـة شـيوكو.

كانـت قـد جمَعَـت شَـعرها الطويـل وربطتـه لأعـلى، وارتـدت فسـتانًا أصفـر بـلا أكـمام.

أخـذت ترمقنـي طويـلًا وأنـا جالسـة في الردهـة أشرب كـوب المـاء المثلـج. ثـم مَشَـت بخطـوات ثقيلـة، وبعدهـا جلسـت بجانبـي، بعـد أن تركـت بيننـا بعـض المسـافة. كانـت تفـوح منهـا رائحـة مُعطِّـر الملابـس. لم نتبـادل أي كلمـة، اكتفينـا بالجلـوس ونحـن نحـدِّق أمامنـا. قالـت بتمهُّـلٍ وهـي تنظـر أمامهـا:

"ظننت أنني سأسافر لكوريا للقائك".

نظرتُ إلى جانب وجهها، وقلتُ:

"أنتِ مستاءة لأنني سبقتك بالحضور، أليس كذلك؟".

سكتت شيوكو لبرهة ثم فتحت فمها قليلًا وتنهَّدت، ثم قالت:

"اشتقتُ لكِ".

كنت أشعر بالاستياء حيالها؛ لذا لم أُجبها بأنني قد اشتقت لها أيضًا. وعلى الرغم من ذلك دمعت عيناي حينما قالت إنها اشتاقت إليّ.

أحيانًا يشبه الحبُّ الصداقةَ، وفي أحيان أخرى تشبه الصداقةُ الحبَّ، وحينما أفكر فيها كانت تراودني مخاوف؛ إذ ربما لم تَعُد تحبني بعد الآن.

في حقيقة الأمر لم تكن تُمثِّل لي أيَّ شخص. ولم يكن ليتغير في واقعي أي شيء لو نسيتها في الحال. لم تكن زميلتي في العمل، أو حتى صديقتي من أيام الدراسة ممَّن شاركتهم بعضًا من أيامي، ولم تكن حتى رفيقةَ الحي الذي أسكن فيه. بالأحرى لم تكن أحد التروس المحرِّكة لعجلة حياتي اليومية، وبكل صدق، شيوكو لم تكن أي شيء.

ورغم ذلك تمنَّيتُ لو كنت أمثِّل شيئًا ما بالنسبة لها. ذلك الفراغ العجيب الذي بدأت أحسُّ به حينما توقَّفَت عن مراسلاتها، وتلك الخيلاء النفسية التي كانت بداخلي ترجو ألَّا تنساني.

كانت بشرتها بيضاء شفَّافة لدرجة تُمكِّنكَ من رؤية أرفع الشُّعَيرات الدموية من تحتها. سألتُها إن كانت تخرج من منزلها، ولكنها قالت بأنه عدا الأيام التي تصحب فيها جدَّها للمشفى فإنها لا تغادر المنزل، وحينما تخرج فإنها تحرص على ارتداء قُبَّعة كبيرة لتحجب الشمس.

سألتها عن سبب عدم انتقالها لطوكيو، فنظرت لعيني مباشرة وهي تبتسم، وأخذت تُحرِّك رأسها. ثم قصدت غرفتها وأحضرت إحدى دفاتر الرسم. فتحت الدفتر وقد طُوِيَ لثماني طَيَّات، وكانت هناك بعض الرسومات البسيطة التي رُسِمَت بالأقلام الشمعية، بعضها كان مجرَّدَ خطوط ملوَّنة، والبعض الآخر كان رسومًا صغيرة نُقِشَت على أطراف الورقة، ثم لاحظت تحت كلِّ رَسمَة بعضَ الكلمات غير

المنتظمـة التـي كُتِبَـت بالأقـلام الشـمعية. أخـذت شـيوكو تشـير لتلـك الكلـمات بإصبعهـا، وتقرؤهـا عـليَّ باليابانيـة ثـم بالإنجليزيـة.

" بطن قَدَمٍ نصف محترقة".

"عمود إنارة مُطفَأ على الطريق السريع".

"متعفِّنة. بذرة متعفِّنة فحسبُ".

"جندي غير ملتزم بالمشية العسكرية".

"ديكتاتور مُفتَقِد للشَّغَف".

"العكس من كلمة نموذجي".

"لكن......نموذجي".

"صـدى الصـوت العجيـب الـذي يخـبرني: كنـتُ أعلـم أن هـذا هـو مـا سـوف يحـدث".

"حمامة تنقر الأرض حتى آخر نَفَس قبل أن تتجمَّد".

أخبرتنــي شــيوكو بــكل تلــك العناويــن مــع رســوماتها، ثــم أشــارت بإصبعهــا نحوهــا وقالــت:

"أنا. شيوكو".

بــدا الأمــر وكأن لديهــا صــمام كهربــائي محــترق. أخفيــت وطــأة الرســومات التــي أثقَلَــت قلبــي وأخبرتهــا بعكــس مــا وَقَــرَ في قلبــي؛ بــأن رسـوماتها جميلـة. قالـت لي إنـه ربمـا كان عليهـا أن تفكـر جديًـا في احـتراف الرسـم، لا بـل إنهـا تفكّـر في الكتابـة، وأتبَعَـت كلامهـا بابتسـامتها المهذبـة.

كانــت نفــس تلــك الابتســامة التــي رســمتها عــلى وجههــا في فــترة المراهقــة، ولكــن في تلــك الابتســامة، التــي صعقتنــي حينهــا ببرودتهــا ونُضجِهــا، لكننــي لمســت فيهــا جانبًــا هشًّــا ودفاعيًــا، كنــت أظنهــا أقــوى منــي، ولكنهــا كانــت ضعيفــة.

من الواضح أن شيوكو كانت تشعر بالأمر ذاته حينها؛ أنني أصبحت أقوى منها على المستوى النفسي. كنت أشاهد شخصًا مُمزَّقًا، فغمرتني حينها بعض المشاعر الفوقية.

حدَّثتها عن دراستي الجامعية، وعن سفري لكندا كطالبة ضمن برنامج التبادل الطلابي، وعن الأجانب الذين تعرَّفتُ عليهم أثناء أسفاري الكثيرة بين الحين والآخر، كما حدثتها عن لقائي بهانا في نيويورك. "هل صحيحٌ ما سمعتُه منها أنَّكِ قُبِلتِ في جامعة واسيداه، ولكنك لم تتمكني من الذهاب؟ سمعت أن الذي منعك هو جلسات الغسيل الكلوي التي يحتاجها جدُّكِ". كما استرسلتُ في الحديث عن الكثير من الأمور العامة دون أي تفكير. كنت أتوخَّى الحذر بين الحين والآخر كي لا أعبر الخطوط الوهمية التي ترسمها، ولكن ذلك التَّوتُّر الناتج عن الضغط دفعني بالفعل في نهاية الأمر لتخطِّي المزيد من تلك الخطوط.

"لم أكن أعلم أنك ستستقرِّين في مسقط رأسك فقط. والأدهى من ذلك أن يكون السبب التزامك بمواعيد جلسات الغسيل الكلوي الخاصة بجدِّكِ، هذا مُخالِفٌ لطَبْعِكِ. عليكِ أن تصحبي جدَّكِ مرَّةً كل ثلاثة أيام للمشفى، أليس كذلك؟ سمعت أن جلسات الغسيل الكلوي مُرهِقة للغاية؛ مُرهِقة للمريض، ولمن يصحبه للعلاج. لم أكن أتصوَّر مدى حرصك على سلامة جدِّكِ".

لو كانت انفجَرَت في وجهي غاضبةً، أو على الأقل برَّرَت موقفها بأي شكل من الأشكال حيال ما قُلتُ؛ لما شعرتُ بذلك الألم الذي شعرتُ به حينها.

قالت شيوكو وهي تبتسم:

"هذا حقيقي. أنا جبانة".

أغلقـت شـيوكو الدفـتر ودخلـت لغرفتهـا. ولم تُطلِعنـي عـلى تلـك الرُسـومات مـرَّةً أخـرى. عـادت وجلسـت بجانبـي ثـم قالـت:

"ولكن كلما زادت كراهيتك، كلما كان من الصعب عليك الرحيل".

كنـت جالسـة عنـد نهايـة الردهـة ويعترينـي الإحسـاس بالغرابـة، وحاولـت أن أسـترجع السـبب الـذي دفعنـي لتَكبُّـد العنـاء لأقابلهـا في هـذا المـكان. لم أكـن أعرفهـا جيِّـدًا لهـذه الدرجـة، ولم تكـن غريبـة كلِّيًّـا كذلـك، كانـت أقـربَ لشـخصٍ غريـب مـن أن أُطلِـقَ عليهـا صديقـة. لم تكـن تمثِّـل أي شيء مُحـدَّدٍ لي منـذ البدايـة، ولكـن علاقتنـا لم تكـن مـن النـوع السـطحي بمـا يكفـي لأحـكي لهـا عـن أبسـط الأمـور، وخاصَّـةً مـع شـخص لم ألْقَـهُ منـذ فـترة طويلـة.

"ولكنني مسرورة بقدومك".

أسـندت شـيوكو يدهـا عـلى الأرضيـة مـن تحتهـا وتحرَّكـت تجاهـي، لم ألتفـت لهـا، وثبَّـتُّ نظـري فقـط تجـاه زهـور الحديقـة الورديـة. صـوت فسـتانها الـذي لامـس الأرضيـة وهـي تقـترب منـي أوحـى لي بمـدى الوحدة العجيبـة التـي يشـعر بهـا كبـارُ السِّـنِّ. أحسسـت بالأمـر ولـو لم أنظـر إلى وجههـا.

كانت شيوكو عجوزًا.

تعلَّقـت بذراعـي، فلمسـت ذراعهـا الطريـة البـاردة ذراعـي الدافئـة الرطبـة المتعرِّقـة، فأصابتنـي القشـعريرة، ثـم أسـندت رأسـها عـلى كتفـي، فشـعرت بخصـلات شـعرها الرفيعـة الناعمـة، ثـم شـبَّكت أصابعهـا بـين أصابعـي وحرَّكـت سـاقيها في الهـواء كأنهـا تبعـثر المـاء مـن حولهـا.

"ابقي معي. لا تعودي إلى كوريا، فلنَعِشْ هنا سويًّا".

قالتهـا لي بـكل حماسـة وكأنَّ الأمـر مُمكِـنٌ بالفعـل، ولكـن مـا كان يجـول بخاطـري حينهـا نيَّتـي في عـدم رؤيتهـا مجـدَّدًا. كان مـن الأفضـل أن

تبقـى في ذاكـرتي وهـي ابنـة السـابعة عـشرة، وأن أقطـع اتصـالي بهـا؛ حتـى يتسـنَّى لي نسـيانها ببـطء.

لـو لم ألتـقِ بهانـا مُصادَفـةً في نيويـروك أمـام المكتبـة العامـة، ولم تـراودني تلـك المشـاعر المختلطـة مـن الشـفقة والفضـول تجاهها؛ لكنـت قـد محوتهـا مـن ذاكـرتي بالفعـل. لم أشـعر بالراحـة لرؤيـة الوجـه العـاري لشـخصٍ لم يسـتَطِع أن يغـادر لأي مـكان، مـع بقـاءه مُرغَـمًا في حيـاةٍ لا يحبهـا.

وحينهـا فُتـح البـاب الرئيـسي ودخل الرجـل العجـوز مشـيًا إلى الحديقة، وقـد كان وجهـه أكـثر احمـرارًا مـمَّا كان عليـه منـذ قليـل، وحينـما وقـع نظـره عـلى ذراعينـا المتشـابكتين فشـعر ببعـض الحـرج، فتَسـمّر في مكانـه بلا أي حركـة، ثـم أشـاح برأسـه جانبًـا. كان بإمكانـه التظاهـر بعـدم رؤيتنـا والدخـول للمنـزل، ولكنـه لم يفعـل ذلـك، وظـلّ مُتسـمِّرًا في مكانـه، وكأنـه أراد أن يخبرنـا أنـه يمنحنـا بعـض الوقـت لنحـلّ ذراعينـا.

حاولـت أن أحـلّ ذراعـي مـن ذراعهـا، ولكنهـا تشـبثت فيـه بـكل قوتها. نهضـتُ واقفـةً عـلى قدمـي وحرّكـتُ ذراعـي لأخلصهـا منهـا كأني أخلّصهـا مـن فـأر عَلـقَ بـه. كنـت أقـف في مواجهـة الرجـل العجـوز بالحديقـة الضيقـة. عَلَـت ابتسـامةٌ عـلى وجهـه الصـارم، بينـما كان لا يـزال مُشـيحًا بوجهـه، ولكـنَّ ابتسـامته تلـك لم تُفلـحِ في إخفـاء التَّشـنُّج العضـلي الدقيـق في وجهـه. لم أتحـرك مـن مـكاني، وكذلـك الجـد أيضًـا، وبقينـا عـلى هـذا الحـال لبعـض الوقـت.

"هذا الرجل مهووس بي".

قالـت شـيوكو هـذا الـكلام مشـيرةً بإصبعهـا للرجـل العجـوز، ثـم أضافـت بالإنجليزيـة بصـوت منخفـضٍ:

"هـذا الأحمق".

تفاجَأتُ من كلامها، وأخذت أحدِّق في وجه الرجل، فأشاح الرجل بوجهه جانبًا كأنما أراد أن يخفي دموعه التي تجمَّعَت في عينيه، ثم نظرت لشيوكو من جديد. كانت تنظر للرجل الضعيف، وبدت كأنها مستمتعة، حتى إنها بدأت تضحك، فتذكَّرتُ جدي الذي يعيش معنا، وشعرت كأنه هو مَن تعرَّض للسَّبِّ.

"ماذا قلتِ؟".

"قلت: رجل أحمق. ليته يموت ويريحني".

فقدتُ كلماتي، وعجزت عن النطق، وبدأ جسدي يزداد حرارةً، وكلَّما ازدادت حرارته صَفَا ذهني.

"لن يكون هناك ما يجمعني بكِ مُستقبَلًا. كُفِّي عن تصرُّفات الأطفال تلك".

قالت شيوكو وهي تضحك.

"أنا لا أعلم حتى مَن تكونين. مَن أنتِ بالمناسبة؟".

أسنَدَت شيوكو رأسها كسمكة ميتة على العمود، كان فمها مفتوحًا بعض الشيء، وأخذت تحدِّق في وجهي وقد خلا وجهها من أي تعبير. كرهت رؤية هذا المنظر، فأشَحتُ بوجهي جانبًا. كان العجوز متسمِّرًا في مكانه يراقب زهور شَبِّ الليل وظَهرُه مَحنيٌّ كأنَّ شيئًا لم يكن. وبحوزته كيس بلاستيكيٌّ زَهريٌّ حوى بعض التفاحات وبعض علب العصير ذات الماصَّات.

أحنيت رأسي بعدما استدار لأعتذر منه، ثم غادرت المنزل. دفعت مبلغًا إضافيًّا لشركة الطيران وركبتُ رحلة بعد الظهيرة المتَّجِهة إلى كوريا في اليوم التالي.

حلَّقَت الطائرة على مستوى منخفض، وقد كان يومًا ذا سماء صافية. نظرت خارج النافذة فرأيت البحر الواصل بين جنوب المضيق

الكوري وشمال غرب اليابان، لامِعًا يترقرق، فالأشياء التي نراها من بعيدٍ تبدو أجمل وكأنها قد خَلَت من أي عيب.

كذبتُ على جدِي وأخبرته بأنني لم أتمكّن من لقائها.

"انتظرتها بضعة أيام، ولكنها لم تكن موجودة بمنزلها. مع الأسف".

حاول جدّي أن يبتسم، وقال لي:

"تَكبَّدتِ عناء السفر بلا فائدة. فكّري في الأمر على أنه كان مغامرةً، أمّا الآن، فدعينا نَكُفّ عن الحديث عمّا كانت تفعله تلك الفتاة المدعوّة شيوكو، ولنَنْسَ أمرها. على الأغلب كانت مشغولةً للغاية. علينا أن نتفهّم الأمر".

الجد، الذي كنت أعرفه من عهد الطفولة، كان شخصًا يغضب بسبب كل شيء، حتى لو اعترف المُخطئ بأن لديه من الأسباب ما دفعه لارتكاب هذا الخطأ. فلم يكن يبالي على الإطلاق، كان الأمر ينتهي معه بعراكٍ أكبر، حتى في المشكلات التي يمكن حلُّها من خلال الحوار؛ لم يكن لديه أي نوع من التعاطف أو التفاهم، وكان كثيراً ما يسترجع حكايات من الماضي ويغضب بشأنها.

"علينا أن نتفهّمها. على الأغلب لديها ظروف هي الأخرى، فلننسَ أمرها"... مثل تلك الكلمات لم تكن في قاموس كلمات جدي. يبدو أنه أراد أن يتجنّب الحديث عنها كلية، وكأنه أراد أن يصون مشاعره، فبدا له من الأفضل الاعتقاد بأن لديها ظروفها.

كيف يمكن لأمر سخيف مثل تبادُل المراسلات أن يكون أمرًا مهمًّا له بهذا الشكل؟ مراسلات مع أجنبية تَصغُره بخمسين عامًا. ورغم أنه لم يكن ذا ثروة أو وظيفة بشكل فِعليٍّ بعد بلوغه سن الخمسين، إلا أنه لم يَعتَد أن يحني ركبتيه لأحدٍ مُطلَقًا، ولكن يبدو أنه خضع للأمر في هذه اللحظة أمام صمتها؛ دُرج طاولة القهوة في غرفة المعيشة

الذي احتفظ فيه بجميع خطاباتها أصبح خاويًا، كما توقّف عن عادة تفقُّد صندوق البريد، وبعد هذا اليوم، لم نذكر أي شيء يخصُّها على الإطلاق.

أرى صورتها أحيانًا كدُميَةٍ ملتصقة بهذا المنزل الصغير، فتمر تلك الرؤية أمام عينيَّ سريعةً خاطفة كالشبح. افترضت بأنها أصبحت تعمل في العلاج الطبيعي، وأنه ربما تكون قد بدأت بالفعل في تقاضى مرتَّبًا. ظننت حينها بأنها قد تسرَّعَت في قرارها. اعتقدتُ أن قرارها في الالتحاق بوظيفة في سِنِّ الثالثة والعشرين، وعدم مغادرتها لمسقط رأسها، كان قرارًا غيرَ موفَّق.

وحينها، وحتى تلك اللحظة، كنت أعتقد أن بإمكاني أن أعيش حياة مختلفة مميزة عن حياة الآخرين. كنت أسخر، بكل جُبنٍ، بيني وبين نفسي، من أولئك الذين يحاولون التوافق مع الواقع، ولكن ذلك الغرور الغريب قادني لأصبح لا شيء كما هو حالي الآن. كنت على يقينٍ حينها أن حياتي ستكون مختلفة عن حياة شيوكو المادية المكبوحة، وأنني سأستمتع كلَّ يوم بحياتي المفعمة بالحرية والحيوية.

تخرَّجتُ في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، ثم التحقت بأكاديمية للسينما تابعة لإحدى المحطات الإذاعية، وفي المساء كنت أعطي دروسًا خاصَّة في اللغة الإنجليزية لجمع مصروفات الأكاديمية.

بداية متواضعة، ولكنها ذات خُطًى سديدة، كنت أعدُّ السيناريو لفِرق الإعداد وأتعلَّم التصوير بالكاميرا، كما أنني حضرت محاضرات لمخرجين معروفين إلى حدٍّ ما. كنت أعلم أنني بصدد طريق طويل وشاق، ولكنني لم أشُكَّ أنني سأصبح مخرجة أفلام في يوم ما.

زملائي من الجامعة أخذوا يلتحقون واحدًا تلو الآخر بوظائف في البنوك والخطوط الجوية ودور النشر. أسأت الحُكمَ عليهم بأنهم ركَّزوا على المال والوسيلة المؤمَّنة فقط بدلًا من البحث عن شغفهم

الحقيقي. كنت أظن أن ذلك النمط من الحياة عديم الجدوى. كل ما عنيت به في تلك الفترة كان القيمة، كنت أُطَمئِنُ نفسي بأنه طالما أنني أسعى وراء حلمي فذلك معناه أنني أعيش حياة ذات قيمة. ولكنني كنت خائفة، فاحتمالات أن أصبح مخرجة أفلام وأن أصنع فيلمًا مُموَّلًا من قِبَل المستثمرين كان أمرًا أشبه بالخيال.

بعد التَّخرُّج كنت قد أرسلت أحد أعمالي لمهرجان للأفلام المستقلَّة، ولكنَّ ترشيحي قُوبل بالرفض، دون إبداء أي تعليق أو ملاحظات. قضيت عامًا إضافيًّا في كتابة سيناريو آخر لمسابقة أخرى، ولكنه قوبِلَ بنفس الرفض. الأشخاص الذين درستُ معهم صناعة الأفلام هم مَن صفعوا أفلامي لكونها سطحيَّةً ومُمِلَّة وغير أصلية، قرؤوا أسطُري بصوتٍ عال، وقد كنت أحسبها بشكل شخصي أصليَّةً للغاية، وقاموا بنزعها كلِّيَّةً. "يبدو أن عليك متابعة المزيد من التدريبات، إضافة لمشاهدة المزيد من الأفلام"، هذا ما كنت أسمعه عامًا بعد عام.

"منذ متى وأنتِ تكتبين سيناريوهات الأفلام؟"، كنتُ قد قاربت سِنَّ الثلاثين حينما تردَّدتُ في الإجابة على هذا السؤال. بدأت الكتابة قبل خمس سنوات، وعملت على بعض الأفلام الصغيرة كأحد أفراد فريق العمل الخاص بالفيلم، ولكن موهبتي كانت أكبر؛ فكُنتُ أذهب للحفلات التي تَعقُب عرض الفيلم لأستمع للفضائح، أو أكون ممَّن ينشرها.

كنت أؤمن دومًا بأن الكتابة ستمنحني الحرية، ستُحرِّرني من نفسي، ستُشتِّت حدود العالم الذي أسكنه، ولكنها أثبتت العكس من ذلك تمامًا. كنت دائمًا مضغوطة بحثًا عن المال، عانَيتُ في البحث عن وظائف، أو محاولة الالتحاق بمعاهد لدراسة السينما حتى ولو كانت متواضعة، وكبرت وعندي حساسية تجاه النقود بشكل مبالَغٍ فيه.

عاداتي الإنفاقية كانت مختلفة بشكل جذري مقارَنةً بأصدقائي الذين أصبحوا بالفعل مُدَراء في شركاتهم الخاصة. كانوا لا يسمحون ليدي أن تصل لفاتورة الحساب مُطلَقًا. كان الأمر نابعًا من مراعاتهم لظروفي، ولكن مثل تلك اللحظات كانت تُهشِّم كرامتي. أصدقائي ممَّن كانوا يعملون في دوام مستقرٍّ بساعات عمل رسمية كانوا يقضون عطلة نهاية الأسبوع في مشاهدة الأفلام والعروض، ومع ذلك كانوا يجدون وقتًا للقراءة، بينما كان حجم قراءاتي متواضِعًا بالمقارنة بهم.

على الجانب الآخر، وحينما التقيت بأصدقائي الذين يعملون في مجال صناعة الأفلام، كنت أقارن دائمًا موهبتهم بموهبتي، فما أحصل من تلك المقارنة سوى على التَّخبُّط بين جدران المشاعر الدُّونيَّة. كان إلهامي ينضب، بينما كانت أنانيتي تستفحل بمرور الأيام. كنت أتابع المخرجين الحديثين الذين حوَّلهم فشلهم لمدمني الكحول، وحتى كاتبي السيناريو الذين كانوا يعملون جنبًا إلى جنب في تدريس طلاب في المراحل المتوسطة والثانوية دون أن يتلقَّوا مبالغ إضافية نظير عملهم بعد انتهاء ساعات الدوام، وكنت أُقنِع نفسي أنني أفضل منهم على الأقل.

إذًا فحلمي كان خطيئةً. كلَّا، بل لم يكن حُلمًا من الأساس.

لو كانت صناعة الأفلام حلمًا، لو كنت قد اخترتها لذلك السبب لكنت شعرت ولو بجزء منها بشيء من السعادة والإنجاز، ولكنني كنت أُعدُّ سيناريوهات لأفلام لم أكترث لها، وكل ذلك فقط حتى أُبقي على وَعدٍ كنت قد قطعته لنفسي مُسبقًا في أن أصبح مخرجة في يوم من الأيام. كنت أوهِمُ نفسي بأنه ربما حرَّكَت تلك الأفلام قلبَ أحدٍ ما، وفي الوقت نفسه عجَزَت أفلامي عن تحريك قلبي أنا أوَّلًا.

نظرتي الإبداعية كانت قد ماتت بداخلي منذ زمن طويل. كل ما كنت أبغيه الآن هو أن أكون شخصًا مُهمًّا في مهنة صناعة الأفلام.

كنت أؤلف، ولكنها كانت قصصًا مُفتَعَلَة؛ لأنها لم تنبع من داخلي. لم أكتب رغبةً مني في الأمر؛ ولكن لأني مُضطرَّة لفِعل ذلك.

الأحلام. كانت سرابًا مُلطَّخًا بمشاعر قبيحة؛ من أمثال: الغرور والطموح والحاجة في الحصول على الاعتراف والتقدير، والرغبة في الانتقام. كل مَن حدَّثني بلسان أعوج عن صعوبة العيش دون الأفلام، أو مدى حرصه على صناعتها، كنت أستشعر من كلمات أمثالهم برائحة الرغبة النتنة التي لم تتحقَّق بعد. كان شغفي بنفس قوة شغفهم، إن لم يكن أقوى، كل ما في الأمر أنني كنت أصطنع أداءً يوحي بعدم اكتراثي للأمر كثيرًا.

الأحلام الحقيقية كانت من نصيب صُنَّاع الأفلام الموهوبين ممَّن يمكنهم تحمُّل تكاليف الاستمتاع بوظيفتهم. كذلك المجد، الذي كان من نصيبهم على أي حال. فنُّ صناعة الأفلام في العموم كان يُظهر وجهه الحقيقي لصُنَّاع الأفلام المجتهدين المتميِّزين بصدقٍ، لا المجتهدين من متوسِّطي الموهبة. غطَّيتُ وجهي بيدي بينما علا صوتي في النشيج. كان من الصعب عليَّ تَقبُّل تلك الحقيقة، فاللحظة التي يتشبَّث فيها الأشخاص معدومو الموهبة بسراب الأحلام، هي نفس اللحظة التي تتآكل فيها حياتهم.

خسرت معظم مَن كنتُ أطلق عليهم أصدقاء قبيل الالتحاق بمهنة صناعة الأفلام. بقي البعض منهم وفيًّا لي على الرغم من أنهم لم يَسلَموا من اختبار غروري الذي تَراكَم بداخلي، وقد ألقى بظلاله السوداء عليَّ. إحداهن قد تزوَّجَت من رجل يتقاضى راتبًا مرتفعًا، فحكمتُ عليها بأنها شخص مادي. وأخرى أسرَّت لي بأمر وظيفتها التي أرهقت روحها، فشعرت بشماتة تجاهها، بينما رسمتُ على وجهي ملامح التَّأثُّر. صُدِمتُ لمدى سوء أفكاري، ولكن حتى ذلك لم يَدُم طويلًا.

أمضيـت سـاعات أكـثر بمفـردي في المنـزل. لم أرغـب في رؤيـة أحـد أغلـب الوقـت، كـما أننـي لم أُكلِّـف نفـسي عنـاء الزيـارة أو حتـى الاتصـال بأمـي أو جـدي. كنـت مؤمنـةً أن أفلامـي سـتتناول الجوانـب العميقـة للنفـس الإنسـانية، في نفـس الوقـت الـذي كنـت أبتعـد فيـه عـن الأشـخاص المعدوديـن الذيـن أحبُّـوني بصـدق. لم أكـن أدرك وقتهـا كيـف دفعهـم غـروري للشـعور بالوحـدة.

اتصل بي جدي في حدود الساعة الثالثة، لم أكن قد غادرت سريري بعدُ.

"مرحبًا".

"لا زِلتِ نائمة؟ أقف أمام منزلك".

كان يومًـا مُمطِـرًا مـن أحـد أيـام شـهر نوفمبر. أنهيـت المكالمـة ونظرت لهاتفـي فـإذا بخمـس مكالمـات واردة مـن قِبـل جـدِّي، في محاولـةٍ منـه للتَّحـدُّث معـي، منـذ السـاعة الثامنـة صباحًـا. لم أكـن أعلـم عـلى وجـه التحديـد منـذ متى وهـو ينتظـرني.

كانـت قُبَّعـة جـدي البيريـت ذات اللـون البنـي المائـل للحُمـرة رطبـةً مُبلَّلـة، وأنفـه وأذنـاه كانـت حمـراء.

"يـا إلهـي! كـم عـدد الأشـخاص الذيـن يسـكنون في الطابـق الواحـد مـن المبنـى؟".

أبـدى جـدي اسـتياءه، وهـو يمـر في الردهـة المؤديـة لشـقتي، مـن الغـرف السـكنية المتلاصقـة. دخلـت الشـقة وجذبتُ نحـوه مقعـد المكتب.

"لا حاجة لي بهذا الكرسي. أُفضِّل الجلوس على الأرض".

قلَّدتُـه في الجلـوس عـلى الأرض، ولكنـه صرخ في وجهـي بأنـه ليـس مـن الصِّحِّـي للنسـاء الجلـوس عـلى الأرض، وطلـب منـي النهـوض للجلـوس عـلى الكـرسي.

"جـدي، علينـا أن نُبقـي أصواتنـا منخفضـة في هـذه الغـرف. الجـدران ليسـت عازِلـةً للصـوت".

"هذا هراء".

أحـضر جـدي معـه عُلبـةً كاملـة مـن مـشروب الفيتامينـات كمـن حضر لعيـادة مريـض. أخـذت زجاجـة مـن العلبـة وقدّمتها له.

"لا حاجـة لي بهـذا. اشربيـه أنـتِ. في كل مـرة كنـت تقولـين بأنـك مشـغولة مشـغولة؛ فحـضرت بنفـسي لأتحقّـق مـن مـدى انشـغالك. كـم كنـت أتسـاءل كيـف تعيشـين. في الواقـع ليـس هنالـك مـا أتفقـده هنـا. كيـف تتوقّعـين أن بإمكانـك مواعـدة رجـل بينـما هـذا هـو كل مـا تملكـين مـن الملابـس؟".

"إن كنـتَ ستسـتمرُّ عـلى هـذه الطريقـة في الحديـث فالأفضـل لـك أن تنـصرف".

كانـت هـذه المـرة الأولى التـي يحـضر فيهـا جـدي لزيـارتي في غرفـة الإيجـار التـي أسـكنها بسـيؤول. كان ينتمـي أكـثر لأريكتـه، أو الجلـوس فـوق حصيرتـه الحراريـة في منزلنـا؛ لـذا كانـت جلسـته في غرفتـي غـير مريحـة. كان قـد اسـتقلّ القطـار ثـم مـترو الأنفـاق ثـم الحافلـة، كـما أنـه احتمـل المطـر لرؤيتـي، ولم يكـن أيٌّ مـن ذلـك مـن طَبْعـه. ربمـا طلـب منـك الحضـور لزيارتـه، ولكنـه لم يكـن مـن ذلـك النـوع الـذي قـد يمـدُّ سـاقيه ويبـادر بزيـارة أحدهـم.

كتبـت عبـارة "ليـس مـن طبـع جـدي" عـدّة مـرات بالفعـل، ولكـن حـين أفكـر الآن في الأمـر أجـد أن جـدي الـذي أعرفـه كان جـزءًا فقـط ممّا هـو عليـه بالفعـل، وبحسـاب الزمـن، فـإن ثلاثـة أخـماس مـن حياتـه كان مجهـولًا عـلى أي حـال بالنسـبة لي.

وفي نهاية اليوم كان جدي بمثابة ضيفٍ يمرُّ بغرفتي. هذا الرجل العجوز الغريب، الذي وقف عاجزًا تحت المطر في شارعٍ لا يعرفه ولا يكترث له المارُّون، والذي سُيذكر فقط بالفشل الذي يضاهي الفشل نفسه، جلس هنا في مواجهتي وهو يتظاهر بتفقُّد غرفتي من حوله.

كان هو مَن ربَّاني وحملني فوق ظهره حينما كانت تُضطرُّ أمي للخروج لعملها. لحم جسدي وعظامي نميا بفضل رعايته، وحتى دمائي تدفَّقَت بفضله. شعرت بالامتنان له رغم ادِّعاء أن بِرَّ الوالدين هو مجرد أيديولوچيا. لم أقدِّم له أي شيء على الإطلاق، سواءً كان ماديًّا أو غير مادي. ولربما كان ذلك السبب الذي دفعني دفعًا لتجنُّبه بكل الأشكال الممكنة.

أخرج جدي شيئًا من جيبه ودسَّه بين كفَّيّ. كان ظرفًا مُغلَقًا.

"إنه من شيوكو. بدأت تراسلنا من جديد".

أخرج ظرفًا آخر من جيبٍ داخليٍّ وأراني محتوياته بكل فخر: كتيب صغير، صورة فورية من نوع "بولارويد"، وخطاب. كانت الصورة لسيدتين ورجلٍ بزِيِّ الأطباء الأبيض، ومن خلفهم السماء الزرقاء تغطي الكُتيِّب الرقراق. بدت السيدة التي توسَّطَت الصورة في منتصف العمر، وبدا كأنها مديرة المشفى، بينما بدا الشاب والسيدة الواقفان بجانبها في العقد الثاني من عمرهما. تلك الشابة كانت شيوكو. زالت عن وجنتيها الاستدارة التي كانت تُميِّزها بالملامح الطفولية، وقد صبغت شعرها وحاجبيها باللون البني، وقد أضافت الكثير من مسحوق الوجنة الوردي؛ فبدا وجهها كله ورديًّا. بينما كانت عيناها وفاها مفتوحَيْن عن آخرها من أثر التَّبسُّم المصطنَع.

ظهرت شيوكو في الصورة الفورية واقفةً وهي تضمُّ قطَّةً سوداء ذات مخالب بيضاء. وكانت الأخيرة مغمضة العينين في استسلام تام

بـين ذراعيهـا. كانـت شـيوكو مبتسـمة حتـى بـدت أسـنانها في هـذه الصورة أيضًـا.

"شـيوكو تعمـل الآن كأخصائيـة عـلاج طبيعـي في مسـقط رأسـها. ذكرت لي بأنهـا تعمـل بمشـفى كبـير. كـما قالـت بأنهـا سـتمنحني تخفيضًـا حـال فكّـرتُ في المجـيء يومًـا".

"هـل أتيـت كل هـذه المسـافة لتخـبرني بهـذا الأمـر؟ كان بإمكانـك الاتصـال بـدلًا مـن ذلـك".

"أردت، أردت أن أمرّ عليكِ فحسب".

سـاد الصمـت مـن جديـد. أخـرج جـدي لفافة تبـغٍ مـن جيبه وأشـعلها، بينـما ركّـز نظـره صوبها.

"مَـن ذا الـذي يدخّـن داخـل الغـرف السـكنية في عصرنـا هـذا؟ ستتسـبَّب في طـردي لـو علـم صاحـب العقـار بالأمـر".

لم يأبـه بتحذيـري، وأخـذ يُدخّـن لفافتـه الثانيـة، وأعقبهـا بالثالثـة في غـير اكـتراث. فكّـرتُ أن أؤنّبـه، ولكـن عِوَضًـا عـن ذلـك تظاهَـرتُ بانشـغالي في تفحُّـص وجـه شـيوكو المطبـوع عـلى الكتيِّـب. لم أعلـم مـاذا عـليّ أن أقـول، ولم أجـد معنـى لصمـت جـدي.

"أتعلمـين، هـذه هـي المـرة الأولى التـي أخـبرك فيهـا بهـذا الأمـر، ولكـن..."، بـدأ جـدي حديثـه، بينـما بقيـتُ صامتـةً.

"لم أكـن أعلـم أنـك سـتكبرين لتصبحـي هـذه المـرأة العظيمـة التـي أنـتِ عليهـا اليـوم. سـافرتِ لسـيؤول للدراسـة، ثـم أصبحـتِ مخرِجـة أفـلام. شَـقَقتِ طريقـك دون أن تطلبـي مسـاعدتنا. لم تكـترثي لأيِّ شيء، وعِشـتِ كـما تريديـن. بالنسـبة لي، هـذا أمـر يثـير إعجـابي".

أطفـأ جـدي لفافتـه في علبـة القهـوة المعدنيـة، ثـم أخـذ يحـدِّق فيَّ. كان يحـاول إخفـاء شـعوره بالشـفقة مـن ملامـح وجهـه. كان رجـلًا قليـل

الخبرة فيما يتعلَّق بأمر إخفاء المشاعر، فبدت جليَّة على وجهه. كان يعلم أنني أغرق في الوحل. لا بُدَّ أنه فطن أنني لا أتلقَّى دعمًا من أي أحد، ولربما هذا ما دفعه لقول تلك الكلمات بغرض مواساتي. لم أجد ما أقوله سوى أن أنظر للكتيب وأعلِّق:

"لماذا وضَعَت كل تلك المساحيق على وجهها فبدت كإحدى ممثلات الكابوكي؟".

"تبدو جميلة. يمكنها أن تفعل ما يحلو لها. سواءً كانت تشبه ممثِّلات الكابوكي أو ممثلات أوبرا بكين".

قال جدِّي جُملَتَه ثم نهض.

"ماذا؟ لماذا سترحل باكرًا؟".

"حضرتُ فقط لأخبرك بذلك الأمر. لا أريد أن أعطِّلَكِ أكثر من ذلك مع انشغالك".

كان جدي يعلم أنني لست مشغولة على الإطلاق، وللسبب ذاته كان بإمكانه الحضور على عتبة منزلي دون خبرٍ مُسبَق. يبدو أنه كان على يقين من أنني سأكون متواجدة بالمنزل في الساعة الثالثة عصرًا. فشلت في إقناعه بالبقاء لفترة أطول، فصحبته للخارج.

عجزت عن فتح مظلَّتي الوحيدة ذات الطي المزدوج. جدي الذي لا يطيق الانتظار كان قد تحرَّك بالفعل وتقدَّم لمسافة بعيدة. كانت المظلة من النوع الذي يُفتح بمجرد الضغط على الزر، ولكن الزِّرَّ كان مُعطَّلًا، وكذلك طريقة الفتح اليدوية لم تفلح معها هي الأخرى. نزلَت حبَّات المطر بكثافة، فشعرت بالغضب تجاه جدي الذي لم يُحضِر معه مظلَّته في هذا الجو الممطر. كان هناك محلٌّ استهلاكي بنهاية الزقاق، ولكن لم يكن معي أي نقود لأشتري له مظلَّة.

تمهَّل جدي في خطوته السريعة واستدار نحوي وأخذ يلوِّح مبتسمًا بلا سبب. حملت المظلة المعطَّلة وركضت نحوه، تحاملت على دموعي بصعوبةٍ، وعهدتُ على نفسي ألّا أدعها تنزل أمامه، ثم أعطيته المظلة.

"لا حاجة لي بها. السماء ليست ممطرة لهذه الدرجة. ما بالك تبكين؟".

أخذت المظلة سريعًا من يد جدي مرَّةً أخرى، وحاوَلتُ بكل قوة أن أفتحها.

"المظلة، المظلة مُعطَّلة. كانت تفتح جيِّدًا فيما سبق، ولكنها تتعطَّل بهذا الشكل بمجرد أن أحتاجها".

"الأمر لا يستحق دموعك. ناوليني إيَّاها".

فُتِحَت المظلة بمجرد أن لمسها جدي، وهي ذاتها التي أبت أن تُفتح منذ قليل. أخذ يضحك ثم ناولني إياها. طلبت منه أن يأخذها، لكنه رفض. بدأ المطر يهطل بشكل أقوى. فعرَضتُ عليه أن أصحبه لمحطة الحافلات على الأقل، ولكنه أخبرني أنه بخير وأنه سيذهب بمفرده. بدأت عيناه في الاحمرار وهو يتحدث معي، كأنه أراد أن يخبرني "دعيني حتى أطلق دموعي الحبيسة". تركتُ يده، وعلى الفور تقدَّم في طريقه دون أن يلتفتَ للخلف نحوي مرة أخرى.

ذلك الرجل العنيد المندفع، وطيب القلب، ذلك الرجل العجيب جدِّي. يا له من رجلٍ فوضويٍّ! حملت المظلة التي تركها لي ووقفت أنظر لهئيته وهو يغادر حتى تلاشى من أمامي.

عزيزتي سويو

كيف حالك؟ أعلم أنك قد نسيتني بلا شكٍّ، ولكني سأبعث لك بخطابي هذا. قبل أن تأتي لمنزلي علمتُ من هانا أنك قد قابلتِها في نيويورك. حصلت على عنوان بريدك الإلكتروني منها، ولكني فشلت في إرسال رسائل بعد عدّة محاولات من الكتابة والإلغاء والكثير من الهوامش.

سأضع الأمر بشكل مُبسَّط. كنت مريضة حينها. يمكنك أن تسمِّي الأمر عُذرًا، ولكنها الحقيقة؛ ولذا أخبرك بها الآن. كان هناك أعراض منذ المرة الأولى التي التقيتك فيها، ولم أكن نفسي حتى قبيل امتحان الالتحاق بالجامعة. كتبت لك حينها بشأن الكثير من الأشياء. كنت أهوِّل في بعضها، ولكنها كانت أمورًا حقيقة جميعها.

سألتِني عن سبب عدم ذهابي لطوكيو. أردتُ الذهاب حقًّا أكثر من أي شيء. ظننت أنه سيكون من الأسهل أن أموت هناك. لأنني لو بقيت في مسقط رأسي فإن جدِّي وعمتي كانا يتناوبان على ملاحظتي طوال الوقت؛ خشية أن أُقدِم على الانتحار، أو أصيب نفسي بأي أذى. حاولت مرّة، ولكنّ جدي أنقذني حين كنت قد أوشكت على الموت. أنقذ حياتي، ولكنني كرهته حينها بسبب ذلك الأمر.

كان يخبرني أن في هذا العالم أشخاصًا يتمنَّون أن يعيشوا وليس ذلك باستطاعتهم فلم أفكِّر بهذا الخواء، وأن عليَّ أن أتحلى بالعزيمة والإرادة النفسية القوية. كان ينصحني بالاستماع لمحاضرات عن روح الساموراي. لم يفهم أيٌّ منهم أن الاكتئاب مرضٌ يحتاج لعلاج. ثم ساءت حالتي في تلك الفترة.

لم يكن جدي السببَ وراء قرار عدم السفر لطوكيو. لم يكن هو مَن يحتاجني؛ بل كنتُ أنا مَن أحتاجه. كنت أخشى من الإقدام على إنهاء حياتي بشكل فِعليٍّ لو سافرت إلى طوكيو، حتى حينما

أقدَمتُ على الانتحار في منزلي، كان عندي يقين داخلي من أن أحدهم سينقذني. كنتُ خائفة؛ ولذا بقيت في مسقط رأسي. كنتُ معتمدةً على جدي وعمتي، بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كنت أشعر بالوهن معظم الوقت، وفي الأوقات التي شعرت بها بصفاء ذهني كنت أشعر كأن شُعلةَ نيران تحرق دماغي من أجل الوقود. كنت غاضبةً من كل شيء في الوجود، حتى ذاتي. وحينما كان غضبي ينزوي قليلًا كنت أشعر بجسدي وعقلي قد تحوَّلَا لهشيم محتضر. كنت أمرُّ بهذه المرحلة مرارًا وتكرارًا. يقولون بأن سِنَّ التاسعة عشرة والعشرين والواحد والعشرين هي سنوات العمر الوردية، ولكن كل ما أذكره من هذه السنوات أنني كنت أتمنى الموت يومًا تلو الآخر.

أتذكَّر بشكل ضبابي يومَ زيارتك لمنزلي. كانت حينما بدأتُ أتناول العلاج لحالتي. أذكر أنني كنت سعيدة برؤيتك (لو كنت كلبًا لبلَّلتُ نفسي تأثُّرًا برؤيتك)، أطلَعتُكِ على دفتر الرسم خاصَّتي، وتأبَّطتُ ذراعك، وقلت لك أشياء فظيعة. كنت في حالة دوار بعد أن أخذت دوائي ولم أشعر بشيء حينما دفعتِني بعيدًا. حتى عندما هرعت فجأة للخروج من البوابة الأمامية لم يخطر ببالي أن ألحق بكِ. كنت أعتقد بأنك ستعودين بعد أن تقولي: "مفاجأة!". نِمتُ لفترة طويلة فوق المصطبة الأمامية، واستيقظت وكانت الشمس قد غربت بالفعل، وحينها فقط أيقنت -بشديد الأسى- ما فعلته بكِ. لقد خسرتُكِ للأبد. لا أطلب منك أن تسامحيني. يمكنك أن تلوميني على خطابي ظنًّا منكِ أنني أكتبه لأريح ضميري. لن أنكر الأمر كليًّا. أتمنى أن أنعم ببعض السلام الداخلي الآن. سأكتب لك بين الحين والآخر.

شيوكو

كان اليـوم لا يـزال نهـارًا، ولم أتمكَّـن مـن النـوم. قضيـت الليلـة عـلى مقعـد المكتـب أحملـق في الفضـاء خـارج نافـذتي وهـو يتحـوَّل مـن اللـون الأسـود للكحـلي، ثـم إلى الأصفـر السـاطع. كنـت أراقـب طلبـة المـدارس المتوسـطة والثانويـة وهـم يحملـون حقائبهـم عـلى ظهورهـم حينـما نادتنـي أمـي. كان صوتهـا منخفضًـا وغليظًـا.

"هل زارك جدُّكِ بالأمس؟".

"نعم".

"أيَّتها الشابة، هل فقدتِ عقلك؟".

"رجـل تخطَّـى الثمانـين يسـافر كل هـذه المسـافة لسـيؤول تحـت المطر والـبرد. هـل طـرأ عـلى ذهنـك أن تسـأليه المبيـتَ، أو أن تُعِـدِّي لـه وجبـة عـلى أقـل تقديـر، بـدلًا مـن أن تتركيـه يرحـل بمعـدة خاويـة؟".

أنهـت أمـي جُملَتهـا ثـم تنفَّسَـت. وعـلى الجانـب الآخـر مـن الهاتـف المحمـول سـمعت صـوت جـدي يخبرهـا بالتـالي: "أخبرتُـكِ أننـي مَـن أراد السـفر! أردتُ رؤيتهـا فحسـب. فبـأي حـقٍّ توبِّخينهـا؟".

"هـل كان الأمـر صعبًـا لهـذه الدرجـة؟ فيـمَ كنـتِ مشـغولة لهـذه الدرجـة، لدرجـة تدفعـك لـترك جـدِّكِ يسـافر في الـبرد؟ وحتـى بالنسـبة لـكِ، فهـذا تـصرُّفٌ غـير ناضـج عـلى الإطـلاق".

لم أنبس بكلمة، وكل ما فعلته هو الاستماع لها فقط.

مـا لاحظتـه مـن صوتهـا غـير المسـتقر أن ثورتهـا تلـك لم يكـن القصـد منهـا اسـتهداف تقصـيري السـاذج فحسـب. صحيـح أنهـا صبَّـت جـام غضبهـا عـليَّ، ولكنهـا كانـت ثائـرةً ضـد جـدِّي بنفـس القـدر.

أظن أن جدي كان يشعر بالخزي من فكرة المرض.

لأنـه، وكـما حـدث، فهـو لم يفلـح مطلقًـا في تَقبُّـل فكـرة التقـدم في العمـر. ربمـا ظـنَّ أن فكـرة الرجـل العجـوز المريـض ليسـت بالأمـر الجذاب. كيـف يتجـرَّأ المـرض البائـس في زعزعتـه وتدمـيره؟ ولكـن في واقـع الأمـر ذلـك مـا كان يحـدث بالفعـل، كل مـا هنالـك أنـه لم يكـن متقبِّلًا للفكـرة. لم يكـن مرضـه مـن النـوع الـذي يمكـن صراعـه بـإصرار وعنـاد.

كان ذلـك في الفـترة التـي كنـت أشـتكي فيهـا مـن عـدم قـدرتي عـلى كتابـة سـيناريو جيـد أثنـاء حضـوري جلسـات الـشراب التـي يعقدهـا بعـض مـن المعروفـين بأفلامهـم الجيـدة. وفي الفـترة التـي كنـت أمـضي أوقـاتي في "الكتابـة" عـلى مكتبـي، أو أتصفَّـح أخبـار الفضائـح الخاصـة بالمشـاهير، كان جـدي قـد بـدأ في ارتيـاد العيـادات الخارجيـة منـذ عامـين بالفعـل. وهـذا مـا علمتُـه فيـما بعـد. وحتـى في اليـوم الـذي حـضر فيـه لشـقَّتي، كان لا يـزال يتلقَّـى العـلاج.

كنـت في أحيـان كثـيرة لا أجيـب عـلى مكالماتـه، وفي أحيـان أخـرى أجيبه وأنـا غـير منتبهـة لمـا يقـول. والسـبب أنـه كان موجـودًا عـلى الـدوم. وحتى لـو طـرأ أمـرٌ مـا، فإنـه بطبيعـة الحـال، ودون أدنى شـكٍّ؛ سـيكون موجـودًا. وكل مـا شـغلني حينهـا هـو أن أحسِّـن مـن وضعـي، وأن أثبـت في مـكان محـدَّدٍ حتـى أشـعر بالفخـر حيـال نفـسي. جـدِّي لم يسـبق لـه بـأي حـال مـن الأحـوال أن أثـار الضجـة أو الشـكوى حيـال وضعـه الصحـي، ولـو كان هنـاك أمـرٌ مـا يتباهـى بـه فـكان أنـه نـادرًا مـا يُصـاب بالـزكام، بالرغـم مـن أنـه طاعـن في السِّـنِّ.

أخبرتنـي أمـي بـكل شيء في مكالمـة هاتفيـة في اليـوم الـذي خـرج فيـه جـدي مـن المشـفى. وقـد طلَبَـت منـي أن أُرجـئ عمـلي قليـلًا وأحـضر للبيـت، عـلى الأقـل مـرة واحـدة خـلال أيـام الأسـبوع؛ لرعايتـه. كانـت تخـبرني أن عليهـا مسـؤولية تأمـين تكاليـف المعيشـة، وأنهـا سـتعوِّضني بمبلـغ مُـرضٍ، وكأنهـا لم تكـن واثقـة مـن أننـي سـأقبل حتـى ولـو لم تذكـر

أمـر التعويـض المـادي. ولكـنَّ الفجـوة بيننـا كانـت كبـيرة بالفعـل بحيـث لا يمكننـي أن ألومهـا عـلى ظنِّهـا.

كان جـدي يتابـع مبـاراة البيسـبول في التلفـاز وهـو شـارد، بينـما جلـس عـلى الأريكـة. رآني عندمـا حـضرت، لكنـه لم يحـرِّك سـاكنًا إلَّا مـن ابتسـامة باهتـة. صـار جِلـدًا فـوق عظـم، ووضـع عـلى رأسـه قُبَّعتـه البيريـت التـي ارتداهـا يـوم زارني في شـقتي. أجـزاء مـن الأريكـة القرمزيـة التـي جلـس عليهـا بـدأت تتشـقَّق حيـث أسـند رأسـه، بحيـث انكشـفت معهـا بطانـة الأريكـة السـوداء مـن تحتهـا.

جلسـت بجانبـه أتابـع مبـاراةً لا أعلـم حتـى قواعدهـا. لاعـب ذا وركٍ ممتلئـة يتأهَّـب لـضرب الكـرة، مُثبِّتًـا قدميـه مـع تحريـك ردفـه.

"هذا مُمِلٌّ. أريد متابعة شيء آخر".

"أوشـكت المبـاراة عـلى الانتهـاء. دعينـا ننتظـر حتـى نعـرف كيـف سـتنتهي المبـاراة".

أخذت مُحوِّل القنوات من يديه وبدأت أقلِّب القنوات.

"كُفِّي عن ذلك. أعيدي لي المحوِّل. سأكمل ما كنت أتابعه".

"وهـل أمسـكتُ المحـوِّل مـن قبـل؟ كنـتَ تُشـاهد مـا يحلـو لـك حتـى هـذه اللحظـة".

حـاول جـدي خطـف المحـوِّل مني، ولكـنَّ يدَيْـه لم تملـكا القـوة الكافية. ملامـح وجهـه كانـت توحـي بالمجهـود الـذي بذلـه في سـبيل الحصـول عـلى المحـوِّل، وعـلى الرغـم مـن ذلـك بـاءت محاولاتـه بالفشـل. حوَّلـتُ القنـاة عـلى قنـاة الموضـة، وتابعـت برنامجًـا يوضِّـح كيفيـة وضـع مسـتحضرات التجميـل. كانـت الحلقـة بعنوان"مكيـاج العيـون لإغـراء حبيبـي". مـشى جـدي ببـطء ناحيـة التلفـاز ثـم فصـل الكهربـاء عـن الجهـاز.

" إذا كنَّا لن نشاهد مباراة البيسبول فلنطفئ هذا الجهاز اللعين".

"إلى متى ستظل على عنادك هذا؟ كيف لك أن تكون بهذه الأنانية ولا تراعي الآخرين؟ كل ما يهمُّكَ أن تسير الأمور وفق هواك فقط، أليس كذلك؟".

عاد جدي لجلسته على الأريكة بينما أحنى رأسه.

"لماذا لم تخبرني من قبل؟".

"اللعنة. هذا هراء".

"هل أنت سعيدٌ الآن؟ سعيد لما آل إليه حالك؟".

رفع جدي رأسه ونظر في وجهي.

"ظننتُ حقًّا أنني سأكون بخير".

أردت أن أجيبه ولو بكلمة، ولكني لم أقوَ حتى على تحريك فكّيَّ. ظننت أنني لو حرّكتُ فكّيَّ لأتحدث لنزلت دموعي على الفور. حينها فقط، أدركت كم كان وجهه نحيلًا. أصبح جسده أكثر نحولًا، كنت قد لاحظت اصفرار جلده، وظننت في بداية الأمر أن هذه مرحلة طبيعية مع تقدُّم العمر، وكل ما في الأمر أن تلك العملية تسير بوتيرة أسرع. كيف كنتُ على وعي تام بحالي بينما لم أعلم عن جدي أي شيء على الإطلاق؟

خلع قبعته ووضعها على ركبتيه. كان ما تبقّى من شعره الأبيض الخفيف خامِدًا بسبب القبعة. كان يدافع عن نفسه بشدة كرجل يفترق عن حبيبته.

"أقسم لكِ، لو كنت أعلم أن الأمر سيصبح بهذا السوء لأخبرتك عاجِلًا، ولأتيتُ لزيارتك بشكل متكرِّر".

ابتسم جدي ابتسامة مريرة.

"تُرى لو أخبرتكِ سابقًا فهل كنتِ ستزورينني أكثر؟".

احتضنت رأسه بقوةٍ بدلًا من أن أجيبه، ففاحت من رأسه رائحة فروة الشعر الدهنية.

وهكذا مرَّت على جدي خمس وستون ليلة ثم تُوفي.

لم أكن يَقِظةً في حياتي كما كنت طوال تلك الليالي الخمس والستين.

وكأننا خضعنا لقانون غير مرئي حكم علينا أن نبيت ثلاثتنا سويًا في الغرفة الداخلية. نام جدي تجاه الخزانة، بينما نامت أمي تجاه النافذة، ونِمتُ بينهما. كنا نطفئ النور ونتبادل الحكايات بينما نحملق تجاه سطح الغرفة. أشياء لم نقدر أن نبوح بها من قبل. أشياء كنا نظن أنه لا داعي لذِكرها، ولكننا تحلَّينا بالشجاعة، وشاركناها مع بعضنا البعض. كأننا كنا نتعرَّف على بعضنا البعض للمرة الأولى، أو أننا نتعلم الحديث لأول مرة.

في بداية الأمر دارت حواراتنا بيني وبين جدي أو بيني وبين أمي.

"أين نقلتَ خطابات شيوكو؟ تلك التي كانت في درج طاولة القهوة؟".

"تقصدين تلك الخطابات؟ لقد تخلَّصتُ منها".

"لماذا؟".

"كنت مستاءً".

"لماذا تحبها كلَّ هذا الحب يا جدي؟".

"إنها جميلة، أليس كذلك؟ كما أنها مبتسمة على الدوام".

تدخَّلَت أمي في الحوار قائلة:

"أبي لم يسبق له أن أخبرني أنني جميلة قطُّ. أشعر بالغيرة".

وبعد مرور عدة أيام، بدأ جدي وأمي أخيرًا يتحدثان لبعضهما البعض، وكنت بينهما.

"أبي، عشتَ أربعين عامًا بمفردك، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح".

"لماذا يا أبي؟".

"... وماذا عنكِ؟ لماذا لم تلتقي برجل آخر بعد رحيل صهري السيد لي".

"يا إلهي! أنتَ لم تفطن للأمر بعدُ. بلى، لقد فعلت؛ واعَدتُ الكثير من الرجال".

"إذًا فلتتوقَّفي الآن عن مجرد المواعَدَة، وانتقلي للعيش معه".

حقيقة احتضار جدي المؤكَّدة كانت مثل الترياق السام العلاجي لثلاثتنا. رغم ذلك فالسُّمُّ يبقى سُمًّا. زادت عدد جرعات مُسكِّن المورفين الذي يأخذه جدِّي، ثم بدأ يتقيأ كلَّ ما يأكله، وفي أحيان أخرى لم يستطع تناول الطعام مُطلَقًا. ولا حتى السائل المعلَّب منه.

أردت تبادل أطراف الحديث معه، أردت أن أُطفىء التلفاز لساعة أو اثنتين وننظر لبعضنا البعض. كان جدي طيلة حياته شخصًا غير ودود، لا يجيد قول أشياء لطيفة للغير، ولكن مَن كان يدري أن السبب وراء ذلك يُعزَى لخجله؟ تذكَّرتُ كيف تخلَّص من هذا الخجل فقط مع اقتراب أجَلَه، حتى إنه أخبرني بالكثير من الأشياء. كان قد وُلد في عصر يشين الإفصاح عن المشاعر على اعتبار أن الأمر غير رجولي، وبالرغم من تلك التَّحكُّمات إلَّا أنه كان يُظهر بعض براهين المحبَّة بين الحين والآخر.

شهدتُ مع أمي اللحظات الأخيرة لجدِّي؛ ولهذا السبب وحده سامحتها، وتحسَّنَت علاقتنا بشكل كبير، لدرجة تَمكُّنِنا من مشاركة حوار مع بعضنا البعض.

لم أكن قد سامحتها لفترة طويلة من الزمن. عادت أمي لمزاولة عملها بعد ولادتي مباشرة، ويبدو أن كل ما أهمَّها حينها هو أن تُخفي

مـن أمامـي أمـرَ وفـاة والـدي، وكأن الأمـر كان مجـرد إشـاعة مُخزيـة. شـعرت أنهـا قـد سـلبتني حقّـي في الحـزن عليـه عـلى مَـرِّ السـنين. وفي الأيـام الممطـرة، كنـت أمـرُّ بالآبـاء الذيـن حـضروا لاصطحـاب أطفالهـم مـن المدرسـة وبحوزتهـم مظلاتهـم، بينـما ابتللـتُ وحـدي في المطـر أثنـاء عـودتي للمنـزل، كنـت أُعلِّـق مفتـاح البـاب الرئيـسي لمنزلنـا حـول رقبتـي، وأسـير في حيَّنـا حتـى أصـل للمنـزل الـذي لطالمـا كرهتـه. أمـي التـي كانـت تدخـل غرفتهـا لتنـام وتوصـد البـاب. أمـي التـي لم تكـترث مطلَقًـا، لم توبِّخنـي ولـو لمـرة واحـدة حـال كل الأمهـات.

أعتقـد أنهـا، قبـل ثـلاث سـاعات مـن وفـاة جـدي، قامـت بحجـز دار لاسـتقبال المعزِّيـن، كـما جهَّـزت في حقيبتهـا مُتطلَّبـات العـزاء؛ مـن أطبـاق وملاعـق وغيرهـا مـن الأدوات التـي سـنحتاجها في القاعـة. أمسـكت يدهـا حينـما بـدأ جـدِّي يتنفَّـس بصعوبـة. كانـت بـاردةً وقاسـية، دون أدنى ترطيـب يُذكَـر.

طلَبَـت أمـي سـيارة الإسـعاف حـين توقَّـف جـدي عـن التَّنفُّـس، ارتعـش صوتهـا بعـض الـشيء، ولكـن كان هـذا كل شيء فحسـب. انحنيـتُ عـلى جسـد جـدي النحيـل وبكيتـه بحُرقَـة، بينـما وقَفَـت أمـي عـلى بُعـدٍ، واكتفـت بمراقبتـي. لم تبـكِ، ولم تبتـلَّ عيناهـا بالدمـوع.

وحتـى في قاعـة العـزاء كانـت تتنـاول وجبـات صغـيرة مـن الفـول السـوداني والحبَّـار المجفَّـف، وأشـياء أخـرى، في الفـترات التـي يتنـاوب فيهـا المعـزُّون عـلى الـدار، وكانـت تُجـري مـع المعزِّيـن أحاديـث طبيعيـة عـن الحيـاة اليوميـة وهـي تضحـك. سـمعت تَهامُـسَ بعضهـم في دورة الميـاه. "هـل رأيـتِ أم سـو يـو؟ إنهـا صُلبـة كالمسـمار". "أُشـفق عـلى الرجـل العجـوز؛ فابنتـه الوحيـدة بـلا قلـب، عـار عليهـا". "لـو كان لـه ولـد محـترم، لَـمَا كان الأمـر بائسًـا لهـذه الدرجـة"...

تسرَّب الغضب لنفسي تجاه أولئك الذين لم يعلموا عنها شيئًا، ورغم ذلك أصدروا أحكامهم ضدَّها ممَّا ظهر لهم على السطح. كان شعورًا غريبًا عليَّ، أن أراها من خلال وجهة نظرهم. كانت أمي من النوع الذي يكبت حزنه، يدفنه بعمق حتى نسِيَت كيف تحزن. شخص فَقَدَ والده الذي عاش معه طيلة حياته، ورغم ذلك لم تتمكن من السماح لدمعة واحدة أن تنزل من مُقلَتَيْها دون أن تخاف، لم تعرف كيف تنتحب وتجفِّف دمعها وتمحو عنها آثار الألم، كانت تعاني فقط من خلال أعراض غير مرئية، كآلام الرأس واليدين وقدميها الباردتين.

كنت ممسكة بكفَّيها المتجمِّدتَيْن مثلما فعلتُ منذ قليل في الحافلة التي أقلَّتنا لمقر حفظ رفات الموتى، ورغم ذلك فقد عجزت عن تدفئتها. كانت تنظر لوجهي المنتفخ ببرود. كان بياض عينيها أبيض، وبه مسحة من الزُّرقة.

"أريد البكاء".

قالت أمي جُملَتها وهي تبتسم بصعوبة، وعلى كتفيها انسابت بعض خصلات من شعرها الذي لم تحكم ربطه، فتطايرت هنا وهناك. استخرجت بعض دبابيس الشَّعر من جيبي وثبَّتُّ نهايات الخصلات في أماكنها.

"حتى أنتِ تظنين أنني أتصرف بغرابة، أليس كذلك؟".

هززت رأسي، ثم أومأت قائلة:

"نعم. أنتِ غريبة بالفعل".

لم أكن لأجرؤ على قول ذلك من قبل، حينما كنت لا أزال متحفِّظةً وأشعر بتلك الفجوة تجاهها. ضحكت أمي قليلًا، ثم غَفَت على كتفي.

تفقَّدنا ملابس جدِّي، وتبرَّعنا بأربع علب للمتجر القريب منَّا. جوارب مثقوبة، وملابس داخلية رثَّة، ومشط شَعرٍ بلاستيكي تعلوه طبقة من الدهون، وحذاء رياضي منحول من أسفله، وزوج من النعال الجلدية مُغطًّى بطبقة قشرية بيضاء، وزجاجة عطر أوشكت على النفاد؛ كل تلك المحتويات جمعناها في كيس قمامة بلاستيكي سعة عشرين لترًا. ولم تتردَّد أمي في التخلص من كُتيِّب القصاصات التي جمعها جدي لأخبار كرة البيسبول من فترة الثمانينيات والتسعينيات. أخذت نظارته المكبِّرة التي كان يستخدمها لتصفُّح الجرائد، وطقم أسنانه؛ بُغيةَ وضعها في الدرج الخاص بمكان حفظ الموتي الذي ستستقرُّ فيه رفاته. وضعت أمي قُبَّعته البيريت المفضَّلة، وقُبَّعته التي كان يستخدمها في الموسم الصيفي من نوع الفيدورا، والقبعة الأخرى من نفس النوع ذات اللون الأزرق الداكن في غرفتي.

طلبت مني أن أختار ثلاث صور لنضعها في خزانة حفظ الرفات بجانب رفاته، فاخترت صورتي وأنا رضيعة وجدي يحملني في غرفةٍ أضاءتها أشعَّة الشمس، ثم اخترت أخرى وهو يقف على مسافة شِبرٍ من أمي يوم تخرُّجها من المرحلة المتوسِّطة، وقد أبقيا ذراعيهما بشكل مستقيم أمامهما أمام عدسة الكاميرا التي التقطت صورتهما، لم يكن أيٌّ منهما يحمل باقة الورود المتعارَف عليها في حفلات التَّخرُّج.

ولكن كانت هناك صورة واحدة فقط جمعت ثلاثتنا؛ أنا وأمي وجدي.

كنا نجلس في ارتباك وأمامنا نصف ثمرة بطيخ. توسَّطَنا جدي في الجلوس، وقد أظهر ابتسامة خفيفة بينما أطبق على شفتيه، أمَّا أنا فأمسكت شريحة بطيخ بإحدى يديَّ، وبالأخرى أشرت بعلامة النصر، وعلى وجهي ابتسامة مُرتبكة. بينما أمسكت أمي بسكِّين المطبخ ونظرت للكاميرا دون أي تعبير على الإطلاق. كانت شيوكو هي مَن التقط تلك الصورة.

لم يكـن أيٌّ منهـما يحـب التقـاط الصـور. تقـول أمـي إن وجههـا في الصـور يظهـر متيبّسًـا، أمَّـا عـن جـدي فـكان يقـول: "مـا حاجـة عجـوز مثـلي لالتقـاط الصـور". أعتقـد أن فكـرة أمـي عـن صورتهـا الذاتيـة الحقيقيـة كانـت صـورة ذاتهـا المبتسـمة، أمَّـا جـدي فكانـت ذاتـه الشـابة هـي صورتـه الذاتيـة عـن نفسـه. كانـت شـيوكو تتبعهـما في كل مـكان عـلى أيِّ حـال لالتقـاط صورهـما، ولم يكـن لهـما خيـار آخـر سـوى أن يدعاهـا تصوِّرهـما.

أرفقـت شـيوكو الصور مـع خطاباتهـا حينـما كانـت تراسـل جـدي. وفي إحداهـا كنـتُ أقـف عـلى مسـافةٍ منهـا بجانـب النهـر، مرتديـة نظـارة ذات عدسـة غليظـة، وكان ذلـك قبـل أن أسـتبدلها بالعدسـات اللاصقـة، وبجانبـي وقفـت شـيوكو بثبـاتٍ، وقـد بـدت أصغـر سـنًّا. في تلـك الفـترة بـدت شـيوكو أكـبرَ سِـنًّا منـي بكثـير، ولكـن شـيوكو المبتسـمة في الصـورة بـدت كطفلـة.

كانـت صـور شـيوكو مجموعـةً بربـاط مطاطـي أصفـر ومُخزَّنـة في قـاع علبـة أحذيـة. كانـت هنـاك صـورة لأمـي في غرفـة المعيشـة وهـي ترتِّـب عيـدان البصـل الأخـضر التـي فرشـتها فـوق صفحـات الجرائـد، وفي الشرفـة كنـت واقفـة مـع جـدي أعلِّـق الملابـس المغسـولة، وكانـت هنـاك صـورة أخـرى لجـدي وأمـي وهـما جالسـان عـلى الأريكـة ويبتسـمان في ارتبـاك. كـما كانـت هنـاك صـورة أخـرى لجـدي مرتديًـا قبَّعتـه البيريـت وهـو جالـس عـلى مقعـد بجانـب النهـر وفي يـده مـضرب لعبـة تنـس الريشـة، بَـدَا وكأنـه يهـمُّ لـضرب ذبابـة.

سـألت أمـي مـا إذا كانـت شـيوكو عـلى علـم بخـبر مـرض جـدي، قالـت إنهـا لا تعلـم مـا كان يكتبـه كلاهـما لبعضـه البعـض، ولم يكـن هنـاك أي أثـر لخطاباتهـا بـين متعلَّقاتـه، يبـدو أنـه قـد تخلَّـص منهـا جميعًـا، عـدا

كُتيِّب الصور خاصَّته، ومجموعة الصور السابقة، وفي المقابل لم ترسل شيوكو -على حدِّ علمي- أيَّ خطابات في الفترة السابقة لوفاته.

"لقد بقي والدي في المنزل وحده ثلاثين عامًا".

كانت أمي تقول كلماتها وهي تتحسَّس الجزء المتقشر من سطح الأريكة بفعل الاحتكاك مع رأس جدي.

"هل تصدقين ذلك؟ هذا يساوي عمرك".

أشارت أمي للنبتة الصناعية في إحدى أركان الشرفة.

"لم يكن مختلفًا في شيء عن هذه النبتة. هذه.. تسبَّبَت في اختناقي أكثر ممَّا تتخيَّلين".

في عمر العاشرة، بدأ العمل كمساعد للمبيعات في إحدى المتاجر. كان يدير متجر عمِّه مستخدمًا إطار العَدِّ الصيني حينما كان لا يزال صغيرًا وهو بعمر إلقاء نوبات الغضب الطفولية على الأهل كحال الأطفال في مثل عمره، وحيث إن عمه لم يُرزق بالذُّرِّيَّة؛ فقد قرَّر جدُّه أن يتعلم حفيده سرَّ المهنة، وبخلاف أيام الحرب، فلم يتغيَّب جدي عن دوامه مطلقًا حتى أتمَّ عامه الخمسين، حينما انهار المتجر. وقد أُجبر وهو في الخمسين على بيع المتجر، وبناءً على ما اعترف به لأمي، فإن قرار البيع يرجع لأخطائه الصغيرة.

قالت أمي إنه ربما كان قد تعرَّض لواقعة احتيال من قِبَل صديق مُقرَّب.

كانت تكرر عليه السؤال ذاته على مدار عشرات السنين، ولكنه لم يجبها مُطلَقًا، وكان يتحاشى مقابلة الناس.

"لا أذكر أبي من فترة طفولتي. كان يأتي البيت للنوم فقط. ولم يقضِ وقتًا فيه سوى في الأيام الأخيرة قبل إفلاسه. لم يكن موجودًا على الإطلاق حينما كنت بحاجة إليه. ثم أصبح يمكث في البيت ولا يغادره حين أصبحت مستعدَّةً للاستقلال بحياتي".

قالـت لي أمـي إن أهـل أبي كانـوا يتراشـقونها بكلـمات اللـوم وهـم يـردِّدون "لمـاذا عـلى ابنهـم الغـالي أن يـساعد حـماه". حتـى إنهـم بالغـوا في الأمـر وقالـوا: "لمـاذا لا يخـرج للعمـل مَـن لا يـزال يتمتـع بالصحـة بـدلًا مـن المكـوث في المنـزل؟"، ولكـن أبي كان يجيبهـم بـأن جـدي قـد فاتـه مـن التعليـم والاسـتمتاع بحياتـه مـا يدركـه غـيره مـن النـاس؛ ولـذا فهـو يقبـلُ بمسـاعدته طواعيـةً. كان أبي عـادة مـا يكـره المدخنـين، ولكـن حينـما كان جـدِّي يدخـن والنافـذة مُغلَّقـة أو يجلـس طـوال اليـوم ولا يفعـل أي شيء، كان يقـول إن للرجـل عـذره.

كان جـدي دائمًـا مـا يحـكي لي أشـياء طيبـة حـول أبي المُتـوفَّى، كان يخـبرني كـم كان يفتخـر بوسـامة صهـره في كل مـكان يصطحبـه فيـه، وأنـه كان عـذب الـكلام؛ مـمَّا جعلـه طيـب المعـشر، يدفـع الجالسـين عـلى مائـدة العشـاء للضحـك عـلى حكاياتـه. حـكى لي كـم كان طيِّبًـا، لا يسـهو مُطلَقًـا عـن يـوم ميـلاد جـدي أو أمـي، وأنـه كان يتذكرهـما بهديـة صغـيرة.

فقَـدَت أمـي زوجهـا الحنـون بعـد أربعـة أعـوام مـن زواجهـا، وعاشـت حتـى الآن مـع عجـوز عنيـد وطفلـة محترفـة في البـكاء. كنـت أقلِّـب طقـم أسـنان جـدي بـين يـدي وأنـا أقـول:

"هل تذكرين اليوم الذي زارني فيه جدي في شقتي بسيؤول؟".

"نعم".

"هل تعرفين ماذا قال لي يومها؟".

"ماذا قال؟".

"قـال لي بأننـي عظيمـة، وأننـي أعمـل مـا أحـب؛ لذلـك يعتـبرني عظيمـة. ويـا للغرابـة، فقـد حسـمتُ أمـري بشـأن صناعـة الأفـلام بعـد هـذا اليـوم مبـاشرة!".

"حسمتِ أمركِ؟".

"نعم، قرَّرتُ ترك هذه المهنة يا أمي".

لم تستفسر مني عن السبب. أخذنا نرتِّب متعلقات جدي دون تبادُل أي حديث بيننا. سألتني أمي ما إذا كنت سأكمل حياتي في سيؤول أم أنني سأنتقل للعيش في مسقط رأسي من جديد، أجبتها بأنني سواءً بقيت في سيؤول أو انتقلت لمسقط رأسي ففي كلتا الحالتين لن أعيش معها. أخبرتها أن تستقلَّ بحياتها وتعيش كما يحلو لها، وأن تستدعي حبيبها أو أحد أصدقائها للعيش معها لو ودَّت، دون الحاجة للقلق بشأن ضرورة الإنفاق على أحدٍ ما.

"أمي، أليس هذا ما أردتِ؟ كنت تتوقين للعيش بمفردك".

"... شكرًا لكِ".

ناولتني بعض النقود المغلَّفة في صفحة من الجريدة.

"هذا كل ميراث جدِّكِ".

"لماذا تناولينني إيَّاه؟".

"لا داعي لذلك، خُذيه فحسب. أوصاني جدك أن أسلِّمَكِ إيَّاه بشكل ضروري".

وضعت أمي النقود في حقيبتي ثم طلبت مني أن أضعها في حسابي الشخصي بالبنك في طريق عودتي. وبالرغم من أنها كانت تستطيع تحويل النقود مباشرة لحسابي، إلَّا أنها أرادت أن تُطلِعَني على العملات الورقية التي ادَّخرها جدي، كل على حِدَة، يبدو أنه ادَّخرها على مدار عدَّة سنوات، هذا ما اتضح من شكل الأوراق السُّفليَّة بشكل خاص.

وأثناء مغادرتي لمنزل أمي، وضعت يدي أتفقَّد صندوق البريد كعادة قديمة لديَّ، وحينها علق خطاب بإصبعي، كان خطابًا أصفر كُتب اسم المُرسل عليه باللغة اليابانية، بينما كُتِبَ محل المتلقِّي

باللغـة الإنجليزيـة، وفي محـل المتلقـي كُتِـبَ اسـم "مسـتر كيـم". وضعـت الخطـاب خلسـةً في حقيبتـي وفتحتـه في الحافلـة المسـافرة بـين المُحافظات. أحـرف شـيوكو الصغـيرة المدبّبـة قفـزت مـن ورقـة الخطـاب، لكنـي لم أفهم منهـا كلمـة. كان خطابًـا مُكوّنًـا مـن ورقـة واحـدة، وقـد كُتِـب بشـكل طـولي. أخـذت صـورة منـه وأرسـلته لأحـد كُتّـاب السـيناريو (سـألقّبه بــ "راء") ممّـن يجيـدون اليابانيـة بطلاقـة.

"هذا خطاب مُرسَل لجدي. أريد أن أعرف معناه".

أرسل "راء" رسالة قال فيها ما يلي:

عزيزي مستر كيم

زرت جـدّي بالأمـس في دار المسـنين، وقـد أزهـرت أشـجار المغانوليـا حتـى عنـد المنطقـة الغربيـة التـي تُظلّـل الـدار، واليـوم تلقيـت رسـالة مـن مريضـة كانـت قـد خضعـت لعمليـة جراحيـة في عنقهـا بسـبب آلامهـا المبرحـة، واليـوم فقـط اسـتطاعت أخـيراً أن تغـيّر ملابسـها بمفردهـا دون الحاجـة لمسـاعدة. قالـت لي اليـوم فتـاة تبلـغ السادسـة عـشرة تعـاني مـن مـرض القـرص التنكسـي بعـد انتهـاء جلسـة العـلاج الكهـربي: "لا بُـدّ أن العافيـة وعـدم الإحسـاس بـالألم لهـو شـعور رائـع". لم أقـترف أيّ ذنـب بحـق تلـك الفتـاة، ولكنـي شـعرت بالأسـف حيالهـا فاعتـذرت لهـا.

مسـتر كيـم، أخبرتنـي بـألّا أراسِـلَك مجـدّدًا، أليـس كذلـك؟ لأنه سـيكون مـن الأسـهل ألّا تنتظـر خطابـاتي. طالمـا فكـرت فيـما قـد أودّ أن أخـبرك بـه منـذ أن توقّفـتُ عـن مراسـلتك، وحينهـا شـعرت بالأسـف. كلـما ضحكـت، أو تحدثـت، أو عمِلـت أو تناولـت طعامًـا لذيـذًا، شـعرت بالأسـف. أشـكرك عـلى كل شيء. مـع تمنيـاتي لـك بـدوام الصحـة والعافيـة.

شيوكو

كتبت خطابًا مقتضَبًا لنفس العنوان المكتوب على الخطاب.

عزيزتي شيوكو

تُوفي جدي. كان ذلك في الخامس من إبريل، في حوالي الساعة السابعة مساءً. كان يصارع المرض على مدار العامين الماضيين، ولكن حالته ازدادت سوءًا خلال آخر شهرين. كنتِ آخرَ صديق يتواصل معه. كان جدي يحبك كثيراً، وتمنَّى لو زُرتِه ولو لمرة أخيرة. يبدو أنه قد صدَّق وعودك الفارغة بزيارتك لكوريا لرؤيته مرة أخرى. الخطابات اليدوية مثل هذا الخطاب أصبحت أمرًا مثيراً للضجر. إذا أردتِ التواصل معي بخصوص أي شأن فعليك التواصل عبر البريد الإلكتروني أو سكايب.

سو يو

تأكَّدتُ من كتابة عنوان بريدي الإلكتروني واسمي على تطبيق السكايب على ورقة، وأرسلت القصاصة عبر البريد السريع. وهناك في غرفتي بسيؤول، حيث لا يلتفت لي أحد، بكيتُ وحدي لمدة يومين. تذكَّرتُ كيف جلس جدي قبل عدة أشهر في ذلك الركن تحت شمَّاعات الملابس يدخِّن. أصبح الأمر جليًّا بمرور الوقت، أنني لن أتمكَّن من رؤيته من جديد. وكلَّما تجلَّت هذه الحقيقة أمامي غلبني شعور يخبرني بأن الأمر ليس حقيقيًّا.

أنا في الثلاثين من عمري، ومؤهلاتي الوظيفية تقتصر على شهادة تخرُّج من كلية الآداب، وفيلمين قصيرين من إخراجي. لم أجد صعوبة في اللغة الإنجليزية من حيث مهارات التَّحدُّث والكتابة، ولكني لم أملك شهادة أو وثيقة مُعدَّلات تُثبِت قدرتي اللغوية، ولا حتى أي خبرات في التدريب الداخلي. كنت أعرف أن التقديم لأي مكان يحتاج على الأقل لمعدلات مرتفعة في اللغة الإنجليزية؛ ولذلك فتحت كتاب

"التوفل" الذي كنت أستخدمه أثناء المرحلة الجامعية. بدأت أراجع القواعد وأحفظ مئات المفردات بشكل يومي؛ ومن ثَمَّ صفا ذهني، ووجدت أمر التركيز يزداد سهولة، تمامًا مثلما نمارس الحياكة؛ التركيز على الحفظ البسيط أبعد الأفكار غير المرغوب بها تدريجيًّا.

في السابق، حينما كنت أكتب السيناريو، كنت أضحك يومًا ثم أبكي في اليوم التالي. في الأيام التي كنت أُوفَّق فيها في كتابة سيناريو جيد كنت أشعر أنني سأستمرُّ على هذا المنوال، حتى أتخلَّى عن هذا التفكير بعدما يتملكني الخوف من الفشل في كتابة مثل تلك الموضوعات من جديد. كانوا يقولون إنه عليَّ الكتابة يوميًّا بشكل منتظم. كنت أكتب يوميًا لمدة لا تقل عن الخمس سنوات، ورغم ذلك لم تتحسن كتابتي، كأن عضلاتي قد أصابها الشلل من كثرة القلق، القلق من أن أختلق مشاهد بلا هدف، حتى ولو كتبت لبقية عمري.

لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى أكتشفت أنني لست مبدعة، ولست استباقيَّةً، وعلى العكس من ذلك، كنت أشعر براحة أكبر في التعلم عن ظهر قلب. ولربما شعرت براحة في نظام التعليم الذي لطالما كرهته. لم أنسَ أن أتفقد مواقع التوظيف بشكل يومي أثناء حفظي للمفردات الإنجليزية.

عندما أفتح عيني في الفجر فإن أول ما يطرأ في ذهني هو أن الناس ليسوا شيئًا وحتى الأرضية الصلبة التي وقفنا عليها، في نهاية الأمر لم تكن سوى ألواح مكسورة طافية فوق رداء متحرِّك، وبالرغم من أن قدميَّ كانتا واقفتين على تلك الأرض الهشَّة، ورغم أنه لم يكن بوسعي سوى ذلك القدر فقط، إلا أنني أوهمت نفسي أن بإمكاني التخطيط لمستقبلي.

تلقَّيتُ مكالمة من شيوكو في الساعة الواحدة فجرًا.

كنت قد غفوت فوق غطائي أثناء مذاكرتي للمفردات الإنجليزية. ظهر اسم المتصل "تيريسا" فنهضت من مكاني وأجبت الإتصال.

"مرحبًا؟".

سمعت على الجانب الآخر من المحادثة صوت الراديو، والمتصل ظلَّ صامتًا لفترة من الوقت.

"تكلمي يا شيوكو".

بدأت شيوكو تتحدث بصوت منخفض وبطيء.

"آسفة لوفاة مستر كيم".

كان صوتها مكتومًا كأنها تعاني من الزكام.

"آسفة أنني لم أستطع الوفاء بوعدي، لكني لم أستطع الذهاب".

"لماذا؟".

"لم يرغب مستر كيم أن أراه وهو مريض".

لم أفهم قصدها في بداية الأمر، لم أعتقد أن شيوكو كانت على علم بمرض جدي.

"كنتِ على عِلمٍ بمرضه؟".

"نعم، لم تعلمي بالأمر، أليس كذلك يا سو يو؟".

نعم، لم أكن على عِلمٍ بالأمر،الجميع كانوا يعرفون عداي. مَن هي لتعرف بأمر كهذا؟ شعرت بحنق يرتفع في حلقي.

"آسفة أنني أخفيت الأمر عنك، ولكن يبقى وفائي بوعدي لمستر كيم أولوية بالنسبة لي".

لم تترك لي مجالًا لأتحدث، وتابعت كلامها، قالت بأنها ستحضر لكوريا لرؤيتي مع جدي حتى لو كان الأمر متأخِّرًا، أخبرتها: "لا بأس"،

ولكنـي لـن أقـدر عـلى لقائهـا وأنـا عـلى تلـك الحالـة؛ الغـيرة مـن أنهـا قـد شـاركت سِرًّا مـع جـدي ولم يشـملني الأمـر، الاسـتياء منهـا بسـبب انقطاعها عـن الاتصـال بي كل تلـك الفـترة، النفـور منهـا بسـبب مـا صـدر منهـا أثنـاء زيـارتي لهـا في اليابـان، شـعوري الدفاعـي بسـبب عـدم اسـتقراري؛ كل هـذه المشـاعر تركّـزَت وتجمّـدَت لـبرودة صَلـدةٍ.

"لن ألقاك".

قالـت شـيوكو إن هـذه سـتكون زيارتهـا الأخـيرة لـو كان هـذا مـا أردته، قالـت لي إنهـا تحمـل هدية لي.

"الخطابـات التـي أرسـلها لي مسـتر كيـم تزيـد عـن مائـة خطـاب، وسـتعني لـك الكثـير ولعائلتـك، حتـى أكـثر منـي. أريـد أن أقابلـك بشـكل ضروري لأسـلِّمَكِ تلـك الخطابـات".

شعرت أن حلقي مختنق، فاكتفيت بإيماء رأسي.

قالـت شـيوكو بأنهـا سـتبيت في نُـزُلٍ بمنطقـة ميونـج دونـج. دعوتهـا لمقهـى قريـب مـن الحـيِّ الـذي أسـكن بـه. خرجـتُ لمـكان لقائنـا قبـل عشريـن دقيقـة مـن الموعـد، فوجدتهـا قـد سـبقتني وقـد جلسـت بانتظـاري، كانـت تشـبه تمامًـا صورتهـا عـلى الكتيـب الـذي أرسـلته سـابقًا؛ تركـت شـعرها طويـلًا وقـد صبغتـه باللـون الأصفـر، ولصقـت رموشًـا اصطناعيـة، ووضعـت الكثـير مـن مُسـاحيق التجميـل عـلى وجههـا. كانـت ترتـدي معطـف الخنـدق ذا اللـون الـكاكي وقـد صُنـع مـن قماشـة لامعـة عـلى حـذاء كلاسـيكي.

مشـاعري السـلبية تجاههـا منعتنـي حتـى مـن الابتسـام أدبًـا، تحيـة لهـا. تَوجَّـه كل تركيـزي تجـاه أظافرهـا البرّاقـة التـي طَلَتهـا باللـون الذهبـي اللامـع. قالـت شـيوكو إنهـا تناولـت معكرونـة كال-كوك-سـو الشـهيرة في ميونـج دونـج، ثـم توقَّفَـت عنـد محـل العنايـة بالأظافـر وحصلـت عـلى

جلسة تدليك. قالت بأن سيؤول مختلفة تمامًا عن قريتها بالمقاطعة ك.

"كلما فكَّرتُ في كوريا، تذكَّرتُ هدوء المقاطعة ك، ونساءها الأربعينيات اللاتي يركبن الدرجات الهوائية، والنباتات الطويلة التي تُطلُّ على جانبي النهر، وذبابات شهر مايو".

كنت أسمعها بالكاد، مددتُ يدي تجاهها، في إشارة لرغبتي في تسلُّم خطابات جدي. أخذت شيوكو بكفِّي في كفِّها، وغلَّفتها بكفِّها الأخرى. نظرت إليَّ وعلى وجهها استقرت ابتسامة لطيفة، وقالت إنها آسفة لخسارتي. ولِشَدّ ما أثار اندهاشي أنني شعرت بالمواساة من حركتها وتعبيرها.

تذكَّرتُ شعور الفوقية الذي بادرني تجاهها حينما زرتها في اليابان، حينما شعرت بكل شفقة بأن حياتي أفضل من حياتها، حينما ظننت أنها مثيرة للشفقة لبقائها في منزلها مع عدم قدرتها على مغادرته لأي مكان، عندما راودتني القشعريرة حين مالت عليَّ وتأبَّطَت ذراعي كشخص فقد عقله، وحينما رأيت جدَّها المريض وشعرت حينها بالراحة لأن جدي بخير.

لم أستطع أن أرى خيال شيوكو.

"إليك هذه". أخرَجَت شيوكو حقيبتَيْ تسوُّق بلاستكيتين. "هذه خطابات السيد كيم".

أخذتُ حقيبةً منهما واستخرجت خطابًا. كان الخطُّ مُريعًا. كُتب الخطاب بشكل رأسي، وقد كان مزيجًا من الكانجي والهيراجانا والكاتاكانا والأرقام. وفي جانب الخطاب كان هناك زوجان من عصفور الدُّوريِّ مبتسمان برأس مستدير ومنقار مدبَّب، وجناحين مفرودين كأنهما يتمدَّدان. بالرغم من أنها كانت مجرد رسمة غير مكتملة، إلَّا أنني أحسست بسعادة الطائرين.

كان هناك على الدوام، بجانب أريكة جدي، كومود، تليفون، ومفكِّرة وُضعت فوق طاولة القهوة. وكان يستخدم المفكرة لتدوين الملاحظات أثناء المكالمات الهاتفية، إلَّا أنها كانت أقربَ لدفتر رسومات. كان يقضي وقته وهو يرسم أشكالًا ووجوهًا وأشجارًا وحيوانات وأشكالًا غامضة، ثم يلقي بكل رسوماته في القمامة، بحجَّة تنظيف مكانه.

لاحَظَت شيوكو نظري المثبَّت على الطائرين فعلَّقَت قائلة:

"أراد مستر كيم أن يصبح رسَّامًا".

هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام.

"كان يريد أن يصبح رسَّامًا يجول في البلاد ويرسم. ولكن حين كان في العاشرة من عمره...".

"بدأ العمل في متجر عمِّه".

"هذا صحيح".

استخرَجتُ خطابًا آخر، كانت هناك رسمة لفيلين، الأم وصغيرها متعانقان من خرطومهما في مرح.

"كان متفهِّمًا لحالتي بشكل دقيق، كطبيب يعالج مرضاه، حتى دون الحاجة للقائهم".

"حقًّا؟".

ناولتُ شيوكو الخطاب الذي كنت أحمله. فترجمته لي بالإنجليزية سطرًا سطرًا.

"مشيت اليوم بجانب ضفة النهر ورأيت شابًّا نائمًا تحت الظل، على الأرجح كان في الثلاثين من عمره أو ما يقرب من ذلك، ترك ذقنه طويلًا بغير حلاقة لفترة طويلة، وقد كُسي بزغب متفرِّق، وكذلك

حـال باقـي وجهـه. توقَّفـت ثـم جلسـت بجانبـه القرفصـاء، وأخـذت أحملـق طويـلًا في وجهـه".

بإمـكاني أن أتخيَّـل جـدِّي وهـو يتمـشَّى عـلى ضفـة النهـر لتمضيـة الوقـت، وكأن المنظـر يـتراءى أمـام عينـيَّ فـأكاد ألمسـه، كان يحملـق في وجـوه النـاس في الشـارع أو في الحافـلات عـلى الـدوام، وكنـت أصـبُّ غضبـي عليـه ليتوقَّـف عـن تلـك العـادة.

اسـتخرجت شـيوكو مجموعـة أخـرى مـن الخطابـات مـن الحقيبـة الأخـرى وناولتنـي إيَّاهـا.

"هـذه مجموعـة الخطابـات التـي أرسـلها لي مسـتر كيـم أثنـاء فـترة صراعـه مـع المـرض".

اسـتخرجتُ خطابًـا وفتحتـه، وعـلى جانـب الخطـاب رُسـم كلـبٌ وقـد أخـرج لسـانه وهـو يَثِـبُ للأمـام، بينـما تطايـرَت أذنـاه الكبيرتـان في الهـواء. أمسـكت شـيوكو بالخطـاب وترجمتـه.

"أكلـتُ اليـوم عصيـدة مصنوعـة مـن الأخطبـوط. أحـب هـذه الأكلـة، ولكنهـا بَـدَت كالقـيء، وكانـت رائحتهـا بشـعة، بالـكاد أكلـت منهـا. قالـت لي ابنتـي: 'عليـك أن تـأكل يـا أبي لا محالـة'؛ كانـت كأم صارمـة. أكلـتُ مـن أجـل ابنتـي التـي كانـت تـصرخ في وجهـي وتسـألني إن كنـت أريـد أن أمـوت جوعًـا، أكلـت وأنـا أتقيَّـأ".

لماذا لم يخبرني جدي بأيٍّ من هذا الكلام؟

"ألم يكتب عنِّي من قبل؟".

قلَّبَت شيوكو قهوتها الأمريكانو المثلجة بماصَّتها وابتسمت.

"كان يتباهـى بأنـك نسـخة طبـق الأصـل منـه. أنـتِ لا تعلمـين كـم كان يتباهـى بـك، ذكـر لي ذلـك حينـما اسـتأنفنا المراسـلات مـن جديـد،

حتى إنه كتب لي عن زيارته لمهرجان الأفلام الذي عرض فيلمك الذي قُمتِ بإخراجه".

لم أتمكَّن من دعوته للمهرجان السينمائي، لم أعتقد أنه من الصواب دعوة رجل قارب على الثمانين لسيؤول وأن أُكلِّفه مشقَّة السفر فقط من أجل مشاهدة فيلمي، علاوة على ذلك أنني كنت قد وزَّعتُ بالفعل جميع التذاكر المجانية التي حصلت عليها للعاملين في مجال صناعة الأفلام من أجل الحصول على دعمهم لعملي. لم أسأله حتى لو كان بإمكانه الحضور للعرض الخاص بالفيلم. عرضت له الفيلم على شاشة حاسوبي فقط حينما ألحَّ عليَّ عدَّة مرَّات. كانت مدة الفيلم خمس عشرة دقيقة قصيرة عن فتاةٍ تخسر منزلها فتضطر للسكن في منزل مهجور تحت الإنشاء، قبل أن تتحوَّل إلى فأر. الفيلم تلقَّى نقدًا لاذعًا بالطبع. قالوا بأن الحدود بين الخير والشر كانت واضحة للغاية، والتشبيه كان قويًّا؛ ممَّا أفقد العمل الثِّقلَ الفني المطلوب. ولكن جدي لم ينقده بأي شكل من الأشكال، وبدلًا من ذلك أخذ يسألني فحسب. سألني من أين أتيت بتلك الفكرة، وهل سبق لي أن قابَلتُ مَن فقدوا منازلهم بالفعل، وهل من الممكن فعلًا أن يتحول أحدهم لفأر، كما سألني عن وجهة النظر التي قادت الكاميرا نحو الفتاة في الفيلم. أظن أنني كنت أبذل جهدي لأتحاشى مثل هذه الحوارات المؤرِّقة والمؤلمة.

كان جدي هو جمهوري الوحيد.

مضغت شيوكو ماصَّتها قبل أن تتحدث.

"هنالك ما لم يسبق لي أن أخبرته لمستر كيم".

"تعلمين أنني استأنفت مراسلاتي معه؟ كان هذا في اليوم الذي وافق مرور ستة أشهر على وفاة جدي. على الأغلب احتجت لستة

أشهر لاستجماع نفسي من جديد. أجاب مستر كيم مراسلاتي. أخبرني أنه لم يكن بخير، وأنه يرتاد المشفى لتلقّي العلاج. لم أتجرأ لأخبره بأمر وفاة جدي".

تذكّرتُ جدَّ شيوكو. جدها الذي ظل واقفًا في مكانه وهو يستمع لإهاناتها، واكتفى بالنظر للورود، بوجهه المحترق.

"لذا كذبت عليه فحسب. أخبرته أن حالته في تحسُّن، وأن الأطباء الذين أخبرونا أنه لا يوجد أمل في علاجه كانوا مخطئين، وهكذا".

جمعت شيوكو الرسائل المبعثرة على الطاولة وهي تتحدث."الأمر مضحك، أليس كذلك؟".

" فعلًا مضحك".

"سو يو".

"نعم".

"أصبحنا وحيدتين الآن".

هزّت كتفيها ورسمت ابتسامتها المهذبة على وجهها.

قضت شيوكو بعد هذا اللقاء يومين في غرفتي. شاهدنا معًا فيلمَيّ القصيرين، وقد بدَوَا لي ساذجَيْن حين أشاهدهما الآن. طلبت شيوكو طعامًا صينيًّا لتوفير وقت الطهي حتى يتسنّى لها ترجمة جميع خطابات جدِّي. قرأتهُم جميعًا بنبرة وسرعة ثابتتين، وكانت تبحث عن مرادفات إنجليزية أخرى حال استعصت عليها إحدى الكلمات. كما ذهبنا سويًّا لساونا قريبة من شقتي. وهناك رأيت وشم اليرقة ذات اللون الأخضر الفاتح بالقرب من حلمة صدرها البُنِّيَّة. أشارت شيوكو لليرقة وهي تضحك.

ارتدت شيوكو قبَّعَة جدي المفضَّلة من نوع الفيدورا، بينما ارتديتُ قبعته البيريت. وفي الخزانة الزجاجية التي حوت رفاته وُضعت صورة

عائلتنا التي التقطتها شيوكو، وصورة لجدي وهو جالس على مقعد بجانب ضفة النهر. ثبتت شيوكو نظرها عند كلتا الصورتين، ثم وضعت يدها على زجاج الخزانة ونادت.

"مستر كيم".

ضحكنا سويًا بشكل مفاجئ.

لم تمرَّ شيوكو بمنزل أمي، ولم تذهب قرب ضفة النهر ولا لمدرستي القديمة التي كانت قد أخبرتني برغبتها في زيارتها.

"سأذهب لاحقًا؛ وبهذا سيكون عندي سبب للمجيء مرة أخرى".

اصطحبت شيوكو لمطار كيم بوه. تعانَقنا للمرة الأولى عند طابق الرحلات المغادرة. كان عناقًا من النوع الذي يُبقي كل طرف ذراعه حول ظهر الآخر مع ترك مسافة بينك وبينه.

أذكر منظر شيوكو وهي تغادر صالة المغادرة، وجهها وهي تسلِّم بطاقة صعود الطائرة والباب الزجاجي يُفتح أمامها، حينها نظَرَت لي بنفس ابتسامتها المهذبة. قلبي، تجمّد تمامًا كيوم رأيت ابتسامتها في فترة الطفولة.

شين تشاو- شين تشاو[1]

عدنا إلى ألمانيا مرة أخرى في يناير من عام 1995. وقد سبق لنا أن عشنا في برلين بين عامَيْ 92 و93 قبل عودتنا لكوريا لمدة عام. وصلنا لمدينة صغيرة تدعى بلاوين، والتي كانت تابعة لألمانيا الشرقية حتى قبل خمس سنوات. مبانٍ مهجورة، وساحات مواقف سيارات خاوية، ورجال جالسون عند مواقف السيارات تفوح منهم رائحة الخمر... كان المنظر بعيدًا كل البُعد عن ألمانيا التي أعرفها.

في اليوم الذي دعانا فيه السيد هوو لمنزله على العشاء، قامت أمي بكَيِّ ملابسها، وارتدت فستانًا جميلًا لا ترتديه عادة، ووضعت بعض مساحيق التجميل المبهِجَة. صفَّفَت شعري على شكل ذيل حصان وضفَّرته على الطريقة الفرنسية، كما ألبستني الفستان الأسود الذي لا أرتديه سوى في حفلات الأعراس، كما ألبست أختي الصغيرة،

(1) تعني مرحبًا باللغة الفيتنامية.

ذات العامين، فستانًا جديدًا. لم أر أمي بمساحيق التجميل منذ زمن طويل، وكم كانت جميلة في عيني الطفولية حينها. تحقَّقَت أمي من هيئتها خلال زجاج المبنى عدة مرات، وكانت تلك المرة الأولى التي نتلقى فيها دعوة للعشاء في منزل أحدهم منذ وصلنا للمدينة قبل ثلاثة أشهر. أظن أن أمي كانت تشعر بشيء من التوتر المحمود.

"شين تشاوو". ألقت أمي التحية الڤيتنامية التي حفظتها حينما فتحت السيدة إنج وين الباب الأمامي، فكرَّرَتُ التحية من خلفها، "شين تشاوو"، فابتسمت السيدة إنج وين مُرحِّبةً بنا، كان ترحيبها بنا كمن التقى بصديق قديم لم يَلقَه منذ زمن. وفي المطبخ وقف السيد هوو. أُعجبت به من النظرة الأولى بسبب وجنتيه الورديَّتين ووجهه الطفولي المرِح. السيد هوو موظف زميل لوالدي في العمل، وقد قرَّر دعوة أسرتنا لمنزله حين علم بأنني سأصبح زميلةَ ابنه توي في المدرسة.

كان الطعام الذي أعدَّه السيد هوو بسيطًا ومريحًا. لا أعلم إن كان من الممكن وصف الطعام بكلمة مريح، لكنني لا أجد ما أصف به طعامه سوى هذه الكلمة. أعدَّ لنا مسلوقَ اللحم مع الطماطم المطهوَّ على حرارة منخفضة، مع الأرز المبَخَّر، والقريدس المشوي، والخضار المقلي، والزلابية الصينية اللذيذة المحمَّرة التي عصر عليها نصف ليمونة.

وبعد أن أنهينا وجبتنا بدأ الكبار في شرب الخمر، بينما تبعت توي ناحية المكتبة. "بدأت في جمع هذه المجموعة منذ أن كان عمري ست سنوات". اختار لي توي أحد كتب القصص المصوَّرة، وقد كانت جميعها تنتمي لسلسلة قصص "سنوبي".

قال توي: "هل تودِّين القراءة هناك؟"، مشيرًا إلى الأريكة المنخفضة. كانت الأريكة مصنوعة من الجلد السويدي الناعم المريح.

بـدأت أتحسّسـها بظهـر كفِّـي بينـما أقـرأ القصـة. كان سـنوبي، الكلـب بطـل القصـص المصـورة، جالسًـا فـوق سـطح منزلـه يهـشُّ وود سـتوك، صديقـة المفضَّـل، بعصـا خشـبية، ذكَّـرني حينهـا بتـوي، هكـذا كان تـوي في المدرسـة، كان اجتماعيًـا ومبتهجًـا عـلى الـدوام، وكان عـلى وئـام مـع جميـع الأطفـال؛ طويلهـم وقصيرهـم، كبيرهـم وصغيرهـم، النشـط منهـم والانطـوائي، بـدا بالفعـل محبوبًـا مـن الجميـع.

"تشـبهينه". أشـار تـوي لـوود سـتوكو وهـو يضحـك، ثـم أضـاف: "حينـما قابلتـك للمـرة الأولى شـعرت بأنـك وود سـتوك". هـل كان يقصـد أننـي أشـبهه لأننـي قصـيرة ودميمـة. أردت أن أسـأله إن كان هـذا قصـده، ولكننـي لم أسـتطع أن أغضـب مـن شـخص يضحـك بهـذه الـبراءة.

قال توي "رأيتك في الشتاء الماضي، في سوق السلع المستعملة".

"هل كنت تعلم حينها أنني تلك الفتاة؟".

"رأيتـك كذلـك في الجهـة المقابلـة مـن الحديقـة، هنـاك يقـع منزلـك أليـس كذلـك؟".

"فعلًا. وماذا في ذلك؟".

حوَّلـتُ نظـري مـرة أخـرى ناحيـة الكتـاب، شـعرت بالخجـل؛ إذ ربمـا قـد رآني وأنـا أسـترق النظـر إليـه مـن نافـذتي، وربمـا قـد علـم أيضًـا كـم كنـت مـسرورةً في داخـلي حـين علمـت أنـه في صفِّـي.

ذكريـاتي عـن ألمانيـا الآن ضبابيـة، كمشـهدٍ خـارج نافـذة قـد تجمَّعـت فوقهـا حبَّـات رذاذ المـاء. وبالرغـم مـن ذلـك، فحينـما أسـترجع ذكريـات زيـارة بيـت تـوي أسـترجع بالتفصيـل المشـاعر التـي غمرتنـي حينهـا. أتذكَّـر الترحـاب الحـار الـذي قابلنـا بـه أهـل تـوي، وسـعادة أمـي بضيافتهـم، والشـعور الدافـئ النابـع مـن القبـول غـير المـشروط، وتلـك المسـاحة التـي تشـاركتها العائلتـان أثنـاء تنـاول الطعـام سـويًا. لم أعلـم كيـف تسـنَّى لـكل

تلك القلوب أن تتآلف بلطف. أمَّا الآن، وقد أصبحت بالغةً أتواصل بالكاد مع الآخرين، أشعر بغرابة الأحداث التي عشتها وقتها.

عانت أمي بسبب جفاف الجو خلال صيفنا الأول في مدينة بلاوين. طبقة من القشرة البيضاء غطَّت ذراعيها وقدميها كجلد الثعبان، وكانت تشتكي من أنها تُضطرُّ للاستيقاظ من النوم عدَّة مرَّات أثناء الليل لحكِّ جِلدها.

"كنت كذلك أنا الأخرى حينما وصلنا ألمانيا أول مرة. صيف كوريا رطبٌ أيضًا، أليس كذلك؟ ولكن الجو هنا على النقيض تمامًا. مهما وضعت على جلدي فسيظل جافًّا".

أعطت السيدة إنج وين أمي المرطِّب الذي صنعته منزليًّا. قالت لها إن الحَكَّة ستقلُّ مع الاستخدام المستمر بعد الاستحمام، وبفضل ذلك المرطب تمكَّنَت أمي من قضاء ما تبقَّى من فصل الصيف براحة أكبر. كانت السيدة إنج وين تعلم ما يُقلقنا حتى دون أن نبوح به، وكانت تهبُّ لنجدتنا كلما احتجنا أن نتصل بالشَّبَّاك أو مالك العقار. والأكثر من ذلك أنها كانت أنيسَ أمي الوحيد الذي تُحدِّثه، وهي التي تقضي يومها بأكمله حبيسةَ البيت مع طفلتها ذات العامين. كانت تقول إن أمي تُذكِّرها بها حينما كانت تعتني بتوِّي بمفردها، وأنه حينما نكون منعزلين عن العالم الخارجي لفترة طويلة فإن الأمر يدفعنا للغرق في أفكارنا السوداوية، كما أخبرتها أن بإمكانها الاتصال بها كلما أرادت التحدث مع أحدٍ ما.

اجتمعت الأسرتان، أسرتي وأسرة توي، على العشاء أسبوعيًّا، مرَّة واحدة على الأقل. كنا نتناوب الزيارات المسائية، تارة في منزلنا وأخرى في منزلهم، ومع بداية فصل الصيف، حينما تطول فترة الضوء في النهار، كنا نقضي وقتًا أطول بداية من فترة ما بعد ظهيرة يوم السبت وحتى ساعات الفجر الأولى من يوم الأحد. كنَّا نبدأ بوجبة

العشاء، وبعدها يبدأ الكبار في لعبة الورق، بينما نلعب لعبة البازل، أو نقرأ كتب القصص المصوَّرة. لم أكن مُدرِكةً للأمر حينها، ولكني أعلم الآن أن دائرة الصداقة كانت منغلقة على الأسرتين فقط.

كان الكبار يتناوبون أدوار الغناء فيما بينهم في الأيام التي كانوا يحتسون فيها الخمر، وكانت أمي تغني الأغاني الكورية، بينما غنَّى أبَوَا توي الأغاني الفيتنامية. لا زلت أذكر منظر البالغين وهم ينفجرون في الضحك كلما حاوَلَت أمي تقليد الزوجين ومجاراتهما في غناء أغنية لا تفهم أيًّا من كلماتها على الإطلاق.

"لا يمكنني التفاهم مع أبيكِ مطلقًا" كانت أمي تخبرني بذلك على الدوام. كانا يُهمِّشان بعضهما البعض وكأن الآخر غير مرئي. حتى في وقت تناولنا للوجبات، أو حينما نشاهد التلفاز أو نذهب في نزهة بالسيارة. على الأغلب أنهما لم يفهما مطلقًا كم كان الأمر جارحًا لي كطفلة.

تخصَّص كلاهما في اللغة الألمانية، التقيا في الجامعة وتواعَدَا لعدة سنوات. لم أفهم حينها كيف لاثنين يتجاهلان بعضهما البعض بشكل تنافسي وقد كانا يومًا ما يحبَّان بعضهما البعض لدرجة الجنون. كنت أدعو كل ليلة بأن يأتي اليوم الذي يتحدثان فيه مع بعضهما البعض وجهًا لوجه، وأن يبدآ حديثًا عاديًّا، دون أن يحمل أحدهما ضغينة تجاه الآخر، وألَّا ينفصلا.

كان ذلك ضمن الأسباب التي جعلتني أحبُّ العشاء في منزل توي. حينما كنَّا في منزلهم، كان أمي وأبي أحيانًا ما تلتقي أعينهما ويتبادلان الضحكات، أو يشاركان الحاضرين بقصص عن الآخر بشكل طبيعي. أذكر أنني سبق لي أن رأيت أبي يربِّت على كتف أمي قبل أن يخرج للتدخين في الشرفة. لا زِلت أذكر نظرة أمي المتسامحة التي رمقتها لأبي وهو يتحدث في مرحٍ من أثر الخمر. كان أمرًا لا يمكنني تخيُّل

حدوثـه حينـما كانـت أسرتنـا بمفردهـا. منظـر أمـي الضاحكـة شيء لم أره قبـل ذلـك ولا حتـى بعـده.

كنـتِ بارعـة الجـمال، حينـما أخبر أمـي بذلـك كانـت تقـول لي إنهـا لا تذكـر تلـك الفـترة، ثـم تشـكرني عـلى مجاملتـي.

ومـع انتصـاف أشـهر الصيـف، وحتـى بعـد العـاشرة مسـاءً، كان الأفـق لا يـزال مضيئًـا ببعـضٍ مـمًا تبقًـى مـن ضـوء النهـار، فبـدا المنظـر كأننـا لا نـزال في الفـترة الأولى مـن الغسـق. كنـت أحـب متابعـة الضوء وهـو يختفي تدريجيًـا فتتبعـه زُرقـة الليـل لتغـشى الأفـق. حـين تهـبُّ نسـمات الليـل مـن نافـذة غرفـة المعيشـة، وتتعـالى أصـوات البالغـين وضحكاتهـم الوافـدة مـن المطبـخ، وحـين كنـت أراقـب تـوي، الـذي أدرك تلـك السـاعة، فغلبـه النعـاس ونـام وهـو فاتـح فمـه، ثـم أجـد مصابيـح الإنـارة في الشـارع تُضـاء واحـدة تلـو الأخـرى تزامُنًـا مـع انقشـاع اللـون الأزرق مـن الأفـق، كنـت أشـعر حينهـا أنـه ربمـا يـأتي عـليَّ اليـوم الـذي أشـتاق فيـه لتلـك الأوقـات.

كنـت كثـيرًا مـا أذهـب مـع تـوي لـشراء أغـراض المنـزل مـن الحليـب أو الخبـز. وفي طريقنـا للتبضُّـع كان تـوي يركـض بعيـدًا عنِّـي حتـى يختفـي عـن نظـري ثـم يعـود إليَّ مـن جديـد. في بدايـة الأمـر أردت أن أهـمَّ لألحق بـه، ولكـن حينـما علمـت بأنـه يعـود تجاهـي مـن جديـد حافظـت عـلى نفـس سرعتـي في المـشي. كنـت أضحـك حينـما أرى وجهـه وهـو يجـري نحـوي بعـد أن غـاب عـن نظـري قليـلًا. وحـين تتلاقـى أعيننـا كان يلقـي برأسـه للـوراء خلـف كتفيـه ويركـض بطريقـة هزليـة.

أمـا في طريـق عودتنـا للمنـزل فـكان كلٌّ منَّـا يسـير عـلى الجانـب المقابـل مـن الطريـق. كنـا نخـشى مـن أن نصـير مـادة للتلامـز بـين أقراننـا في المدرسـة لـو أن أحـدًا منهـم رآنـا نسـير جنبًا إلى جنـب في الطرقـات. "وود سـتوك" كان هـذا هـو اللقـب الـذي ينادينـي بـه تـوي دومًـا حينـما نكـون بمفردنـا. وكلـما مـرَّ الوقـت كانـت سـعادتي تزيـد مـن هـذا اللقـب. وبمـا

أنني كنت أُغيِّر محلّ دراستي بشكل متكرِّر؛ فلم أجد مَن يكترث بإطلاق اسمٍ مُزعِج على طفل سيمرُّ،على أي حال، مرورَ الكرام.

ثم إذا دخلنا الشارع الذي يسكن فيه تَوي عدنا للسير جنبًا إلى جنب. وحينها كنت أشم نفحة من رائحة عَرَقه، في بعض الأحيان كانت رائحته مثل قرص معدني احترق تحت أشعة الشمس، وأحيانًا أخرى كانت رائحته مثل البصل. لم نكن نتحدث كثيرًا، لكن المشي معه كان مريحًا.

لم يكن تَوي غريبًا ولا صعب المِراس كبقية أقرانه في نفس المرحلة العمرية. كان يحكي عن يومه الدراسي بشكل تفصيلي مع السيدة إنج وين، وكان يغني دون الاكتراث للآخرين، وفي أحيان أخرى كان يقدم فصلًا مسرحيًّا مُرتَجَلًا ويُمتِع الحاضرين. كنت أتحدث معه كأنني أتحدث مع أخي الأصغر، حتى إنني قد أبوح له بما يجول بقلبي دون أن ألقي للأمر بالًا. والسبب أنني كنت أفعل ذلك ظنًّا مني أن عقله الطفولي لن يعي شيئًا مهما قلت. ومن جهة أخرى لم يبدُ مهتمًّا بما أبوح به له. حقًّا هل هذا ما حدث؟ إجاباته غير المكترثة تلك هوَّنت الكثير من الحنق العاطفي الذي كنت مشحونة به.

"أمي وأبي يبغضان بعضهما البعض أكثر من أي شيء". ذات يوم، قلت له ذلك الكلام وضحكت في غير مبالاة. حينها توقَّف عن المشي ونظر لي مذهولًا. بدا لو كان غاضبًا. لم أكن أعلم ما عليَّ أن أقوله أمام رِدَّة فعله غير المتوقَّعة تلك.

"ما الذي يُضحِكك وأنت تقولين أمرًا كهذا؟" قال لي تَوي هذا الكلام ثم سبقني في المشي. توقَّعتُ أن يعود مرة أخرى حيث أقف، كعادته دومًا، لكنه لم يفعل. وقفت مشدوهة قليلًا فحسب، إلا أنني لم أفكر في الأمر بعمق. ولكن عند بلوغي للمرحلة الثانوية، وحينما

مـررت بملعـب المدرسـة بعـد انتهـاء مذاكـرتي الليليـة، تذكَّـرتُ وجهـه الطفـولي وهـو يسـألني"ما الـذي يضحـكك وأنـت تقولـين أمـرًا كهـذا؟".

لم أكـن أعلـم أي شيء عـن تـوي، ولم أبـدأ في تذكُّـره بشـكل مختلـف إلا بعـد مـرور مرحلـة الطفولـة.

قالـت السـيدة إنـج ويـن وهـي تضحـك: "حينـما أتيـت لألمانيـا للمـرة الأولى، كان الجـوُّ بـاردًا للغايـة. كنـت أرتعـد مـن الـبرودة مهـما ارتديـت مـن طبقـات الملابـس، ولا زلـتُ حتـى الآن. تـوي لا يعـاني مـن مشـكلتي لأنـه وُلِـد هنـا، ولكـن، ويـا للغرابـة، فـلا زلـتُ غـيرَ قـادرة عـلى التأقلـم عـلى الشـتاء هنـا! لـن تتخيـلي مـدى اندهـاشي حينـما رأيـت الثلـج للمـرة الأولى. كان بديعًـا لدرجـة أننـي كنـت أعـاني مـن الـبرودة وأنـا ألعـب في الجليـد حتـى تجمَّـدَت يـداي".

كانـت أمـي تنظـر خلسـةً لوجـه السـيدة إنـج ويـن المبتسـم وهـي تتحـدث. أذكـر وجـه أمـي المرتبـك لأنهـا لم تشـارك السـيدة إنـج ويـن الضحـكَ حينـما كان عليهـا ذلـك. كانـت السـيدة إنـج ويـن كلَّـما تحدَّثَـت عـن مواقـف معاناتهـا السـابقة تبالـغ في الضحـك، وفي كل مـرة كانـت أمـي تبـذل مجهـودًا لمجاراتهـا في الضحـك.

كانـت السـيدة إنـج ويـن تخـبر أمـي أنهـا (وتقصـد أمـي) ذات قلـب كبـير، وأنهـا تمتـاز بالتعاطـف الجَـمِّ تجـاه النـاس. وأضافـت أن العـالم في أشـد الحاجـة للمزيـد مـن أمثالهـا مـن ذوي الشـخصيات الرقيقـة، وقالـت إنهـا شـخص يـألم لمـن لا يعـرف كيـف يتألَّـم.

كانـت السـيدة إنـج ويـن تمطـر أمـي بكلـمات المديـح كلـما تواجَـدَت معهـا. كانـت تقـول لهـا إن ابتسـامتها جميلـة، وأن الغرفـة تـزداد إشراقًـا حـين تشـاركها الضحـك، وأن جبهتهـا مسـتديرة وجميلـة، وأنهـا تمـشي الهوينـا في رقَّـةٍ بالغـة، وأنهـا أنيقـة، وأن أسـنانها الأماميـة جميلـة، وأن صوتهـا مريـح للاسـتماع... كانـت السـيدة إنـج ويـن لا تـتردَّد أبـدًا في ذِكـر

ذلك الكلام أمام أمي، وفي كل مرة كان وجه أمي يحمرُّ خجلًا. حينما كنت أسمع مديح السيدة إنج وين لأمي كنت أرى صفاتها الجميلة بعينيَّ، وأشعر بعدها بالفخر كونها أمي. كانت أمي والسيدة إنج وين تتبادلان الزيارات بشكل شبه يومي. وكانت أمي تعطي السيدة إنج وين رقائق طحالب البحر المملَّحة، التي تحبها السيدة إنج وين، التي أحضرتها معها من كوريا بعد أن تُحمِّصها، وفي المقابل كانت السيدة إنج وين تعدُّ طبق عصيدة الأرز الحلو لأمي، التي تحب الأكلات الحلوة.

كنت أزور منزل توي كل يوم تقريبًا خلال فصل الشتاء الثاني لنا في بلاوين. كان منزلنا باردًا بسبب مدفأتنا التي كانت معطَّلةً على الدوام، إلا أن منزل توي كان دافئًا، بحيث أشعر بجسدي يذوب دفئًا فيسري فيه شعور لطيف، كنت أشعر بالراحة في وجودي مع أسرة توي أكثر من منزلنا.

السيدة إنج وين كانت تسأل عن الكثير من الأشياء التي تخصُّني. كأن تسألني كيف كانت مدرستي، وما إذا كنت راضية عن حياتي في برلين، وهل سبق لي الذهاب إلى البحر، وما لون البحر في كوريا، وأكلاتي المفضلة من بين الأطباق الألمانية. كانت أسئلتها تختلف تمامًا عمَّا يسأله غيرها من البالغين، الذين كانوا يسألونني مثلًا إن كنت مجتهدة في دراستي، ولماذا أنا قصيرة بهذا الشكل، وماذا سأفعل حينما أكبر. كنت سعيدة بتلقي مثل هذا الاهتمام الصادق؛ فأخذت أحكي عن نفسي بلا توقُّفٍ حتى احمرَّت وجنتاي.

"هلَّا كتبت لي اسمك بالرموز الصينية؟" سألتني السيدة إنج وين. كتبت اسمي فابتسمت السيدة. "كنت متأكدة. تحمل كلانا نفس لقب العائلة".

كُتِبَت وون 阮 (والتي تعني اسم بلدة)، وقرأتها إنج وين وقالت إن اسم العائلة "هوو" 胡 الخاص بزوجها يعني وحدة قياس. بينما كان رمز اسم توي翠 ويعني"أخضر يانع". " تشبهين كثيرًا صديقتي من الطفولة. كان رمز عائلتها إنج وين أيضًا. سكنت صديقتي في نفس قريتي". بدا عليها الحزن رغم ابتسامها. كانت حين تحكي عن أكثر الأشياء التي تحبها ترسم تلك الملامح على وجهها. حتى وهي تنظر لأختي دو يون الصغيرة البالغة من العمر ثلاث سنوات. وكلما مرَّ الوقت شعرت بالألم بسبب تلك الملامح؛ لأنني شعرت أن سعادتها كانت على اتصال وثيق بحزنها.

وفي يوم ما طلبتُ منها أن أرى صورتها في مرحلة الطفولة، ولكنها أرخت رأسها وقالت: "فقدتها جميعًا. ليته بقي معي ولو صورة واحدة". سألتها عن السبب، ولكن كل ما فعلته كان أن مسحت على رأسي. "لم أفقد الصور فحسب" قالت لي هذا الكلام بصوت منخفض للغاية. لم أفهم معنى كلامها على وجه التحديد، ولكن رعشة قلبها وهي تقول هذا الكلام انتقلت لي أنا الأخرى فتوجَّستُ خيفة.

كان المكتب هو المكان الوحيد في بيت توي الذي لم يكن مسموحًا لنا بالدخول إليه. لم يحذِّرني أحد من الاقتراب من المكان؛ لذا لم أفكر يومًا في الدخول؛ لأن الباب كان مُغلَقًا على الدوام بطبيعة الحال.

وفي يومٍ ما، كان باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيه، فشعرت بشيء يجذبني للداخل. وهناك رأيت مذبحًا صغيرًا بجانب الباب مباشرة. كان المذبح مُقامًا على خزانة خشبية، وقد بُني على شكل منزل بعمد متَّصِلة من الأرضية وحتى سقفه، وبداخله خمس إطارات بصور ومبخرة مُلِئت بالرمل والرماد. في كل إطار كانت هناك صورة بالأبيض والأسود لشخص ما، وفي المبخرة كان هناك عدد من أعواد البخور القرمزية المحترقة وقد احترق بعضها للمنتصف، وأخرى اشتعلت

حتى آخرها، وبجانب المبخرة كانت هناك أعواد بخور ملفوفة في ورقة بيضاء وبجانبها علبة كبريت صغيرة. سبق لي أن رأيت البخور من قبل، ولكن كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أعوادًا مشتعلة أمام صور للموتى. انتابني الخوف من التحديق مباشرة في الصور، فاستدرت وخرجت على الفور.

بدا الأشخاص الخمسة الذين رأيتهم في الصور كعائلة واحدة. لو كنت أذكر بشكل صحيح فقد رأيت رجلًا عجوزًا وفتاة في مثل عمري وطفل في عمر أختي ديه يون. ورغم أنني رأيت تلك الصور بنظرة خاطفة، إلا أن تلك الوجوه لاحقتني وقد تشبَّثَت بظهري.

أردت أن أعرف مَن هم، ولماذا وُضعت صورهم في ذلك المذبح في بيت توي. شعرت بالفضول؛ فلماذا لم يخبرني أيٌّ من توي ولا السيدة إنج وين بأمر المذبح، ولكن خوف غامض منعني من إخبار أي شخص بما شاهدت.

سمعت توي يقول أمرًا مفاجئًا حينما كنا ندرس الحرب العالمية الثانية في المدرسة. كان ذلك في بداية الفصل الدراسي بالخريف.

"لحسن الحظ أنه لم تندلع حرب بعد الحرب العالمية الثانية فتخلِّف وراءها ذلك العدد الرهيب من القتلى". رفع توي ذراعه وقاطع المعلِّم. "هذا غير صحيح" كانت تلك كلمات توي الأولى.

"غير صحيح؟".

"قُتل العديد من الأشخاص أثناء الحرب في ڤيتنام؛ جدي وجدتي وأخت أمي وأخت أبي، وأعمامي، الجميع. دخل الجنود وقتلوهم جميعا. حتى جميع الأطفال. قتلوا القرية بأكملها. سمعت أمي تتحدث عن الأمر" كان ذلك كلام توي.

"كلامك صحيح يا توي. أغلبكم لم يسمع بموضوع حرب ڤيتنام. توي، هل تودُّ إخبارنا بالمزيد؟" كان المعلم يشعر بالرضا حيال تعبير توي عن وجهة نظره، ولكن يبدو أن توي قد قال ما قاله كردِّ فِعلٍ غريزي. علمتُ ذلك لأن وجهه كان أحمر كمن أوشك على البكاء. همَّ ليتكلم، ولكنه صمت وأرخى رأسه.

"توي، احكِ لنا أكثر. علينا أن نعرف نحن كذلك". حرّك توي رأسه بالنفي. كل ما يتعلق بتلك الحادثة بدا ظالمًا بالنسبة لي، على الرغم من أنني لم أكن مستوعبةً السبب وراء ذلك الشعور في ذلك الوقت، حينها رفعت إنجا، رائدة الصف، ذراعها.

"ڤيتنام هي البلد الوحيد التي غلبت الولايات المتحدة في الحرب. مات ستون ألفًا من الجنود الأمريكيين، وعلى الجانب الآخر مات مليونا شخص من الشعب الڤيتنامي من المدنيين. شاهدت الأمر على شاشة التلفاز. القوات الأمريكية ألقت القنابل من الطائرات والمواد الكيميائية التي قضت على الأشجار". علت ابتسامة فخر على وجه رائدة الصف. رأيت وجه توي وأذنيه الصغيرتين اللتين بدأتا في الاحمرار.

أثنى المعلم على دقّة كلام الرائدة، وبدأ يشرح لنا سبب دخول الولايات المتحدة حرب ڤيتنام وأحداث الحرب، وقال إن الحكومة الأمريكية قد أخطأت في المشاركة في تلك الحرب لأنها لم تَجنِ منها أي شيء. ولكن هذا لم يكن ما أراد توي قوله، وشَرْحُ الأمر على ذلك النحو كان مؤلمًا بالنسبة له. أذكر أنني أردت قول ذلك، ولكنني، ولسبب ما، أبقيت فمي مغلقًا. كان توي موجودًا في غرفة الصف بلا أدنى شك، ولكن وفي هذه اللحظة بالذات، شعرت وكأنما يتم التعامل معه وكأنه غير موجود. تابعته من الخلف وقد انحنى بظهره في مقعده. لا علم

لي كيف يشعر توي الآن، هذا ما فكَّرتُ فيه حينها، حتى إنني شعرت بالحنق تجاه الأطفال الألمان بالصف.

وفي ذلك اليوم اجتمعنا في منزل توي لتناول العشاء الذي أعدَّه السيد هوو المكوَّن من المعكرونة والزلابية الصينية. ولا أذكر على وجه التحديد كيف تحوَّلت دفَّة الحوار لذلك الاتجاه.

كنت في العاشرة من عمري، ولم أكن جميلةً، ولم أتميَّز حتى في أي شيء. ومنذ أن وُلِدَت أختي الصغرى، وأنا في الحادية عشرة من عمري، وكان يُطلب مني على الدوام أن أكفَّ عن التصرفات الطفولية حينما أقوم بأي أمر مهما كان. ومثل كثير من الأطفال الذين لا حضور لهم، كنت متعطِّشةً لنيل تقدير البالغين.

لذا، وحين تحوَّلت دفَّة الحوار للحديث عن الاحتلال الياباني؛ قفز قلبي بداخلي إثر ما كان يقوله البالغون. وظننت أنني أخيرًا سأحظى بفرصة ذهبية للتعليق على الحوار ولو بكلمة. وحين نتحدث عن تاريخ كوريا فأنا أعلم به من أهل توي، وإذا حدَّثتهم عن معلوماتي فأهلي بلا شك سيفخرون بي.

"لم يسبق لكوريا أن غزت أي دولة مُطلَقًا" قلت هذا الكلام، ثم نظرتُ لأمي وأبي ليؤكِّدا على كلامي. لم يحوِّل أبي نظره تجاهي وكأنه لم يسمع شيئًا، بينما نظرت لي أمي نظرة تعني أن أصمت. غيَّر السيد هوو موضوع الحوار قائلًا: "أتمنى ألا تكون المعركونة مالِحةً للغاية". شعرت بالاستياء حينما تجاهل الجميع كلامي، فأردفت قائلة: "هذا حقيقي، لم نُسبِّب الأذى لأحد قطُّ". أردت أن أعطيهم انطباعًا جيِّدًا عن كوريا، وأنها دولة مُسالمة، كما أردت المشاركة في موضوعات البالغين وحواراتهم وأن أسمع تقديرهم. نظرتُ بأمل في وجه أبي الذي كان جالسًا في مواجهتي.

"لا تتدخلي في الحوار حينما يتحدث البالغون. أبْقِي فمَكِ مغلقًا لو لم تعرفي ما تتحدَّثين عنه!" صرخ أبي في وجهي بالكورية. توقَّف الجميع عن حمل عِصِيِّ الطعام، ثم حوَّلوا نظرهم تجاهي. شعرت بالحرج والظلم الشديدين من توبيخ أبي لي بهذه الطريقة أمام أسرة توي، وبدأت أحس بطنين في أذني واغرورَقَت عيناي بالدموع، وقد أخذ وجهي يتوهَّج بالحرارة. استجمعت ما تبقَّى لي من قوة وقلت بالألمانية: "هذا ما تعلَّمته في كوريا. لم نؤذِ أحدًا قط، وكنَّا دومًا الطرف الذي يقع عليه الاعتداء. هذا ما قاله معلِّمي...".

قال توي: "قالت أمي إن الجنود الكوريين هم مَن قتلوهم". كان صوته منخفضًا، ولكن كلماته كانت كفيلة بأن تُحيل جوَّ المائدة لصمت مُطبِق. "الجنود الكوريون قتلوا جميع أفراد عائلة أمي؛ جدَّتي، حتى خالتي الرضيعة، قتلوهم جميعًا بدم بارد. تقول أمي إن قريتها بها شاهِدٌ حجريٌّ[1] يوثِّق جريمتهم". كانت نبرة كلام توي كمن يستهجن ما قُلتُ، ولكنني لم أفهم كلمة ممَّا قال.

"توي. لا تتحدث دون تفكير" قالت السيدة إنج وين هذا الكلام، ثم نظرت لي قائلةً: "لا تُلقِي لهذا الأمر بالًا. لا دخل لك به مطلقًا". كلام السيدة إنج وين كان تأكيدًا على أن ما ذكره توي حقيقة. "صدِّقيني، لا دخل لكِ بالأمر مطلقًا". عيناها قَلِقَتان؛ إذ ربما يتسبَّب ذلك الكلام في جرح قلب طفلة صغيرة، لا يمكنني نسيان ذلك الوجه

---

(1) شاهِدٌ حجريٌّ يقع بمقاطعة كوانج آي بفيتنام، حيث وقعت مذبحة على أيدي القوات الكورية راح ضحيتها ما يقرب من 430 مدنيًا من أهالي القرية، بينهم نساء وأطفال وشيوخ. وكُتب على الشاهد الحجري ما يلي: "سوف تتذكَّرون ذلك الإثم، الذي بلغ عنان السماء، لعشرة آلاف جيل. قُتل في المذبحة 430 شخصًا، بينهم 268 امرأة، و109 أشخاص تتراوح أعمارهم بين 50 و80 عامًا، و82 طفلًا، و7 نساء حوامل، وأُحرق اثنان وهما على قيد الحياة، وقطعوا رأس رجل، وشقُّوا بطن آخر، واغتصبوا سيدتين. أبادوا العائلتين ولم يُبقوا منهم أحدًا". (المترجم)

مطلقًـا. إن كنـت قـد جُرِحـتُ حينهـا فسـيكون السـبب هـو شـعوري بالذنـب الـذي أحسسـته تجـاه السـيدة إنـج ويـن. همسـت السـيدة إنـج ويـن قائلـة: "أمـر قـد وقـع قبـل ولادتـك".

قالـت أمـي: "لم أكـن أعلـم بالأمـر حقًّـا". وأضافـت: "لم أكـن أعلـم شـيئًا عـن الأمـر الـذي مـرَرتِ بـه سـيدة إنـج ويـن، وبالرغـم مـن ذلـك أريـد أن أقـدِّم اعتـذاري. أنـا آسـفة". انحنـت أمـي أمـام السـيد هـوو وزوجتـه السـيدة إنـج ويـن.

"شـاهدت الأمـر كلـه بـأم عينـيَّ، كنـت في عُمـر تـوي" قـال السـيد هوو ذلـك الـكلام وعينـاه حمـراوان مسـتعدَّتان للبـكاء، وقـد بـذل مجهـودًا ليبتسـم. "لكـن شـكرًا لـكِ عـلى مـا قُلـتِ" قـال السـيد هـوو جملتـه ثـم توقَّـف بعدهـا وضحـك بقـوة. همسـت السـيدة إنـج ويـن لزوجهـا بالڤيتناميـة. لم أفهـم كلمـة مـمَّا قالـت، ولكنـه كان كلام تعزيـة لـه بـلا شـك، والسـبب في اعتقـادي هـذا أن وقـع كلامهـا بـدا مطمئـنًا لقلبـي هـو الآخـر.

تابـع أبي شرب الجعـة كأنـه لم يسـمع الحـوار الـذي دار بـين أمـي والسـيد هـوو.

قالت أمي لأبي بالكورية: "علِّق على الأمر ولو بكلمة".

"مـاذا عسـاي أقـول؟ هـل تطلبـين منـي أن أعـترف بأننـا أخطأنـا؟ لمـاذا أقحمـتِ نفسـك في الأمـر واعتـذرتِ؟ مَـن أنـتِ لتتصـدَّري الأمـر؟" ردَّ أبي عـلى أمـي برشـقاته الكلاميـة.

"هكـذا حالـك دومًـا. لا تطيـق الاعتـذار حتـى لـو كلَّفـكَ الأمـر حياتـك، فلـن تعتـذر حينهـا حتـى. هـل تجـد الأمـر صعبًـا لهـذه الدرجـة. لـو كنـت مـكان السـيدة إنـج ويـن لمـا اسـتقبلت أسرتنـا مـن الأسـاس".

أسند أبي ذراعه فوق السُّترة المعلقة على كرسي مائدة الطعام، ثم قال: "شكرًا لكم على العشاء". تردَّد أبي برهة، ثم قال: "توفي أخي الأكبر هو الآخر في تلك الحرب. كان حينها في العشرين من عمره. وكان من الجنود المرتزقة". كان أبي ينظر للأرض بينما يتحدث، كأنما قصد تجنُّبَ التقاء عينيه مع الجالسين.

قالت السيدة إنج وين: "لقد قتلوا الرُّضَّع والعجائز".

"الوضع كان صعبًا لدرجة تجعلك غير قادرة على التفريق بين الفيت كونج[1] والمدنيين".

أكمل أبي حديثه وهو مُصِرٌّ على ألَّا تلتقي عيناه مع السيدة إنج وين.

"وهل عساهم يخطئون النظر في رضيع لم يكمل أسبوعه الأول ويحسبونه من عناصر الفيت كونج؟ وهل أخطؤوا التقدير في عجائز لا يستطيعون الحركة وحسبوهم ضمن عناصر الفيت كونج؟".

"كانت حربًا".

قالت السيدة إنج وين: "حرب؟ لم تكن سوى مذبحة مُقزِّزة". كانت نبرتها تقريريَّةً، وقد خَلَت من أي مشاعر.

"وماذا تتوقَّعين مني أن أقول؟ أنا فقدتُ أخي أيضًا. أليس الأمر منتهيًا؟ هل تظنين أن الأمر يستحق أن نتأسَّف بسببه بل ونطلب الصفح أيضًا؟".

قالت أمي: "هل أنت في وعيكَ؟".

نهضت السيدة إنج وين وتحرَّكَت ببطء تجاه غرفة المكتب، ثم أغلقت باب الغرفة بحذر. شعرتُ بالخوف، ولكني لم أجرؤ على الدخول خلفها. حملت أمي أختي الصغيرة ونهضت من مكانها. "أنا

(1) الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام.

آسفة للغاية". انحنت أمي أمام السيد هوو. "توي، أنا آسفة" قالت أمي كلماتها تلك ثم خرَجَت. حملتُ حقيبة الحفاضات والسُّترة وخرجت خلفها.

"لم تكن سوى مذبحة مُقزِّزة". كان وجه السيدة أنج وين الذي خلا من الابتسامة وهي تقول جملتها تلك طافيًا فوق وجهي وأنا مستلقية أحاول النوم. كانت في مكان آخر غير الذي كنَّا فيه حين قالت ذلك الكلام، تائهة في مكان وزمان آخرين لا يسعني تخيُّلهما مهما حاولت. لم يكن كلامها بدافع رغبة منها في إقناع أبي، ولم يكن بغرض الدفاع عن نفسها كذلك. ولم يكن كلامها موجَّهًا لأبي في الوقت ذاته، كان الأمر عبارة عن ابتسامة مريرة تفتعلها أمام نفسها بعد مرور كل تلك السنوات منذ حدوث ذلك الأمر. حتى إن موقف أبي لم يُشعِرها بالإحباط. في تلك الليلة، وقف شعورها القائل: "على أي حال أنتم لن تستطيعوا تفهُّم موقفي" ليفرِّق بين علاقتنا. كان اختيارًا تقليديًّا من قِبَل البالغين الذين لم يرغبوا في كُره بعضهم البعض أو التمادي أكثر في جرح بعضهم البعض.

بذلت أمي قصارى جهدها حتى نُصلح علاقتنا بأسرة توي. وحتى بالنسبة لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها، مثلي، كان حدسي يخبرني أن الأمور لن تعود كسابق عهدها، لكن أمي ظنَّت عكس ذلك. كانت تتردَّد على السيدة إنج وين وتصحبني أنا وأختي الصغيرة معها. وعلى السطح، لم يكن هناك أي تغيير. كانت السيدة إنج وين تُحضر الشاي مع الوجبات الخفيفة فنتحدث عن مختلف الأمور كما كنا نفعل في السابق. ولكن لسبب ما كنت أشعر أن السيدة إنج وين تتحامل على نفسها لتمضية ذلك الوقت معنا. كانت أمي تتحدث أكثر من المعتاد وكأنها تدفع الحرج دفعًا. في تلك الأوقات كانت جملها بالألمانية غير المتقنة تتفتَّت منها، بينما عجزت كلماتها المرتبكة في تكوين جملة مفيدة ذات معنى، فطفقت على السطح بلا هدف، مع جُمَلٍ ذات

أزمنة وجنس وأعداد غير متطابقة، دفعت بالكلام كله ليصبح أشبه بنكته مُفتعلة. بدت السيدة إنج وين كأنها متعبة من الاستماع لأمي. ورُغم محاولاتها لإخفاء مشاعرها، فتعابير وجهها لم تفلح في الإفلات من ملاحظتنا.

وبحلول الوقت الذي بدأنا نرتدي فيه معاطفنا الشتوية، توقَّفَت أمي عن زيارة السيدة إنج وين، ولم تذكرها بعد ذلك مطلقًا. وحتى أمسيات السبت التي كنَّا نمضيها في منزل عائلة توي، تحوَّلَت إلى وقت مُرِبكٍ لمتابعة التلفاز فيما بيننا. ومع قِصر فترة النهار بحلول ذلك الوقت، كان الظلام يحلُّ في كل مكان بحلول الساعة السادسة فأُضطرُّ للذهاب لغرفتي في الساعة الثامنة. وكان النوم عصيًّا في تلك الليالي. كنت أرقد في فراشي بلا حركة أستمع لأمي وهي تجذب أحد مقاعد غرفة الطعام، أو صوتها الهامس وهي تحدِّث هاتفيًّا أحدًا ما في كوريا. وذات مرة، خرجت من غرفتي للذهاب إلى الحمام فرأيتها جالسة على مقعد مائدة الطعام وقت الفجر وهي تحدِّق طويلًا في الحائط. لاحظت تعبيراتها المتأملة، وعدم ملاحظتها لدخولي، ثم مفاجأتها حينما أدركت وجودي، ومحاولتها لرسم ابتسامة لطمأنتي رغم جفونها المرتجفة.

تخلصت أمي من أحمر الشفاه الذي لم تستعمل سوى نصفه فقط مع كريم الأساس في القمامة، بينما ألقت طقمها المفضَّل المكوَّن من تنُّورة وقميص، وفستانها، في سلة تجميع الملابس المستعملة. كانت تمضي أيام الأحد في تعبئة أغراضها والذهاب للغابات القريبة، أو سوق الأشياء المستعملة، أو سوق الزهور، ولكن كل ما تفعله الآن هو البقاء في غرفة أختي الصغيرة والتحديق طويلا في حوائطها. وحتى في المواقف التي اعتادت أن تتشاجر فيها مع أبي حول شيء قاله أو فعله، أو محاولة تصحيح كلامه، كانت حينها تلتزم الصمت. لم تكن تأكل بانتظام، وكانت تحيك حتى تحمرَّ أناملها.

في تلك الأيام، وحينما كانت أمي مستغرقة في النوم بغرفة أختي الصغيرة كنت أتفقَّد سلة المهملات. لاحظت بداخلها صورًا قد مُزِّقت لقصاصات صغيرة ثم أُلقيَ بها. وجدتُ من بينها صورة أمي تحملني وأنا رضيعة وبجانبها وقف أبي ضاحكًا، وأخرى وأنا أتحسَّس بطنها التي أوشكت على الولادة... كانت قصاصات صغيرة يستحيل معها ترميمها لما كانت عليه من قبل. أخذت أحدِّق في صمتٍ في وجهه أمي النائمة بجوار أختي ديه يون. بدا لي أنها قد ابتعدت بالفعل، وكان كل خوفي من أن تنجرف لأبعد من ذلك.

ناولتني أمي صندوق هدايا مُربَّعًا، وطلبت مني أن أسلِّمه لتوي، بعد أن أخبرتني أنه هدية لأسرته. وضعت العلبة على حافة النافذة. الهدية كانت مُغلَّفة بغلاف ورقي باللونين الأصفر والأخضر، مع شريطة حمراء لفَّت العلبة من الأعلى.

كنا نعيش كسكان المنازل الفارغة بعد أن أرسلنا معظم أثاثنا وممتلكات شقتنا ولم يعد بالمنزل الكثير. كنا نفترش الجرائد على الأرض لتناول الشطائر وننام ليلًا في حقائب النوم. وكنت قد ازددت طولًا في العامين الأخيرَيْن، وقد تخلَّصتُ أمي من ملابسي التي اعتدت ارتداءها في ألمانيا في حاوية تجميع الملابس المستعملة. لم أرغب في البقاء في ألمانيا، ولكنني لم أرغب في العودة لكوريا كذلك. كان من المفترض أن ألتحق بالصف المتوسط في كوريا بعد شهر، وكان من الصعب على تقبل شكل قَصَّة شَعري القصيرة التي تصل لثلاثة سنتيمترات تحت أذني، أو أن أقف في طابور صباحي وأنا مرتدية الزي المدرسي. تخيَّلتُ كيف يمكن لهذا التغيير أن يكون مُخيفًا، ولكن ما شعرت به حينها كان استسلامًا أكثر منه خوفًا.

كان الثلج يهطل بكثافة في ذلك اليوم، فيتراكم الثلج الحديث فوق القديم، قبل أن يذوب ويتجمَّد على أرضية الحديقة، بينما أُزيح الثلج

عـن جـزء ضيق فقـط مـن الطريـق للسـماح بعبـور المشـاه. جلسـت عـلى حقيبـة سَـفَر كبـيرة مُلئـت بالملابـس، وأخـذت أراقـب خـارج النافـذة. المـرة الأولى التـي رأيـت فيهـا تـوي كانـت مـن خـلال تلـك النافـذة أيضًـا. حضرتنـي صورتـه وهـو يقفـز بشـكل متعـرِّج أسـفل الشـارع، فشـعرت بحـزن مكتـوم. كان الوقـت مُنـذِرًا بحلـول موعـد الغـروب، فبـدا الثلـج المتراكـم في الحديقـة مائـلًا للزُّرقـة.

حينهـا رأيـت صبيًّـا خـارج النافـذة يرتـدي معطفًـا أسـود مـن نـوع النـورك الشـتوي وقـد أطلـق غرّتـه الطويلـة. كان يخطـو خطـوات واسـعة. وعـلى الرغـم مـن أننـي لم أتبـيَّن وجهـه بدقَّـةٍ إلَّا أننـي كنـتُ متأكِّـدةً مـن أنـه سـيكون مبتسـمًا ابتسـامة هزليَّـةً. اسـتدار الصبـي تجـاه النافـذة ونظـر إليَّ، ثـم مـدَّ ذراعـه ولـوَّح لي بيـده. كان ذلـك تـوي. حملـت صنـدوق الهديـة الـذي ناولتنـي أمـي إيَّـاه، ثـم نزلـت الـدَّرَج وعـبرت الشـارع.

لم يبـق في المـكان الـذي برحـه تـوي منـذ قليـل سـوى آثـار أقـدام. وقفـت هنـاك أنظـر مـن حـولي، ولا أدري كـم مـرَّ مـن الوقـت عـليَّ في تلك اللحظـة، ثـم ظهـر تـوي مـن بعيـد مُسرِعًـا تجاهـي. وقـف أمامـي مبـاشرة وانفجـر في الضحـك.

قـال تـوي: "مـا هـذا التعبـير الـذي أراه عـلى وجهـك؟ ألا زِلـتِ تنخدعين بألاعيبي؟".

"إيَّـاك أن تتلاعـب بي مجـدَّدًا". كان عـليَّ أن أقـول ذلـك ثـم أضحـك، ولكنـي عجـزت عـن حمـل نفـسي عـلى الضحـك، فقـد صدمتنـي كلمـة "مجـدَّدًا" والتـي لم يكـن لهـا معنـى الآن. شـعرت بعدهـا بغصَّـةٍ في حلقـي.

"مـا بـكِ؟ هـذه ليسـت المـرة الأولى ولا الثانيـة. حسـنًا، لـن أعيدهـا مـن جديـد".

بـدا مشـدوهًا حينـما شـاهدني وأنـا أكتـم دموعـي وأخـذ يتفحَّصنـي بُرهـة.

"هل أنت من كلاب الزَّلّاجات؟ لتقفز على الجليد بهذه الطريقة؟". تمكّنتُ من الابتسام بصعوبة بعدما لفظت بتلك الكلمات في وجهه. جمع توي كفَّيه أمام جسده وقلَّد شكل الكلب، فأضحكني.

أدركت لاحقًا أن تصرفات وكلام توي الهزليين لم يكونا سوى خدعة يستخدمها الناضجون الذين يراعون مشاعر غيرهم من الأطفال. أولئك الأطفال سبقوا أقرانهم في مرحلة النضج فكان عليهم أن يمثِّلوا دور الطفل البريء الذي لا يعرف شيئًا. كانوا يحملون على عاتقهم مسؤولية لعب دور الطفل الهزلي الضحوك حتى يتسنّى للآخرين أن يزيحوا بعضًا من همومهم خلالهم، وينسوا تلك الهموم للحظات ويضحكوا. حينها، كنت أظن، حتى تلك اللحظة، أن الأطفال الجادين والمتهكِّمين وحدهم هم الناضجون؛ ولذا غفلت عن حقيقة مراعاة توي لغيره.

قال توي: "أمي ستأتي من هذا الاتجاه بعد قليل. بدأت مؤخَّرًا في حضور بعض الفصول الدراسية. وقد أوشكت حصتها على الانتهاء". لم نكن قد تبادلنا الحديث منذ فترة، فشعرت أنه غريب. لم يأتِ لزيارة منزلي، ولم أذهب لزيارته في منزله. أما في المدرسة فقد بقينا بمعزلٍ عن بعضنا البعض، ولو تصادف واصطدمنا أثناء طريق عودتنا للمنزل كنا نكتفي بالإيماء فقط ثم نعاود من بعدها استكمال طريقنا ببرود. وفي تلك الأوقات لم يكن توي الصبيَّ الذي عرفته. كان أطول كثيرًا ممَّا سبق فلم يبدُ كصبيٍّ صغير لمن يراه من بعيد. حديثي معه مثل الأيام الخوالي، وكأن كل شيء على ما يرام، جعلني أدرك أن وقتًا طويلًا قد مرَّ بالفعل. جلسنا جنبًا إلى جنب على إحدى مقاعد الحديقة.

قال توي: "لم أقصد الإساءة إليك يومها". تردَّدتُ لبعض الوقت، لا أدري بماذا أجيب، فبادر توي بالكلام قائلًا: "لم أقصد أن أهاجمك بكلامي".

"أنا آسف".

بعد أن سمعت كلامه أدركت بشكل تلقائي أنني أردت أن أقول له نفس الشيء. أغمض عينيه الواسعتين لمرة واحدة. كلّما هبّت الرياح أسقطت معها كومة من الجليد من التي تراكَمَت فوق أغصان الأشجار فسقطت متهشّمةً فوق رأسينا.

قلت ببطء: "آسفة أنني لم أكن أعلم شيئًا". كنت حَذِرة كهذه الرياح التي توشك أن تزيح كلماتي بعيدًا. كنت أعلم أن تلك الكلمات لن تغيِّر شيئًا ممَّا سبق، ولكني أردت أن أقولها على أي حال. تلاقت أعيننا، ثم أخذ يضرب الأرض عدة مرات بمقدمة حذائه، بعدها رفع رأسه ونظر لي مجدَّدًا، بدا عليه الإحراج. ثم تباعدت شفتاه ببطء، ومن بينهما خرج نَفَسٌ أبيض تَبَعثَر في الهواء. أخرج كيسًا ورقيًا من حقيبة ظهره.

"هذا لكِ وود ستوك".

حوى الكيس الورقي كتابًا مصوَّرًا، وعلى الغلاف كان وود ستوك وسنوبي يجلسان وفق سطح منزل الكلب يكشِّران في وجه بعضهما البعض. لن يكون باستطاعتنا أن نجلس سويًا مثلهما مجدَّدًا، ولن أُنادى باسمي السخيف مُطلَقًا.

جلسنا هناك نتبادل أحاديث غير مجدية حتى موعد وصول السيدة إنج وين. لماذا يبقى رَوَث الكلاب موجودًا في الحديقة مهما حاولوا تنظيفه، ورغم ذلك فإنه يبقى في مكانه على الدوام. تُرى، كم عدد أكوام الرَّوَث المدفونة والمتجمدة تحت هذه الطبقة من الجليد. كنَّا نسقط مغشيًّا علينا من الضحك إذا ما بدأنا الكلام في أمر الرَّوَث، ولكننا، ولسببٍ ما، ما عدنا نضحك على نفس الأمر كما كنَّا في السابق. لم يعد الأمر مُضحِكًا.

لوَّحَت السيدة إنج وين بيدها لنا ونحن جالسين جنبًا إلى جنب. جلست السيدة إنج وين بجانبي.

"متى سترحلين؟".

"أرحل غدًا مساءً".

أخذت السيدة إنج وين تحملق في صندوق القمامة دون أن تبدي أي تأثُّر. شعرت بالخجل، فحللتُ ذراعيَّ المتشابكتين وناولتها صندوق أمي على حِجرها.

"طلبت مني أمي أن أُسلِّمكِ هذا".

بدأت تمزِّق الغلاف الورقي المغلِّف للصندوق، ثم فتحته. بداخله كان هناك ثلاثة أطقم من الأوشحة والقبعات والقفازات الصوفية، كانت أمي قد شغلتهم منذ الخريف الماضي. سألتها لمن هذه؟ تذكَّرت وجهها غير المبالي حين أجابتني بأنها كانت تشغلهم لشغل فراغها فحسب. أخرجت السيدة إنج وين القبعة الصوفية الحمراء وارتدتها. لم يكن بها أي اختلاف كبير بينها وبين قبَّعتها الصيفية ذات الحواف الضيقة التي اعتادت أن ترتديها سوى أنها شُغِلَت من الصوف. كما شُغِلَت حواف القبعة بوردة عُلِّقَت عليها. أخرجت القبعات والأوشحة والقفازات وأخذت تتفحَّصهم واحدًا تلو الآخر في ضوء الشمس. كأنهم جواهر كان عليها أن تفحصها جيِّدًا في الضوء الشاحب. أمسكت بقبعة كحلية نُقش عليها حرف التاء باللون الأصفر وأخذت تحدِّقُ فيها لوقت طويل قبل أن تضعها على رأس توي.

"رأسه كبير لذا لا تناسبه القبعات عادة ولكن...". توقَّفَت السيدة إنج عن الكلام، وسدَّت فمها بيديها، ثم سحبت دمعة كادت أن تفرّ منها. كانت المرة الأولى التي أرى فيها السيدة إنج وين تحاول أن تكتم دموعها. لم أكن أعلم كيف عليَّ أن أظهر التَّأثُّر على وجهي وأنا جالسة بجانبها، وخاصة حين حافظت على هدوئها ورصانتها حتى

وهـي تتحـدث عـن الحـرب دون أدنى تبـدُّل في ملامحهـا. السـيدة إنـج ويـن. نظـرت لوجههـا.

عينـان بُنِّيَّتـان كبيرتـان مـع أنـف صغـير، بينـما تـدلَّى جانـب شـفتيها لأسـفل مـن أثـر كتـم بكائهـا، وعـلى جبهتهـا خَطَّـا تجاعيـد عموديَّـان.

نفَخَت كرات الثلج الصغيرة التي تساقطت على قبعتها الصوفية.

قلت لها وأنا أنظر لوجهها الصغير: "شين تشاو".

أجابتني بنفس تحيتي، وقالت: "شين تشاو".

رفعـت صـوتي قليـلًا وقلـت: "شـين تشـاو، تـوي". كان مرتديًـا القبعـة الصوفيـة الكحليـة وقـد احمـرَّ أنفـه وهـو يضـع يـده في جيبـه، ثـم نظـر إليَّ وقـال بصـوت منخفـض: "شـين تشـاو".

لسـت متأكِّـدةً مـا إذا كنـت قـد توقَّعـت هذا المشـهد. ومشـهد السـيدة إنـج ويـن وهـي تصعـد لمنزلنـا لتلقـي التحيـة الأخـيرة عـلى أسرتي. ومنظرهـا هـي وتـوي وهـما يرتديـان القبعـات التـي حاكتهـا أمـي لهـما ليعرضاهـا عليهـا. لربمـا تمنَّيـتُ لـو رأيـت وجـه أمـي الـذي سيرتسـم عليـه علامـات الرضـا بعـد رؤيـة نتيجـة عمـل يدهـا عليهـما. ولكـن لم يكـن لهذه المشـاهد الدراميـة أي وجـود. لم يكـن هنـاك حتـى الأحضـان والقبـلات ولا حتـى جُمـل الـوداع المشـحونة والمعتـادة في مثـل تلـك المواقـف. وداعًـا، كانـت الكلمـة الوحيـدة التـي قلناهـا. ثـم نهضنـا مـن مقاعدنـا وأزحنـا حبـات الثلـج المتراكمـة عـلى معاطفنـا، وسـار كلٌّ مِنَّـا في طريقـه. عـبرتُ الشـارع، بينـما لم يعـبر الآخـران. انتظـرا حتـى وصلـت أمـام عتبـة منزلنـا الأماميـة ثـم تحـرَّكا مـن مكانهـما. لـن أتمكـن مـن رؤيتهـما بمجـرد عبورهـما لتلـك الزاويــة. تسـمَّرتُ في مــكاني أمـام عتبـة منزلنـا وتابعتهـم وهـم يمشـون بعيـدًا. تلفَّـت تـوي خلفـه ونظـر تجاهـي مـرة أو مرتـين، ولكنـه لم يتوقـف عــن السـير. التفُّـوا ناحيـة الزاويـة ومـا عـدت أراهـم مـن بعدهـا. ربمـا يعــودون مــن جديــد. جلســت القرفصـاء أنتظرهــما أمـام عتبـة منزلنـا.

ولكنهما لم يعودا مطلقًا؛ لذا مشيت حتى منزل توي. لكن الشارع كان قد خلا من أي شخص.

بمرور الوقت، وكلّما دَنَت علاقة لنهايتها تأمّلت الطرف الذي ترك والآخر المتروك. أحيانًا كنت أنا مَن يترك أوّلًا، وأحيانًا أخرى كنتُ المتروك، ولكن حين تنتهي علاقة كنت أعتزُّ بها، لم أكن أعلم حينها على وجه التحديد مَن ترك ومَن المتروك. كلاهما ترك في أحيان، وفي أحيان أخرى وقفوا موقف المتروك. الخط الرفيع بين أن تترك أو أن تكون متروكًا كان ضبابيًا في معظم الأوقات. ورغم سفري لعدد من رحلات العمل لألمانيا؛ إلا أنني لم أنزل مطلقًا ببلاوين. تعمّدتُ أن أتحاشى المكان حتى ولو أقمتُ في لايبزيج لمدة عشرة أيام، وقد كانت تستغرق ساعتين بالقطار وصولًا للمكان. في بلاوين عاشت طفلةً ترتعد حتى روحها، تحت أبوين يكرهان بعضهما البعض، وكان هناك وداع فاتر دون أي أحضان، والطريق الذي بكيت فيه وحدي. هذا كل ما فكّرتُ فيه طوال ذلك الوقت. هنالك أشخاص قد نفترق عنهم، ولكن حين نقابلهم من جديد فسنلقاهم بابتسامة، فبعض العلاقات قد تجعلك تبتسم لمجرد ذكراها في قلبونا، بغَضّ النظر كيف انتهت. ولكن هناك فراقًا لا تريد أن تتذكره، حتى بعد مرور وقت طويل؛ لأنه لم يترك سوى قلب مكلوم.

زُرتُ بلاوين في العام الذي تلا وفاة أمي. كان ذلك بعد مرور أسبوع من ذكراها السنوية الأولى، في بداية فصل الربيع حين كانت الشمس دافئة والنسيم باردًا. كانت المدينة أصغر ممّا أحتفظ به في ذاكرتي، وقد انحدَرَت أكثر ممّا كانت عليه قبل عشرين سنة، حتى بدت وكأنها قد تصحّرَت بشكل غريب. تحوّلَت مدرستي القديمة لمصنع صغير، وفي الفناء الخلفي كان هناك رجال من كبار السن يدخّنون ويتابعونني بشرود. أما عن الشقة التي كنا نسكنها فهي الشيء الوحيد الذي لم يتغيَّر. المبنى لا زال منتصبًا في مكانه مواجِهًا

للحديقة. نظرت لشرفة الطابق الثالث التي كنت أتسمَّر عندها وأنا طفلة. وأتذكر كيف كنت أتلصَّص على توي من خلف النافذة وأتابعه وهو يركض في الحديقة، وحينها ارتسمت على شفتي ابتسامة ناعمة.

كتاب القصص المصورة الذي يحمل اسم سنوبي لا يزال في خزانة الكتب بغرفتي. كان كتاب قصص مصوَّرة باللونين الأبيض والأسود، أمَّا شخصية وود ستوك فكانت ملوَّنةً باللون الأصفر. وود ستوك طائر الكناري الذي لا يجيد الطيران. كلما فتحت الكتاب ورأيت طائر الكناري الأصفر، شعرت بدفء قلب توي قريبًا مني وهو الذي كان يقلِّب الصفحات ويضيف الألوان للطائر.

العثور على منزل توي لم يكن بالأمر الصعب. جلست على المقعد المقابل لمنزله وأخذت أحدِّق في نافذته. كانت تلك نافذة المطبخ بالفعل. حاولت تذكُّر منظر الحديقة من تلك النافذة بشكل ضبابي، والسيد هوو واقفا يعدُّ طعام العشاء. رائحة الأرز المسلوق ومذاق توابل الحبَّهان التي كانت تقع تحت أسناني وأنا أتناول يخنة اللحم، والمذاق الحلو لعصيدة الأرز الذي كانت تعده السيدة إنج وين، والأوقات التي قضيتها مع توي ونحن مستندان على الجدار نقرأ قصص سنوبي المصورة. تلك الأوقات كانت تسري خلال قنوات قلبي الضيقة بحلاوة امتزجت بالمرارة. حين شاركت أسرتي الغناء مع أسرة توي، وقد أصرَّت الأسرتان على ألَّا يقضي التَّوتُّر الأخير على علاقتهما الصلبة ببعضهما البعض، وألَّا يتسبَّب ذلك التوتر في إحداث ندبة أو الإمعان في جرح الطرف الآخر.

حينما توفِّيَت أمي، لم يبكِها الكثيرون. "كانت في طفولتها حساسة على الدوام وكئيبة". "لم تتمتع بذكاء مميز". هكذا تذكَّروها، حتى أخوتها الكبار والصغار. ولكني تذكَّرتُ كيف وصفتها السيدة إنج

وين كشخص طيب القلب. كانت السيدة إنج وين الوحيدة التي استوعبت الصفة التي حكم بها الجميع عليها بشكل سلبيٍّ، وهي الحساسية والكآبة، وحدها أدركت أن الأمر نابع من قدرة مميزة على التعاطف مع الآخرين. وخلال نظرتها الحانية، بدت أمي كشخص يستحق أن يحصل على الحب.

هل رأت السيدة إنج وين الجانب الجميل فقط من أمي بينما لم تنتبه لنقاط ضعفها؟ كانت تدرك جميع نواقصها البشرية، ورغم ذلك فقد تقبّلتها في حياتها كما هي. أُجزم بأن أمي قد صانت محبّة السيدة إنج وين بكل حرص بعد أن أهدتها إياها. ولكم كان ألمها شديدًا حين تبعثرت من بين يديها دون أن ترتكب أي ذنب من جانبها. على حدِّ علمي، فقد فشلت أمي في تكوين صداقات حميمة من بعد السيدة إنج وين، وعلى الأغلب فقد افتقدتها كثيرًا. قالت أمي إنها لا تتذكر تلك الأيام جيدًا، ولكن على الأرجح أنها اشتاقت لها طويلًا، تلك السيدة التي أحبّتها لذاتها.

على الأقل وجب عليَّ أن أكون الصديق الذي ينصت لصديقه. كان عليَّ السماح لها بالتواجد في حياتي بشكل أكبر. ليس لأنها أمي؛ ولكن لأنها كانت وحيدة لزمن طويل. الآن فقط أدركت حقيقة أن السعادة ليست بالضرورة النتيجة الحتمية للتصميم وبذل الجهد. وحقيقة أن أمي لم تكن سعيدة معنا، ولم يكن السبب في ذلك عدم تحملها للمسؤولية أو إهمالها لذاتها.

حينما تواصلت مع السيدة إنج وين أخذت تكرِّر أنها لا تصدِّق أنها أنا. "لا زلت أقطن مع زوجي هنا. توي يعمل في هامبورج". تحاشَيتُ اطلاعها على كل الأخبار؛ مراعاةً لفرحتها بالتواصل معي، ولكني لم أستطع أن أكذب حين سألتني "كيف حال أمِّكِ؟".

وقفت على الجانب الآخر من الشارع وأمام المدخل كانت هناك سيدة قصيرة ترتدي قبعة حمراء. نهضتُ من مقعدي ومشيت لعبور الشارع. ثم عبَرَت حين تبدَّلَت الإشارة للَّون الأخضر. رأيت في عين السيدة إنج وين صدمة عجَزَت عن إخفائها؛ لأنني كنت أشبه أمي تمامًا، لدرجة يظنُّ الرائي أنني هي نفسها وهي بعمر الثالثة والثلاثين. ورأيت في عين السيدة إنج وين أمي تقف معي هنا في هذا المكان. السيدة إنج وين، تنادي بسعادة وهي تعبر الشارع. شين تشاو، شين تشاو. ردَّدناها مرارًا وتكرارًا، وكأننا نسينا جميع الكلمات الأخرى.

أختي، أختي سوون إيه

جائت خالتي لجناح غرفة أمي بالمشفى قُرب وقت الفجر، كان الوقت لا يزال مُظلِمًا، ولكن أمي تمكَّنت على الفور من تبيُّن وجهها رغم الظلام. لا زالت محتفظة بشكلها وهي ابنة السادسة عشرة؛ شعر طويل مربوط من الخلف على هيئة ذيل الحصان، ونظارة ذات إطار أسود، وفستان صيفي مُرقَّط كانت قد حاكته بنفسها. وضعت خالتي يدها على ركبة أمي اليمنى، التي أجرت عليها العملية لتركيب مفصل صناعي، وقد ارتسم الهدوء على وجهها. وحين نظرت لها أمي، ابتسمت وبدأت تتحدث.

"أرى أن ركبتك قد جلبت عليك المتاعب أنت الأخرى يا هيه أوك. هل تصدِّقين ذلك؟ حتى أنت تتقدَّمين في العمر يا عزيزتي".

"كيف وجدتني هنا يا أختاه؟".

"اشتقتُ إليك، فطِرتُ لرؤيتك".

"كيف تطيرين وليس لك أجنحة؟".

"بلى، لديَّ... انظري لهذا".

بسـطت خالتـي أجنحتهـا التـي كانـت عـلى شـكل مروحـة هلاليـة الشـكل كانـت مثبَّتـة في ظهرهـا، أخـذت ترفـرف بهـا في شـكل دائـري حـول سـقف الغرفـة ذات الثـماني أسِرَّة. في البدايـة، تابعـت أمـي المنظـر باندهـاش، ثـم مـا لبثـت أن تحوَّلـت دهشـتها إلى قهقهـة كالأطفـال. لملمت خالتـي جناحيهـا بعـد أن أنهـت عرضهـا ثـم نزلـت إلى الأرض.

"سعيدة برؤيتك يا هيه أوك".

"وأنا كذلك".

"ألم يكـن مـن الأفضـل لـو أبقينـا الاتصـال قائمًـا بيننـا؟". اسـتندت خالتـي عـلى سريـر المشـفى وحدَّقَـت بوداعـة في وجـه أمـي.

"لا زلـت أشـعر بأننـا مـا زلنـا أطفـالًا صغـارًا، ولكنهـا جلودنـا هـي مَـن يشـير إلى أننـا أصبحنـا جـدَّاتٍ الآن".

أومأت أمي برأسها وهي تمسح ظهر كفِّ خالتي الناعم.

خالتـي سـوون إيـه هـي الابنـة الكـبرى لابنـة خالـة جـدتي. كانـت جدتي تبحـث عـن فتـاة صغـيرة تسـاعدها في محـل تصليـح الملابـس فأرسـلت لخالتـي سـوون إيـه، التـي كانـت تبحـث هـي الأخـرى عـن فرصـة عمـل في سـيؤول في الوقـت ذاتـه. احتجبـت أمـي خلـف ظهـر جـدتي وأخـذت تسـترق النظـر للفتـاة الواقفـة عنـد سـاقية المـاء.

"أصبح لديك أخت كبرى الآن".

أحبَّـت أمـي الخالـة سـوون إيـه منـذ اللحظـة الأولى التـي رأتهـا فيهـا وهـي تقـف صامتـة في حديقـة المنـزل. وأحبـت معهـا وقـع كلمـة "أختـي"، ومـا حملتـه الكلمـة مـن حميميـة ومـودَّة مُحبَّبـة. لمـاذا بـدت الفتيـات، الـلاتي يكبرنهـا بعـدة أعـوام فقـط، أكـبر سـنًّا منهـا وهـي في عمـر الطفولـة؟

لم تجرؤ أمي على المبادرة في الحديث مع خالتي سوون إيه بسبب ضربات قلبها المتسارعة. أما خالتي فكان كلامها قليلًا، وكانت وجنتيها تحمرُّ خجلًا. كانت في السادسة عشرة من عمرها، إلا أنها كانت أقصر من أمي، التي بلغت حينها الحادية عشرة؛ لذا فكان عليها أن تُقصِّر ملابسها أو أن تحيكها بنفسها. لو كنت تبحث في الحي عن أقصر وأنحف فتاة في السادسة عشرة من عمرها، لكانت خالتي هي المطلوبة.

كلما طرأ شيء مثير للاهتمام في المدرسة، كانت أمي تبحث أوَّلًا عن خالتي سوون إيه لتخبرها بالأمر. كانت تهرع لمحل تصليح الملابس بمجرد انتهاء يومها الدراسي، فتلقي بحقيبتها، ثم تصبُّ جعبتها المليئة بالأخبار أمام خالتي، التي كانت تستمع لحكايات أمي وهي تخطِّط الأقمشة بقلم الطباشير وتُولج الخيط في فم الإبرة وتحرِّك ماكينة الحياكة.

كان المحل يبعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام من المنزل، إلا أن أمي وخالتي كانتا تتَّخذان الطريق الأطول عن عَمْد. وفي أحيان أخرى كانت خالتي تقف وتحدِّق في فتيات المرحلة الثانوية أثناء عودتهن لمنازلهن، أو ربما تقف متسمِّرَة في مكانها أمام محل الأدوات المكتبية، أو تقف لتربِّت على ظهر كلب مربوط في عمود كابينة الهاتف العمومي. وفي تلك الأحيان كانت أمي تتابع أشعَّة الشمس المنسدلة بضيائها على رأس خالتي. كان الزمن يمرُّ في تلك الأوقات بسلاسة، وكانت قلوبهما يملؤها تفاؤل عجيب بأن كل شيء سيكون بخير.

سمعت أمي من جدتي أن خالتي قد افترقت عن أهلها أثناء الحرب، وأن جدَّتها، التي سكنت معها طوال تلك المدة، قد توفِّيَت. لم تتحدث خالتي قطُّ عن خسارتها لأهلها وموقف الفراق، ولكن في الأيام التي اشتدَّ عليها ضغط العمل أو حين شعرت باضطراب عقلها،

كانت كثيرًا ما تذكر كلبها الذي كانت تربِّيه في مسقط رأسها. كانت قد أطلقت عليه اسم "دبدوب"، الذي بدأ يعيش معها من بعد الحرب. أنصَتت أمي باهتمام لقصتها، وكانت تلك اللحظات من بين المرات المعدودة على الأصابع التي تحدَّثت فيها خالتي عن نفسها.

"دبدوب كان مريضًا في أيامه الأخيرة، حتى إنه كان يأكل بالكاد. ورغم ذلك فحينما كنت أناديه 'يا دبدوب' كان يتكبَّد العناء في حمل رأسه وتحريك ذيله. وحين كنت أقول له' خُذ يا دبدوب تناوَلْ هذا' كان يدسُّ أنفه وسط الطعام ويتظاهر بأنه يأكل كما لو لم يكن مريضًا. حينها كنت أبكي أمامه. فهمت حينها أنها لم تكن مجرد وعكة صحية عابرة، بل كان يحتضر. قضيت ليلتي، وفي الصباح ذهبت لمنزله أتفقَّده لأجده وقد اختفى. بعد اختفائه بكيته لمدة شهر كامل أثناء ذهابي للمدرسة. بكيته ثم بكيت. وظننتُ حينها أنني أخطأت حين بكيت أمامه فدفعته لهَجْر منزله. لمتُ نفسي ظنًّا مني أنه ترك منزله ليموت بعيدًا عني حتى لا أتألَّم لألمه. ما كان ينبغي أن أبيِّن له تلك الدموع مهما كنت حزينة. ما كان عليَّ أن أبكي مطلقًا".

كانت أمي تستمع لقصة دبدوب وتتخيَّل نفسها مكانه وخالتي تتحدَّث عنه. "خذ يا دبدوب تناول هذا". كانت أمي تتابع خالتي وهي تقصُّ الأمر وتنتحب. ثم صارت خالتي أغلى إنسان على قلب أمي حين أبصرتها من خلال قلب دبدوب. حتى وبعد مرور وقت منذ أن قصَّت خالتي الأمر، كانت أمي أحيانًا ما ترى خالتي بعين دبدوب الذي رحل. كانت تدرك كيف خسرت خالتي كل شيء رغمًا عنها، ورغم ذلك كان لديها المزيد لتخسره.

أمي أحبَّت خالتي.

زوج خالتي كان الأخَ الأكبر لصديقة أمي ناني، أُعجِب بها حينما رآها تمرُّ من أمامه، فكتب لها خطاباتٍ، وأوصى أخته أن تناولها إيَّاها.

أبقـت خالتـي عـلى خطاباتـه في جيبهـا، وكانـت تقرؤهـا كلـما دخَلَـت الحـمام أو مشـت للبيـت مـع أمـي.

في تلـك الأوقـات لم تكـن خالتـي الفتـاةَ التـي تديـر ماكينـة الحياكـة وتتعامـل مـع نسـاء الحـيِّ، ولا الفتـاة التـي وقفـت بجانـب سـاقية الماء وتـضرب الملابـس المتَّسِـخة بعصـا الغسـيل لتنظيفهـا. حينـما كانـت تقـرأ رسـائله كان وجههـا يتحـوَّل لوجـه فتـاة عشرينيـة متلهِّفـة لحـب عـادي.

وعـلى الرغـم مـن محـاولات خالتـي لإبقـاء تلـك المشـاعر الفيَّاضـة بداخلهـا فحسـب، مـع الحفـاظ عـلى هـدوء ملامحهـا، إلا أن أمـي لاحظـت عـلى وجههـا وحـدة غريبـة. وقـد ارتسـمت الحـيرة والخـوف عـلى وجههـا، وقـد امتـزج معهـما شـعور السـعادة ورغبـة مُلِحَّـة للحصـول عـلى شيء مـا يصحبـه الشـعور بالـتردُّد.

ارتبطت خالتي بحبيبها لفصلين ثم تزوَّجا.

كانـت أمـي غالبًـا مـا تلتقـي بخالتـي في محـل معكرونـة الـكال- كـوك-سـو المقابـل لمقـرِّ عملهـا. لم تعُـد خالتـي تهمـس بالـكلام كـما في السـابق، وأصبحـت ترفـع صوتهـا حينـما تريـد أن تطلـب طعامهـا، وكانـت عيناهـا تلمعـان حـين تتحـدث. كانـت ترتـدي قميصًـا بَـدَا جديـدًا، ومـن تحتـه تنُّـورة وصلـت لأعـلى ركبتهـا، وعـلى شـفتيها طلَّـت أحمـر الشـفاه بلـون زهـري داكـن أضـاف بريقًـا لوجههـا.

كانـت تنتقـي لحـم المحـار مـن طبقهـا، وتضعـه بأكلمـه في طبـق أمـي، بينـما تـأكل المعكرونـة فقـط.

"توقَّفـي عـن منـح غـيرك أشـياءك في كل مـرة؛ وإلا نَمَـت لديـك عـادة العطـاء بغـير حسـاب".

وضعـت أمـي ملعقتهـا في طبقهـا واسـتخرجت لحـم المحـار الـذي أعطتـه لهـا خالتـي منـذ قليـل وردَّتـه في طبـق خالتـي.

"هيه أوك".

"نعم؟".

"أريـد حقًّـا أن أعيـش في سـعادة. أريـد لحيـاتي أن تسـتمر عـلى هـذا النحـو، تمامًـا مثـل حيـاتي الحاليـة. قـد تظنـين أن ذلـك مـن بـاب الطمـع، ولكنـي أريـد أن أحـاول وأن أعيـش حيـاة جيـدة".

قالـت خالتـي إنهـا سـتدخل الامتحـان المكافـئ للثانويـة العامـة قريبًـا، كـما أنهـا كانـت تسـتعد للحمـل كذلـك، وحينـما يصـل طفلهـا سـتمنحه مـن المحبـة والحنـان مـا لم تحصـل عليـه مـن أبوَيْهـا. شـعرت أمـي بالغـيرة مـن طفـل لم يولـد بعـدُ.

تـردَّدَت خالتـي لبرهـة ثـم قالـت:" لم يحبنـي أحـدٌ قَـطُّ كـما أحبَبتِنـي يا هيـه أوك؛ كنـتِ في صفِّـي مهما حـدث، وقَبِلتِنـي بـلا أي شروط، وتفهمتني. ربمـا شـعرت بغرابـة مـا سـأقوله لـك، ولكنـك كنتِ أمًّـا بالنسـبة لي".

معاملـة أسرة أمـي تجـاه خالتـي كانـت شـديدة الـبرود عـلى الـدوام، ولكنهـا أبـدًا لم تـترك خيبتهـا فيهـم تظهـر عـلى وجههـا؛ ليـس مـن أجـل العائلـة؛ ولكـن حِفظًـا لكرامتهـا، كانـت تظهـر عـدم انزعاجهـا أو تأثُّرهـا مهـما بـدا منهـم.

"خذي يا أختاه".

ناولـت أمـي خالتـي محفظـةً مصنوعـة مـن جلـد البقـر، كانـت تلـك المـرة الأولى في حياتهـا التـي تشـتري فيهـا شـيئًا مـن المركـز التجـاري.

"هديـة زواجـك. أعتـذر لـك عـن تأخُّـري في إحضـار هديتـك، كـما أعتـذر أننـي لم أشـترِ لـك أي شيء بعـد حصـولي عـلى مُرتَّبـي الأول".

"لديَّ محفظة بالفعل. لماذا تهدينني شيئًا غاليًا كهذا؟".

تذكَّـرَت أمـي محفظـة خالتـي المثقوبـة، تلـك التـي أصلحتهـا مـرارًا وتكـرارًا حتـى أصبحـت مهترئـةً باليـة.

"عليك استخدامها. لا تكوني غبية فتهديها لزوجك. هذه هديتك أنتِ".

"هل يمكنني أن أستعمل مثل هذه المحفظة؟".

"بالطبع. أعِدُكِ أن أشتري لك أفضل منها في المرة القادمة حين أتقاضى أجرًا أكبر".

ضمَّت خالتي المحفظة بكل رفق بين كفَّيها وأخذت تمسح عليها كأنها تمسح على ظهر حيوان صغير. كانت أمي كثيرًا ما تدخل في ذكرياتها وترى خالتي في تلك اللحظة، وهي تنظر للفتاة الصغيرة التي تجلس بجانبها وبحوزتها محفظة جلدية، فسألتها أمي لِمَ هي سعيدة ومندهشة من شيء تافه كهذا، وأخبرتها أنها تستحق أفضل من ذلك.

حينما وصلت أمي لمنزل خالتي كانت الأخيرة جالسة على السُّلَّم المؤدي للمطبخ، وعلى ساقيها كدمات زرقاء بحجم كفَّيها، وعلى ذراعيها كانت هناك آثار دماء تحت الجلد حيث كُشِطَت ذراعاها، ووجدت أرضية المنزل قد اتَّسخَت بباقي مخلل الكيمتشي وعظام سمك المكاريل وقشر البيض، وأعقاب السجائر، وحبَّات الفول المنقوعة، ورؤوس براعم الفول، وجذور الكراث، وقشر البصل. دخل بصيص من نور شمس الغروب من خلال فرجة في شرفة المطبخ الصغيرة، فانعكست على أرضية المطبخ، وبيَّنَت بكل وضوح منظر المكان المتسخ.

تركت أمي خالتي في المطبخ وتوجَّهَت ناحية غرفة النوم، وهناك وجدت أطقم الملابس الداخلية مُبعثرة، وقد مُزِّق الغطاء والحصير بآلة حادَّة، وتُرِكَت فجوة بهما؛ وعلبة كريم الأساس مهشَّمَة، وقد غطَّت بودرة مستحضر التجميل الغرفة بأكملها ؛ وعلى الأرض غطَّت آثار حذاء الأرضيَّةَ بأكملها.

صبَّت أمي بعض الماء في صحن الأرز لتسقي خالتي وتبقيها رطبة، ثم أمسكت بالمقشة وبدأت في التنظيف؛ بداية من غرفة النوم. بعد أن أنهت مسح الغرفة أحضرت خالتي للمكان وساعدتها لتستلقي فوق الحصيرة الممزَّقة. كانت خالتي ترتجف. كان بإمكان أمي أن تقول لها بأن الأمر ليس خطيرًا، أو أنه لا داعي للقلق؛ ولكنها لم تستطع أن تفتح فمها بكلمة. عادت لمنزلها لإحضار بعض قطع الملابس وبعض مستحضراتها، ثم رجعت لمنزل خالتي لتضع أغراضها. وحين عرضت عليها أن تبقى معها على الأقل لحين عودة زوجها رفَضَت خالتي وأعادت أغراض أمي في حقيبتها وألقتها خارج المنزل ثم أغلقت الباب الخارجي.

كانت أمي تذهب لتفقُّد خالتي كل يوم بعد انتهاء دوام عملها. كانت تطرق الباب وتناديها. ثم تدقُّ على شرفة غرفة النوم طالبةً منها السماح لها بالدخول. أرادت أن تثبت لخالتي، ولو بشكل بسيط، أنها ليست وحدها. لم يكن لخالتي أي أصدقاء مقرَّبين بخلاف زوجها. وقد أخبر أبوا أمي خالتي بألَّا تعتبرهم أسرة واحدة، وأن ترحل ولا تنظر للخلف أبدًا. حقيقة أن خالتي لم يكن لها أي شخص تركن إليه آلم قلبها بشدة. جلست أمي أمام منزل خالتي ولا تدري كم من الوقت بقيت في مكانها. بينما وقفت جدتي في حديقة المنزل تراقبها.

"سوون إيه رحلت اليوم. مالك المنزل سلَّمني المفاتيح، وطلب مني أن أنظِّف المكان".

فتحت جدتي الباب الأمامي؛ الخزانة، التلفاز، المُبرِّد، وباقي قطع الأثاث الكبيرة كانت غير موجودة، بينما كانت الملاءات القطنية وملابس خالتي مطوية بعناية. لم يكن هناك أي أثر لملابس زوجها، تمكَّنت خالتي بشكل ما من أخذها جميعًا. جمَعَت جدتي ملابس خالتي المتروكة وباقي الأشياء في المنزل في حقائب قماشية.

"سوون إيه لا وجود لها بعد الآن. لا علاقة لها بنا، ولا علاقة لنا بها منذ هذه اللحظة، هل فهمتني؟".

وثَّقت جدتي الحقيبة القماشية برباط قوي سيصعب على خالتي حلُّه. عجزت أمي عن حلِّ العُقدَة، ولكنها استسلمت في نهاية الأمر وجلست على الأرض وهي تحتضن الحقيبة بقوَّةٍ لبعض الوقت كأنها تحتضن خالتي. كانت تفوح منها رائحة كرات النفثالين.

"بإمكاننا مساعدة سوون إيه ماديًّا، وهذا يكفي. لماذا لا تدركين أن ما تقومين به لا يفيد أيًّا منَّا على الإطلاق؟ لا تتدخلي. أرجوك. لا تفعلي أي شيء".

"المحاكمة لم تبدأ بعدُ. لماذا تتعجلين في معاملة صهرنا كمجرم؟".

" لا نحتاج لمحاكمة لمعرفة كيف ستنتهي هذه القضية. الكلام منتشر بالفعل بين أرجاء المدينة كلها. تقول بأن زوج سوون إيه كان يتحرك بناء على أوامر الشمال" قالت جدتي ذلك الكلام بصوت خافت.

"لا دليل على ذلك".

"إن كنتِ لا تعلمين فالأمر قد نُشر في الجرائد بالفعل. قالوا بأن أولائك الرعاع يقرؤون كتب الاشتراكية ويستمعون لمحطات الراديو التي تُبَثُّ من الشمال".

"حتى أنت يا أمي ترددين نفس الكلام؟".

"لو صرَّحَت الحكومة بذلك فلا بُدَّ من أنه صحيح، وحينها عليك أن تغلقي عينيك وتسدِّي أذنيك وتثقي بهم فحسب. ولا تذهبي في كل مكان وتطلقي عليها أختك وزوج أختك؛ إنها ليست شقيقتك الحقيقية. الأقارب من الدرجة الثالثة بالكاد يُعتبرون أقارب على أي حال. إيَّاكِ أن تثرثري في كل مكان".

أخـذت جـدتي الحقيبـة مـن يـد أمـي وألقـت بهـا بعيـدًا في أقـرب جـدول نهـري.

"متـى اعتبرتِهـا ضمـن أفـراد أسرتنـا؟ اسـتَغلَلتِها فقـط تحـت مسـمًى الأسرة؛ أليـس كذلـك؟".

"هـذا صحيـح. أردت أن أعيـش أنـا الأخـرى. لم أفكـر بهـا يومًـا عـلى أنهـا أحـد أفـراد أسرتنـا. وعليـك أنـت الأخـرى فعـل الـشيء نفسـه بدايـة مـن هـذه اللحظـة؛ وبهـذه الطريقـة وحدهـا سـننقذ أرواحنـا".

كانـت جـدتي امـرأة بخيلـة، بـلا قلـب، وهـذا الحـال وحـده هـو مـا مَكَّنهـا مـن تحمُّـل حياتهـا الصعبـة. لم تتمكـن أمـي مـن فهـم شـخص مثلهـا، كـما أنهـا احتقـرت هـذه الطبـاع، ولكـن بمـرور السـنين بـدأت تتفهَّـم أسباب قسـوتها إلى حـدٍّ مـا. إذا لم تتمكـن مـن مشـاطرة أحدهـم ألمـه، وإذا لم تملـك الشـجاعة لتقاسـم أحدهـم جـزءًا مـن حياتـه؛ فمـن الصـواب أن تختـار القسـوة عـلى أنصـاف المواسـاة. تلـك كانـت طريقـة جـدتي.

أصـدر المدَّعـي العـام أحكامًـا بالإعـدام بحـق ثمانيـة مـن المتهمـين، وسـجن مـدى الحيـاة بحـق سـبعة آخريـن، والسـجن عشريـن عامًـا بحـق عشريـن آخريـن، وخمسـة عـشر عامًـا بحـق خمسـة عـشر متَّهـمًا. تمَّـت المحاكمـة بعـد أسـبوع، حيـث قَبِـل القـاضي جميـع أحـكام المدعـي العـام، واسـتأنف جميـعُ المتهمـين. بنـاءً عـلى وقائـع الاتهـام، لم يكتـفِ أولئـك المتهمـون بخـرق قانـون الطـوارئ الرئـاسي، وقانـون الأمـن القومـي والقانـون المناهـض للشـيوعية فحسـب، والأكـثر مـن ذلـك أنهـم اسـتعدُّوا وتآمـروا وحرَّضـوا عـلى التَّمـرُّد. والخـبر الوحيـد المطمـئن في الأمـر أن زوج أختـي قـد أفلـت مـن عقوبـة الإعـدام والسـجن مـدى الحيـاة.

كتبـت أمـي خطابًـا بدأتـه بعبـارة "سـيدي الرئيـس"، وأرسـلته للبيـت الأزرق (مقـر الرئاسـة)؛ ظنًّـا منهـا أنـه لـو علـم الرئيـس بـرأي الشـعب؛

لأدرك سوء التفاهم في الأمر، ولصَحّح الظلم الواقع على السُّجَناء. هذا الأمر إن كان يدلُّ على شيء فهو يدلُّ كم كانت أمي ساذجة وجاهلة وهي في عمر العشرين. كانت فتاةً صغيرة لا تتخيَّل ولا حتى في أغرب أحلامها كيف للإنسانية أن تقود أبرياء لهلاكهم بعد أن تتهمهم ظُلمًا، وكل ذلك مدفوع بالسُّلطة.

تمَّ تنفيذ الحُكم بعدها بشهرين، ولم يتم التراجع أو العدول عن أيٍّ من الأحكام الصادرة. بقي المحكوم عليهم بأحكام الإعدام أو السجن المؤبد في مركز الاحتجاز بسيؤول، أما الباقون فقد تمَّ ترحيلهم لسجن آن يانغ. حضرت أمي اجتماعًا للصلاة من أجل المتهمين. وكان من بين الحضور أهالي المتهمين، والقساوسة الكاثوليك، والوزراء البروتستانت، وكثير من الأجانب الذين تجمَّعوا في المبنى المسيحي الكوري. كانت صلواتهم للمطالبة بإتاحة محاكمة علنيَّة شعبية بدلًا من المحاكمات العسكرية، ثم صلَّوا من أجل المتهمين المحتجزين في الزنازين الباردة ممَّن مُنِعَت عنهم الزيارات، حتى لعائلاتهم.

وبينما كانت أمي تتناول حساء المعكرونة مع من تجمَّعوا للصلاة سمعت قصصًا عديدة؛ قصة أطفال من أبناء الحيِّ ممَّن لفُّوا حبلًا حول رقبة طفلة في الرابعة من عمرها وسحلوها مثل الكلاب وهم يطلقون عليها اسم ابنة الشيوعي ثم تظاهروا بإطلاق النار عليها، بينما تَجمَّع حولهم البالغون الذين اكتفوا بالمشاهدة فقط؛ وقصة فتاة أخرى، ابنة أحدهم، كانت قد ذهبت في نزهة فوجدت نملًا في علبة طعامها كان قد دسَّه زملاؤها في الصف؛ وقصة أخرى لأم في طريق عودتها لمنزلها بعد شراء حاجتها من السوق، وقد تلقَّت على رأسها ضربة بحجرة قد ألقاها أحدهم فشُجَّ رأسها. جبل نام... كان الجميع يلتزمون الصمت حين تُذكر تلك الكلمة وكأن الأمر نتيجة اتِّفاق مسبق بينهم. كانت أمي تتمنَّى لو كان بإمكانها استعادة تلك الرسالة التي أرسلتها للرئيس وتمزيقها إربًا إربًا في لحظتها.

أختـي، أنـا آسـفة. كان اعتـذار أمـي لخالتـي بداخـل رأسـها فقـط، خالتـي التـي لم تعلـم حتـى مـكان تواجدهـا.

خرجـت أمـي مـن المبنـى المسـيحي الكـوري هائمـةً عـلى وجههـا لا تعلـم إلى أيـن تذهـب. وعـلى الفـور وصلـت لشـارع ديـه هانـج نـو. كان النـاس مجتمِعـين في السـاحة في تجمُّعـاتٍ ثنائيـة وثلاثيـة، يتضاحكـون ويتبادلـون الأحاديـث بصخـب. بـدت القصـص التي كانـت تسـتمع إليها منـذ لحظـات كـشيء بعيـد كالأحـلام. تمامًـا كوجـه زوج أختهـا المبتسـم في هـدوء وهـو يقـول: "هيـه أوك، أخـت زوجتـي"، وحتـى وجـه أختهـا الـذي كان يشـعُّ نـورًا حينـما كانـت معـه. أحنـت أمـي رأسـها.

وزَّعـت أمـي كتيِّـات خاصـة بجمعيـة القساوسـة الكاثوليـك للعدالـة في مقـرِّ عملهـا. وفي كل مـرة همَّـت بنفـس الفِعـل تحـوَّل الجـو العـام في المـكان فجـأة ليصبـح ثقيـلًا، وأحيانًـا كانـت تسـمع ضحـكات مكتومـة وراء ظهرهـا.

"آنسـة لي، لِـم لا تدَّخريـن جهـودك في البحـث عـن زوج لـك؟ اقبـلي النصحيـة مـن شـخصٍ ذي درايـة بالأمـور. العـالم لـن يتـورَّع عـن سـحقك حتـى لـو كان رأسـك محنيًّـا يـا آنسـة لي" كانـت تلـك كلـمات رئيـس القسـم الـذي تعمـل بـه أمـي ممَّـن يفخـرون بمشـاركتهم في ثـورة التاسـع عـشر مـن إبريـل، ثـم أضـاف برفـق، حتـى يضفـي بعـض المنطـق عـلى كلامـه: "لـن يتغيَّر شيء مهـما فعلـتِ؛ لـذا فلتبقـي بعيـدة عـن هـذا الأمـر، وتوقَّفـي عـن التـصرف كطفلـة".

تـردَّدَت أمـي عـلى حـيِّ ميونـج دونـج كل خميـس، حيـث شـاركت في تجمُّعـات الصلـوات الداعيـة لاسـتعادة الديموقراطيـة، كـما رافَقَـت أُسَر المتهمـين لتوزيـع الكتيبـات التـي تنـادي بمحاكـمات علنيـة. كانـت تذهـب في بدايـة الأمـر مـن أجـل خالتـي وزوجهـا، ولكـن بمـرور الوقـت أصبحـت تذهـب وكأن هنـاك مـا يجذبهـا للمـكان لا إراديًّـا، وفي التَّجمُّعـات كانـت

تحرص على الوقوف في أبعد مكان للاستماع للخطب، كما كانت تتبع جميع المسيرات، حتى إنها وضعت مبلغ إيجار منزلها الذي اقترضته من أبويها في تمويل الأنشطة ودعم اجتماعات الصلوات يوم الخميس من خلال توفير سعر تذكرة الحافلة والسير لمعظم الأماكن.

تمَّ تنفيذ أحكام الإعدام بعد ثماني عشرة ساعة من إصدار حُكم المحكمة العليا.

لم يكن الأهالي على عِلمٍ بأن أحكام الإعدام قد نُفِّذَت بالفعل، حينما كانوا في طريقهم لمناقشة الإجراءات الاحترازية المضادة لتنفيذ عقوبة الإعدام، وحين علموا بالخبر سقطوا على الأرض في أماكنهم. لم تُتَح لهم حتى الفرصة الأخيرة للمس وجوه أزواجهم وآبائهم، أو حتى توديعهم الوداع الأخير، أو حتى أن يخبروهم بألّا يخافوا ولا يقلقوا، لم يحظوا بتلك المرة الأخيرة لتتلاقى فيها أعينهم، خسروا أحبّاءهم في غمضة عين. قامت الدولة بإحراق جثث السجناء الذين نُفِّذَت فيهم أحكام الإعدام دون حتى أخذ الموافقة من ذويهم، ثم أرسلوا لهم رُفاتِهم. "أردت على الأقل أن ألمس جثّته" إحدى زوجات السجناء، الذين نُفِّذ فيهم حكم الإعدام، تمكّنَت بصعوبة من تجميع تلك الكلمات سوية بعد أن أعياها الحزن. لم تتمكن أمي من البقاء في الغرفة لمدة أطول وخرجت.

العالَم يسخر من محبّة الإنسان لأخيه الإنسان، من تلك الرغبة اليائسة لتهب حياتك مرة تلو الأخرى لو كان الأمر يعني أنك ستنقذ حياته. يقول العالم: المحبة بين البشر وتلك الأشياء لا وجود لها، ومن الأفضل لكم أيها الضعفاء أن تتوخّوا الحذر، ما المشكلة لو أُزهِقَت أرواح تسعة من النَّكِرات، والقانون هو ما نمليه عليكم، والشيوعيُّون هم مَن نطلق عليهم ذلك، وحينما نأمركم بالركوع فعليكم بالسمع

والطاعـة، بإمكاننـا قتلكـم بسـهولة بإلصـاق التُّهـم بكـم؛ لـذا أخرِسـوا ألسـنتكم وافعلـوا مـا تؤمـرون.

قتلتهم الدولة.

لم تفهـم أمـي أنهـا لا تعلـم شـيئًا عـن العالَـم، وأنهـا لـن تعـرف أفضـل مـن ذلـك إلَّا بعـد أن نُفِّـذَت أحـكام الإعـدام. أخـذت تبـكي بـكاءً مكتومًـا وهـي في الحافلـة في طريقهـا للعمـل وأبقـت فمهـا مُغلَقًـا حـول الأمـر برُمَّتـه للأبـد. أخبرهـا الجميـع بأنهـا عـادت لصوابهـا أخـيرًا، وأضافـوا أنهـا بهـذا أصبحـت مـن البالغـين. لم يتـورَّع أحدهـم في الاطمئنـان عـلى ندوبهـا الداخليـة. حيـث لم يكـن لهـا صِلـةٌ بالحادثـة، وهـذا مـا كان يظنُّـه الآخـرون؛ ولـذا لم يشُـكَّ أحـد في أنهـا ربمـا تكـون قـد تـضرَّرَت.

اعترفـت أمـي بأنهـا أصبحـت شـخصًا قليـل الـكلام مـن بعـد ذلـك اليـوم. قالـت بأنهـا شـعرت بالخـزي مـن كَـمٍّ تعليقاتهـا السـاذجة حـول الحادثـة ومـن مُعتقَداتهـا المثاليـة حـول العـالم، وصلابـة العـالم وذلـك الحائـط الفـولاذي الـذي لـن يُختـرَق، تلـك الأوهـام أخرسـتها تمامًـا، ولكـن حاجـز الصمـت هـذا لم يخرقـه إلا شـخص واحـد.

"هيه أوك، هل أنت بخير؟".

وقفـت أمـي متسـمِّرةً في مكانهـا تحـدِّق النظـر فيـه وهـي تحمـل فنجـان قهوتهـا بـين يديهـا. سـألته: "مـاذا تقصـد؟"، ثـم رحلـت. ولكـن تلـك الكلـمات التـي انبثقـت مـن وجهـه البـارد علقَـت معهـا لمـدة طويلـة. كان ذلـك أول حـوار شـخصي بـين أمـي وأبي، بعـد مـرور عـام مـن انضمامها للشركـة.

توفِّيَـت زوجـة أبي الأولى وهـو في سِـنِّ الخامسـة والعشريـن، ولم يتعـرف عـلى أحـد مـن بعدهـا طيلـة خمـس سـنوات. كان يلازمـه ذلـك التعبـير الجامـد عـلى وجهـه عـلى الـدوام؛ الأمـر الـذي جعـل أمـي عاجـزةً عـن قـراءة مشـاعره أو أفـكاره. وحتـى عندمـا كانـت تـوزِّع الكتيبـات عـلى

زملائها في العمل وتشرح لهم وقائع الحادثة كان ينظر لها ببرود، تمامًا كعادته. سؤاله لها ما إذا كانت بخير جعلها في حيرة من أمرها، وفي الوقت ذاته انتابها الفضول لمعرفة فيم يفكر.

قال أبي:

"كانت من النوع الذي يتحمَّل الكثير".

حينما ساءت الحالة الصحية لزوجة أبي الأولى بعد مجرد نزلة برد تحولت لالتهاب رئوي، أخذت تُخلِّل الكيمتشي الذي سيكفيهم طيلة فصل الشتاء. ولم تذهب للمشفى سوى بعد أن دفنت جميع قدور الكيمتشي في حديقة المنزل ليتخمَّر، ولكن حينها كان الأوان قد فات بالفعل.

"تزوَّجنا بعد أسبوع واحد، بعد أول لقاء توسَّط فيه وسطاء الزواج. وقد استغرق الأمر قليلًا لنألف بعضنا البعض، خاصة أننا كنَّا أغرابًا، ثم صِرنا أُسرةً بشكل مفاجئ. حتى إنه لم يسبق لنا أن مشينا جنبًا إلى جنب. كانت تقول إنها تربَّت على أن المشي مع الرجال أمرٌ مُخزٍ. كانت تتصف ببعض الحماقة، وكان يعجبني ذلك؛ جانبها الساذج، وإلَّا ما كانت لترضى بالعيش معي. ويا للهول، كانت تعدُّ أطنانًا من الكيمتشي. كنت آكل قطعة واحدة مع كل وجبة، وبالرغم من ذلك كان يتبقى الكثير. عليَّ أن أعترف أنه كان لذيذًا للغاية. ظننت أنه ربما تشعر أنها خُدِعَت لأنها لم تحظَ بفرصة لتذوُّق صنع يديها الذي تكبَّدَت من أجله كل ذلك العناء، تلك الحمقاء!".

كان أبي يورد تلك التفاصيل بينما كانت تعابير وجهه صامتة كرجل يناقش جدول أعمال الاجتماع. وحين كانت أمي تستمع إليه وهو يحكي دون مبالغة منه أو ادِّعاء تذكَّرت على الفور خالتي سوون إيه. كان والداي يتناولان العشاء سويًّا بعد انتهاء دوام العمل، ثم يتوجهان لملعب المدرسة المتوسطة الذي يقع خلف مقرِّ عملهما.

كانا يجلسان على المدرجات ويتحدثان فيما يشبه الهمس، ولأول مرّة تجرّأت أمي على طرح موضوع كانت قد تحاشت الكلام فيه منذ واقعة الإعدامات.

"هذه الدولة قتلت أناسًا أبرياء".

"أعلم ذلك. كان قتلًا قضائيًّا".

"إذًا لما كان وجهك كذلك فيما سبق؟".

"هيه أوك، في مسقط رأسي... مع اقتراب الحرب من نهايتها، جمّع الجنود نساء وأطفال القرية وأطلقوا عليهم الرصاص جميعًا بحجّة أنهم عُمَلاء للشمال. بعد أن حشدوا الجميع في ملعب المدرسة، أوقفهم الجنود في هيئة صفوف وقتلوهم جميعًا. نجت أمي من الحادثة لأنها اختبأت في مخزن وهي تحتضنني، ولكنها حملت معها إحساسًا بالذنب رافقها طوال حياتها. قالت لي إننا نجونا لحُسن حظّنا. ومنذ أن كنت طفلًا كنت أفكّر دومًا لِمَ قُتِل أولئك الأشخاص بينما نجوت. وكيف للإنسان أن يقتل غيره بهذه السهولة. وكيف يقتلون طفلًا حَديث الولادة أمام عينَيْ أمِّه؟ وكيف يمكنهم التكتم على مثل تلك الأمور وكأنها لم تحدث، بل ويستمرُّون بشكل طبيعي. يستمرُّون ليعثروا على ماذا؟ ما الذي ينتظرهم بالتحديد فيجعلهم يلهثون وراءه، ناسين ما اقترفوه بحقِّ بني جِلدَتهم، ثم يكملوا حياتهم بشكل طبيعي؟ كل ما فعلته كان التفكير. وبما أنني لم أفعل أي شيء على الإطلاق؛ فكنتُ لا أمانع حينما يتّهمني أحدهم بأنني متواطئ مع العالم، ولن أنكر هذا. لا أملك شجاعتك يا آنسة هيه أوك".

لم يُقِم والداي عُرسًا، واكتفيا بتسجيل زواجهما قانونيًّا، ثم انتقلا للعيش معًا. رفضت عائلة أمي زواجها من رجل يكبرها بكثير ولا يملك الثروة ولا المؤهلات التي تسمح لهم بالتّباهي بظروفه أمام الناس. والأدهى من ذلك أنها ستكون زوجته الثانية بعد وفاة الأولى.

بزواجها من أبي أصبحت أمي مصدرَ عارٍ لأسرتها؛ فقرَّروا مقاطعتها. وفي تلك الأثناء عادت خالتي سوون إيه للتواصل مع أمي.

"أرجو ألّا أكون قد فاجأتك باتصالي. اتَّصلتُ بمكتبك وهم مَن أخبروني برقم هاتفك المنزلي. مبارك عليك زواجك".

كان هناك صوت تكَّة على الجانب الآخر من المكالمة تشي بابتلاع علبة الهاتف للعملة المعدنية لاستكمال المكالمة.

"رُزقت بطفلة في يناير الماضي".

"حقًّا؟".

"تعالي لزيارتنا في آن يانج وقتًا ما".

بالرغم من أن أمي سمعت بأن خالتي قد رُزِقَت بطفلتها، إلا أنها لم تتمكن من حمل نفسها على تهنئتها. حقيقة أن خالتي قد أنجبت طفلتها دون وجود مَن يساعدها قد أدهشها ودفعها للصمت. وأدركت بعد أن أنهت المكالمة أن خالتي كانت تتوقع منها أن تُهنِّئها بولادة طفلتها. لا بُدَّ أن هذا هو السبب الوحيد الذي دفعها للاتصال، وإلَّا فَلِمَ تتواصل معها من جديد؟

التقت أمي بخالتي عدة مرات أمام محطة آن يانج للحافلات التي تربط المحافظات الداخلية. وفي كل مرة التقتا فيها لم تستطع خالتي النظر مليًّا في وجه أمي. كانت تسترق بعض النظرات الطويلة، تعاود من بعدها الشرود إذا ما تلاقت أعينهما. وحينما كانت تتحدَّث كانت تثبِّت نظرها تجاه أظافرها، أو تجاه أصابع قدميها البارزتين من حذائها المفتوح، أو تجاه أعقاب السجائر الملقاة على الرصيف، أو تجاه غطاء طفلتها. كان صوتها منخفضًا حتى أكثر ممَّا كانت عليه في السابق، فكان على أمي أن تعيد عليها السؤال أكثر من مرة. كما كان كعباها مغطيَّيْن بشقوق بيضاء وبثور دموية.

كانت خالتي فخورة بطفلتها. التي كانت تنام في هدوء بانتظام في الليل، وتستطيع الوقوف لدقائق معدودة، ولم تكن كثيرة البكاء، وكانت تعرف كيف تصبر ريثما تعمل أمها. حينما كانت خالتي تتحدث بشأن تلك الأمور كان صوتها يعلو بثقة تستقيم معها كتفاها المحدَّبتان. كانت تضع كل آمالها على طفلتها. لم تتمنَّ لها أن تنشأ بطريقة معيَّنة، أو أن تصبح شيئًا بعينه، مجرد حقيقة أن تبقى الطفلة على قيد الحياة بجانب أمها أعطى لخالتي الطاقة لمواصلة الحياة. اعتبرت أمي تلك الطفلة المعلَّقة على ظهر خالتي، والتي تتنفَّس ببطء، بمثابة قلب خالتي الذي ينبض خارج جسدها.

لم تذكر خالتي ما حدث في العام الماضي، وأمي لم تستفسر كذلك. وعلى أي حال طلَبَت خالتي من أمي عدم زيارة زوجها في السجن. وأوضَحَت لها أن إرسال كتب له سيكون كافيًا، وأنه من الصعب عليه رؤية وجوه معارفه القديمة. "أصيب قليلًا وهو في السجن" كان ذلك كل ما ذكرته خالتي.

سمعت أمي خلال تجمُّعات صلوات يوم الخميس الأسبوعية كيف تمَّ سحل الناس لجبل نام وتعذيبهم. سمعت بمن خُرِقَت طبلة أذنهم، ومَن هُشِّمَت ضلوعهم وسيقانهم. لم يكن الأمر بسبب تعرُّضهم لحادث سيارة أو لأنهم هَوُوا من فوق جُرف؛ ولكن لأن إنسانًا آخر فعل بهم ذلك. لم تستطع أمي النظر في وجه خالتي حينما ذكرت لها إصابة زوجها بالعرج في ساقه في مقر محبسه.

لم تتحدث أمي ولا خالتي عمَّن قُتِلوا. قالت خالتي إنها قد حضرت المحاكمة الأخيرة، ولكنها لم تُضِف على كلامها أي شيء آخر. كانت تريد تحويل دفَّة الحديث، أن تُغيِّر الموضوع، ولكن يبدو أن اصطدامها بالفكرة جعلها عاجزة عن تحويل الحوار لشيء آخر. كانت أمي تتحدَّث عن نفسها في تلك الأحيان بشيء من الغرابة. كانت

تجمع كل الأمور المُزرية في زواجها وكيف أنها أصبحت منقطعة عن والديها؛ حتى توحي بكلامها أنها تمرُّ بفترة صعبة هي الأخرى. كانت ترص لها تلك الأشياء حينما كانت في حقيقة الأمر في غاية السعادة؛ ظنًّا منها أنها لو أبدت ولو جزءًا صغيرًا من سعادتها لتسببت لخالتي في غصَّةٍ في قلبها من المقارنة. ولكنها أدركت فيما بعد أن مثل هذا التَّصرُّف كان بمثابة إهانة لمن يتجرَّع الألم.

في بداية الأمر كانت أمي تذهب لزيارة خالتي مرتين شهريًّا، ثم تقلصت تلك الزيارات لمرة واحدة شهريًّا، ثم أصبحت مرة واحدة كل شهرين، ثم مرة واحدة مع كل فصل. وحتى مكالماتهما العَرَضيَّة كانت مجرد محادثات سطحية؛ لأنهما ببساطة لم يكن لديهما شيء آخر يتحدثون عنه. لم تعُد خالتي صريحة مع أمي، وكذلك كانت أمي. كانت تحاول جاهدة ألَّا تقترب من المواضع التي لم تَصِلها الندوب بقلب خالتي، كمن يمشي على طبقة جليد رقيقة، وكذلك الحال بالنسبة لخالتي، التي حاوَلَت ألَّا تستدعي مواضيع مؤلمة قد تدفع أمي لإظهار شفقتها عليها على أقل تقدير. لم تكن أمي تعلم على وجه التحديد كيف تُدبِّر خالتي أمورها المالية ومَصدرَ دخلها في آن يانج. حالهما الذي استرعا مراعاة إحداهما الأخرى قادهما بعيدًا عن بعضهما البعض، حتى ذلك الرابط الوثيق الذي تكوَّن في الفترة التي عاشاها سويًّا لم يفلح في الإبقاء على علاقتهما. الأكثر من ذلك أنْ علاقتهما تباعَدَت أكثر حينما حملت أمي ورُزِقَت بطفلتها. كانت أمي متردِّدةً من مشاركة خالتي تفاصيل حملها، وتغيُّرات جسدها بفعل الحمل، واستعدادها للولادة؛ خشيةَ أن تُذكِّر خالتي بأيامها المظلمة. كانت تفكر في الاتصال بخالتي، ولكن كلَّما تأخَّرَت في التنفيذ كلَّما صَعُب عليها الاتصال فعليًّا. "أختي العزيزة..." كانت تبدأ خطاباتها بتلك الكلمات، ثم تنفَد كلماتها ولا تجد ما تقوله فتستسلم وتعدل عن كتابة الخطاب.

بعـد أن بـدأت حيـاة أمـي تسـتقرُّ أصبحـت خالتـي تشـكِّل عبئًـا عليهـا. لم تعُـد أمـي تشـعر بالراحـة معهـا؛ وجههـا الشـاحب الخـالي مـن مسـاحيق التجميـل، أصابـع قدميهـا البارزتـين مـن حذائهـا المكشـوف الرخيـص، عـدم ثقتهـا بنفسـها الباديـة في مظهرهـا وصوتهـا، تفكيرهـا المُركَّـز فقـط عـلى طفلتهـا، آثـار دموعهـا الجافـة عـلى زجـاج نظارتهـا، ورغبتهـا المُلِحَّـة في كل مـرة لدفـع حسـاب الطعـام رغـم حاجتهـا الماسَّـة للـمال، تَظاهُرهـا بعـدم حاجتهـا في تلقِّـي المسـاعدة مـن أي أحـد، عَجزُهـا عـن الشـكوى بصـوت عـالٍ مـن الظلـم الـذي يعـاني منـه زوجهـا... أمـي، التـي كانـت تظـن أن تصرُّفـات خالتـي تلـك كفيلـةً بـأن تثبـت الـكلام الـذي يتداولـه النـاس عـلى زوجهـا بأنـه مُتَّهَـم. وعـلى الجانـب الآخـر كانـت خالتـي تحـاول أن تَلقَـى وجـه أمـي البـارد بـدفء وحـرارة، وأن تخبرهـا بشـكل غـير مبـاشر عـن حاجتهـا الشـديدة لهـا. وجـه خالتـي المتعـرِّق خـلال زياراتهـا النـادرة لسـيؤول، ونظراتهـا الحزينـة وهـي تهدهـد طفـل أمـي. تلـك العينـان. اسـتعادَتُها الغبيـة لذكـرى كلبهـا الميـت.

"هيـه أوك، هـل تذكريـن كلبـي دبـدوب الـذي حدَّثتُـكِ عنـه سـابقًا؟ هـل أُخـبرك بأمـرٍ مـا؟ لا زلـتُ أذكـره!".

لم ترغب أمي في الاستماع للمزيد من حكايات خالتي.

لم تبـادر أمـي في التواصـل معهـا، وكانـت تجيبهـا بـبرودٍ إذا مـا اتَّصلَـت هـي. توقَّفـت خالتـي عـن الاتصـال بأمـي منـذ فـترة. حقيقـة أنهـا بـدأت تشـعر بأنهـا أصبحـت تُشـكِّل عبئًـا عـلى أمـي أصبـح أمـرًا ضاغطًـا بالنسـبة لهـا، ولكـن الأمـر نفسـه كان ضاغطًـا لأمـي، كذلـك لمـدة طويلـة. وحتـى الآن تفكِّـر كيـف أمكـن لهـا أن تتخـلَّى عـن خالتـي سـون إيـه. تفكِّـر لمـاذا كان الأمـر صعبًـا في أن تنظـر بإنصـاف لشـخص عانى بشـكل يفـوق تصوُّرها. بعـض الأشـخاص يفترقـون بعـد شـجار كبـير، والبعـض الآخـر ينجرفـون

بعيدًا عن بعضهما البعض بحيث يصعب عليهما المواجهة من جديد. الحالة الثانية من الفراق تبقى طويلًا في الذاكرة.

في بداية العشرينات من عمر أمي كانت تظن أن بإمكانها -في مرحلة ما من حياتها- اكتساب أصدقاء مميَّزين. كانت تعتقد أن بإمكانها أن تصادق العديد من الناس، وأن تعاملهم بالصدق والشفافية، تمامًا كتلك الصداقة التي التصقت بها في سنوات شبابها الأولى، ولكن الآن لم تستطع أي علاقة أن تعوِّض تلك التي فُقِدَت؛ فأهم الأشخاص بالنسبة لها ظهروا فجأة في مقتبل شبابها. وفي مرحلة ما، بات من الصعب عليها أن تنتقل من جديد لعلاقاتها الأولى التي بدأتها في عمر أصغر حين كان أمر تكوين الصداقة أيسر من ذلك؛ فالناس يغلقون أفئدتهم في مرحلة معيَّنة من حياتهم، وكأنه فِعلٌ باتفاق ضمني مُسبَق، ثم يبدؤون التَّعارُف خارج تلك الأقفال مع أناس لن يجرحوهم أبدًا، ولن يتسبَّبوا هم بجرحهم. أصدقاء ممَّن يمكننا الذهاب معهم في العطلات مع أزواج آخرين، أو تسلُّق الجبال سويًّا، ويخبرون بعضهم البعض بعدم رغبتهم في العودة لسنِّ العشرين. يقولون بأنهم لم يكونوا يدرون أي شيء حينها. ألم يكونوا كذلك بالفعل؟

قابَلَت أمي خالتي مرة أخرى، كان ذلك في الشتاء الذي أُطلِق فيه سراح زوج خالتي.

يقع منزل خالتي في الطابق الثاني من مبنى صغير يقع خلف مصنع للأحذية. صعدت أمي السُّلَّم المعدني ثم وقفت أمام المِصراع الذي كان مغلَقًا، ونادت على خالتي. سمعت صوت وقع أقدام، ثم تحرَّك المصراع. لاقت خالتي أمي بابتسامة مجهَدَة، ثم دعتها للدخول، وسألتها لو وجدت أي صعوبة في العثور على المنزل. كانت رائحة العفن تفوح من منزلها، ففتحت خالتي النافذة عندما همَّت

أمـي بالدخـول. تـسرَّب الهـواء البـارد للغرفـة، إلَّا أن أمـي لم تطلـب مـن خالتـي أن توصـد النافـذة؛ لأنهـا فهمـت رغبـة خالتـي في التَّخلُّـص مـن رائحـة العفـن التـي سيطرت عـلى المـكان. أرضيـة المنـزل كانـت تهتـزُّ كلَّـما مـرَّت سـيارة بالخـارج.

جلسـت ابنـة خالتـي خلـف طاولـة صغـيرة سـهلة الإغـلاق تنجـز بعـض الواجبـات المدرسـية الخاصـة بالعطلـة. كان أسـفل جوربهـا أسـود مـن تراكُـم الأوسـاخ. ألقـت الطفلـة التحيـة عـلى أمـي، ولكـن تحاشـت النظـر في وجههـا. وفي مواجهـة الطفلـة جلـس زوج خالتـي. كان يجلـس في مكانـه كـشيء هامـد بـلا حيـاة وقـد مـدَّ سـاقيه أمامـه محدِّقًـا في ركـن مـن أركان الغرفـة. كان شـديد الشـحوب، لدرجـة أن جلـده كان بالـكاد يسـتر عَظمَـه. لم يكـن الأمـر بسـبب فقدانـه للكثـير مـن الـوزن فحسـب، بـل بـدا كأن بنيتـه قـد تقلَّصَـت بالفعـل. كـما بـدت عينـاه غـير طبيعيَّتـين، كأنـه أبقاهـما مفتوحتـين عـن قصـد، وعـلى وجهـه علـت ابتسـامة غريبـة.

"عزيـزي، هيـه أوك عندنـا بالمنـزل. أختـي الصغـيرة هيـه أوك... هـل تذكرهـا؟" حدَّثَـت خالتـي زوجهـا بـدفء، بلهجـة مَـن تُحـدِّث طفـلًا صغـيرًا؛ فابتسـم لأمـي ابتسـامةً جعَّـدَت وجهـه.

"عزيزي على الأقل ضع عليك بعض الملابس".

ناولـت خالتـي زوجهـا، الـذي كان يرتـدي ملابـس النـوم، معطفًـا أزرق. حـاول ارتـداءه بصعوبـة بالغـة، وقـد بـدأت يـداه ترتعشـان. حوَّلَـت أمـي رأسـها تجـاه خالتـي التـي تحاشـت نظراتهـا.

أمسـكت ابنـة خالتـي ذراع أبيهـا وبـدأت تُدخِلهـا في كُـمِّ المعطـف. ثـم عدَّلَـت نظارتـه التـي انسـلَّت مـن مكانهـا فـوق أنفـه، وبعدهـا سـاعدته في إدخـال ذراعـه الثـاني. وبعدمـا نجحـت في إدخـال كلتـا ذراعيـه بـدأت تغلـق أزرار المعطـف. ثـم أحـضرت السـروال المكـوَّم في إحـدى أركان الغرفـة وسـاعدت والدهـا في ارتدائـه. كان يتجـاوب مـع مسـاعدة ابنتـه

كطفـل صغـير، ورغـم ذلـك كان مثبّتًـا نظـره تجـاه بـاب الدخـول، رافضًـا أن تتلاقـى عينـاه بعينيهـا.

"اشـتريت لـك الدجـاج المقـلي. كنـتِ تحبـين هـذا الطعـام يـا أختـاه، أليـس كذلـك؟".

أخرجـت أمـي الدجـاج المقـلي الـذي غُلِّـف بورقـة مـن داخـل الكيـس البلاسـتيكي. امتزجـت رائحـة الدجـاج المقـلي الشـهية مـع رائحـة العفـن المسـيطرة عـلى المنـزل، فأنتَجَـت مزيجًـا مـن رائحـة الخنزيـر النَّتِنـة. فرشـت خالتـي ورق الجرائـد عـلى الأرض، بينـما فتحـت العلبـة الورقيـة ووضعـت فوقهـا قطـع الدجـاج.

قالــت خالتــي: "لا زالــت ســاخنة" وهــي تهــمُّ بقضــم قطعــة مــن اللحـم، قضمتهـا فـور أن وقعـت عيناهـا عـلى الدجـاج. كان المنظـر غريبًـا عـلى أمـي التـي اعتـادت رؤيـة خالتـي، حينـما كانتـا تتنـاولان الطعـام سـويًّا، دومًـا مـا تُؤْثِـر الآخريـن عـلى نفسـها وتدعوهـم لتنـاول الطعـام أوَّلًا. بـدت خالتـي وهـي تمضـغ اللحـم كأنهـا تضـوَّرَت جوعًـا عـلى مـدار عـدة أيـام، وأخـذت تلهـث وتتنفَّـس بصعوبـة بينـما تمضـغ اللحـم. كانـت تـأكل بشراهـة وقـد سـال لعابهـا مـن فمهـا، ونسـيت آداب الطعـام، ولم تسـتحِ حتـى مـن منظرهـا وكأنـه لا يوجـد غيرهـا بالغرفـة.

أشـارت أمـي لابنـة خالتـي أن تـأتي وتتنـاول بعـض الدجـاج. رفعـت آخـر قطعـة دجـاج متبقيـة فخطفتهـا منهـا الطفلـة ونفخـت فيهـا عـدَّة مـرَّاتٍ ثـم قرَّبتهـا مـن فـم والدهـا، فـأدار رأسـه بعيـدًا، ولكنهـا أصرَّت على وضـع القطعـة أمـام فمـه، دون أن تنطـق بـأي كلمـة. أخـذ يحـرِّك ذراعيـه وعبـس بوجهـه. وفي تلـك الأثنـاء كانـت خالتـي تنتـزع غضاريـف الدجـاج عـن العظـام وكأنهـا لا تـرى شـيئًا آخـر. وقـد تجمَّعَـت دهـون الدجـاج، التـي امتزجـت مـع لعابهـا، عـلى جانبـي فمهـا. حاولـت الطفلـة بـإصرار

دفع قطعة الدجاج بداخل فم والدها، وفي اللحظة التي قطعت فيها قطعة من الدجاج وحشرتها في فمه حتى هدأ جسده الثائر.

ثم تسرَّب بوله على الأرض، انساب البول الساخن وقد لامس أصابع أمي وجوربها ونهاية فستانها، ثم انساب ليُبلِّل الجريدة المفروشة على الأرض وقطع الدجاج المتبقية عليها. كيف يمكن أن تخرج هذه الكمية من السوائل من جسد نحيل كهذا؟ جلس في مكانه مستسلمًا للبَلَل. أرضية المنزل كانت مائلةً في الاتجاه الذي تجلس فيه أمي؛ فانساب البول ناحية الحائط. أخذت الطفلة خرقةً صفراء وبدأت تمسح الأرضية، ثم أخذت خالتي قطع الدجاج المتبقية والتي لم يصبها البول ونقلتها سريعًا فوق الطاولة الصغيرة، ثم نظرت لأمي، وكأنها عادت أخيرًا لوعيها، وقد بدأت أذناها تحمرَّان.

"ما العمل؟ لقد أفسدنا ملابسك الجميلة. أسرعي بالذهاب لصنبور الماء واغسلي فستانك أوَّلًا، وفي تلك الأثناء سأنظف زوجي وأغيِّر ملابسه".

ذهبت أمي لصنبور الماء وبدأت تغسل يدها التي ابتلَّت ببول الرجل، وكذلك جوربها وفستانها. اعادت أمي ارتداء جوربها من جديد وقد غسلته بماء بارد؛ فارتعشت من البرودة. ثم شمَّت رائحة طبق يخنة الدوين جانج (معجون الصويا) التي صدرت من إحدى المنازل. لم تكن أمي حزينة، ولم تكن غاضبة إزاء أولئك الذين حطَّموا ذلك الرجل. كل ما فكَّرَت فيه حينها أنها تكره ذلك المنزل، حتى ابنة خالتي؛ تلك الطفلة الصغيرة، لم يكن لدى أمي رغبة في رؤيتها هي الأخرى. كانت تريد الخروج من ذلك المنزل، أن تذهب لمنزلها وتنظِّف نفسها. أرادت أن تُدثِّر نفسها تحت غطائها. أرادت أن ترى طفلها الذي يرتدي جوارب نظيفة. حتى وبعد عودة أمي للغرفة مرة أخرى كان من الصعب عليها أن تستأنف حوارها مع خالتي.

اعتـذرت خالتـي لأمـي أكـثر مـن مـرة لأنهـا لا تملـك لهـا جـوارب نظيفـة يمكنهـا أن تسـتبدلها بهـا بـدلًا مـن جوربهـا المبتـل.

قالت خالتي لأمي بوجهٍ صارم: "آنَ لكِ أن ترحلي".

"ولكنـي حـضرتُ للتَّـوِّ..." قالـت أمـي ذلـك، وفي حقيقيـة الأمـر هـي لم تَعـنِ ذلـك الـكلام.

"ولذلك أخبرتك بألَّا تحضري. أرجوك انصرفي".

قالـت خالتـي ذلـك الـكلام وعينهـا عـلى زوجهـا. رفَعَـت أمـي حقيبـة يدهـا ونهضـت وقـد سـاد الجـو غرابـة. اهتـزَّت الأرض مـن تحتهـم بشـكل عنيـف وكأن المنـزل يوشـك عـلى السـقوط، يبـدو وكأن شـاحنة قـد مـرَّت أسـفل منهـم. رأى الرجـل أمـي تلقـي تحيـة الانـصراف فـردَّ تحيتهـا بشـكل آلي، بينـما كانـت شـفتاه المبتسـمتان ترتعشـان.

"لا أستطيع أن أبتعد عن المنزل".

قالـت خالتـي ذلـك وهـي تخـرج مـن الغرفـة. لم تـدرِ أمـي مـاذا تقـول، فاكتفـت بالصمـت وهـي تحملـق في خالتـي، ثـم أشـارت لهـا التحيـة بيدهـا واسـتدارت ورحلـت.

" هيه أوك!".

نـادت خالتـي عـلى أمـي. كانـت واقفـة وقـد ضمَّـت كتفيهـا وهـي تضـع يدهـا بداخـل جيـب سروالهـا. شـعرها الـذي لم يُقَـصّ بعنايـة، وجسـدها المكتنـز بدرجـة أخفـت عنقهـا، وصوتهـا الأجـش. أختـي سـوون إيـه، أكرهـك. وأكـره منزلـك، وأكـره كل مـا يتعلَّـق بـك.

كانـت خالتـي تنظـر لأمـي وهـي عـلى هـذه الحـال، ثـم همسـت. همسـت بصـوت خافـت. أجابتهـا أمـي بأنهـا لا تسـمعها، وطلبـت منهـا أن تعيـد عليهـا الـكلام.

"لستُ دومًا على هذا الحال. لا أعيش في هذا الحال على الدوام".

أومأت أمي رأسها واستأنفت سيرها.

هيه أوك، اعتني بنفسِكِ.

كانت أمي تعي كلام خالتي، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعه، ثم شبكت ذراعيها وأكملت سيرها. لم تستَدِر خلفها ولو لمرة واحدة، ولكنها كانت متأكِّدةً أن خالتي لا زالت متسمِّرةً في مكانها حتى تغيب أمي عن النظر. هيه أوك اعتني بنفسك. قالت خالتي كلماتها تلك وكأنها تدفع بقارب رسا على الشاطئ تجاه البحيرة.

تمامًا كما تمنَّت جدتي، فقد انقطعت الصِّلَة بين أمي وخالتي للأبد. ولكن أمي كانت تذكر خالتي في بعض الأحيان. مثل الأوقات التي تحضِّر فيها العشاء وتراقب مشهد الغروب من نافذة المطبخ، أو حينما كانت ترى الأمهات اللاتي يحملن أطفالهن على ظهورهن ممَّن لم يبلغوا عامهم الأول. كانت تسرع في خطوتها إذا ما مرَّت صُدفةً بالمبنى المسيحي الكوري أو كاتدرائية ميونج دونج، وعلى الرغم من أنها فكَّرَت في الاتصال بخالتي أكثر من مرة، ولكنها لم تفعل ذلك مُطلَقًا. سجل الزمان خالتي كشخصٍ مَرَّ بحياة أمي ثم رحل، ومن جهتها فقد تقبَّلَت أمي هذه الحقيقة.

سبق لأمي أن سمعت بالقصة التي تقول إنه بعد الوفاة مباشرة، فإن روح الإنسان تذهب لرؤية الأشخاص الأعزاء البعيدين عنها. حينما أتت خالتي لتعيد أمي في غرفتها بالمشفى، وكانت تشبه ذاتها في السادسة عشرة من عمرها، كانت أمي تعلم أن خالتي قد سامحتها بالفعل منذ زمن طويل. كان وجه خالتي وهي تنظر لأمي به نفس الوِحدة والبريق الذي كان يكسوه حينما كانت تقرأ الخطابات الغرامية التي كانت تصلها من زوجها. وفي كل مرة لامَسَت نظرات أمي وجه خالتي كانت تتضاءل أكثر فأكثر، كصابونة تذوب في الماء.

"ازددتِ خِفَّـة يـا أختـاه" قالـت أمـي ذلـك لخالتـي التـي نحفـت وأصبحـت بحجـم كـفِّ اليـد.

"هيه أوك، تذكَّري...".

كلما صغر جسدها كلما ازداد صوت خالتي عُمقًا.

"لا يقدِر أحد على قتلنا".

قلَّـدَت أمـي شـكل شـفتي خالتـي المتحرِّكتـين وقـد صعـدت فـوق إحـدى تقسـيمات الغرفـة. لا يقـدر أحـدٌ عـلى قتلنـا. أومـأت خالتـي بالإيجـاب بعنقهـا الرفيـع ورأسـها الصغـير.

"لا تنسي هذا الأمر مُطلَقًا يا هيه أوك".

انسـابت أشِـعَّة الشـمس مـن النافـذة، فبَـدَت خالتـي في حجـم عقلـة الإصبـع، ثـم رحلـت فـوق الشـعاع الـذي حملهـا بعيـدًا. أخـذت أمـي تنظـر طويـلًا لشـعاع الشـمس النافـذ مـن النافـذة، ثـم لمسـت موضـع ركبتهـا اليمنـى تتحسَّـس الموضـع الـذي لمسـته يـد خالتـي. كانـت متأكِّـدةً أن مـا حـدث لم يكـن حُلـمًا. أيقظتنـي أمـي وقـد كنـت نائمًـا عـلى سريـر المُرافِـق بجانبهـا، وأخبرتنـي أن أختهـا التـي كانـت تعرفهـا مـن فـترة الطفولـة قـد زارتهـا في الغرفـة منـذ قليـل. كنـتُ متفاجِئًـا مـن ردَّة فعلهـا، ومـن ناحيـةٍ أخـرى انتابنـي القلـق مـن ذلـك الأمـر، ولم تكـن لـديَّ رغبـة في الاسـتماع للمزيـد، ولكنـي لم أملـك طريقـة لإيقـاف أمـي التـي انفجـرت بالـكلام.

رغـم أنهـا كانـت متأكِّـدةً أن كل مـا شـاهدته في ذلـك اليـوم كان حقيقيًّـا، فهـي لم تكـن واثقـة مـن ذلـك الشـعور الـذي انتابهـا مـن أن خالتـي قـد سـامحتها بالفعـل. كان ذلـك قبـل أن تـرى الصـورة التـي تركتهـا خالتـي ضمـن متعلِّقاتهـا بعـد وفاتهـا لفتاتـين ارتدتـا معطفـين جلديَّـيْن.

كانـت الفتـاة الأطـول تضـم الأخـرى التـي بـدت أصغرهـما مـن الخلـف. أمـا الفتـاة القصـيرة فكانـت ترتـدي فسـتانًا مُرقَّطًـا حاكتـه بنفسـها، بينـما

ارتـدت الفتـاة الطويلـة شـورت وقميصًـا ذا قَصَّـة عنـق واسـعة. وقفـت الفتاتـان أمـام حائـط صخـري مبتسـمتين في انـشراح، ولم يكـن لهـما ظـل. كان ذلـك في اليـوم الـذي ذهبتـا فيـه لاستكشـاف متحـف سـيؤول الوطنـي الـذي لم يعُـد لـه وجـود الآن. وُجِـدَت الصـورة، التـي لمعـت عنـد الأطـراف، بداخـل جيـب محفظـة جلديـة. لم تسـتطع أمـي أن تخـبر ابنـة خالتـي الكثـير حـين حـضرت الأخـيرة لتسـليمها المحفظـة. كل مـا فعلتـه هـو أن حملقـت في الصـورة وهمسـت بصـوت خافـت أختـي: "سـوون إيـه".

هـانـجي ويونـج جـو

أفكِّر فيكَ وأنا أشاهد انعكاس الضوء على النهر المتجمد.

مائة ليلة بيضاء.

الأضـواء تُسـكر النـاس ولكنهـا تُبقيهـم يقظـين كذلـك. وهـا أنـا أحلـم رغـم أن عينـيَّ مفتوحتـان. كأنـك تقـف أمـام هـذا النهـر الجليـدي. بينـما يشـعُّ جسـدك ضـوءًا أزرق تحـت أشـعَّة الشـمس.

وليـس معـي في عُزلتي هـذه إلا الضـوء، عقـدت عزمـي عـلى أن أنقِّـب في قلـب القـارة القطبيـة الجنوبيـة، وأن أستكشـف خمسـة وسـتين ألـف سـنة مـن الذكريـات المحفـورة في الجليـد. وأعلـم أنني لا أملـك القـوة ولا الشـجاعة لذلـك.

ورغم ذلك فأنا هنا بالفعل.

عندمـا سـمعت بقصـص القـارة المتجمِّـدة والليـالي البيضـاء والسـوداء، فكَّـرتُ حينهـا؛ إذ ربمـا لم تكـن في نـيروبي، بـل هنـا، في أرض الجليـد هـذه.

أنـتَ، واقِـفٌ مُتسـمِّر في مكانـكَ أمـام النهـر الجليـدي. وهـذه الرؤيـة عنـك، وحدهـا مـن قادتنـي لهـذه القـارة المتجمِّـدة.

أريد أن أسلِّمَكَ دفتر ملاحظاتي هذا.

كانـت أوروبـا في خضـم الحـرب العالميـة الثانيـة حينـما أقـدم شـابٌّ في الخامسـة والعشريـن عـلى بنـاء هـذا الديـر. كان قـد جـاب القـرى النائيـة في فرنسـا بحثًـا عـن موقـع لإقامـة الديـر، قبـل أن يصـل لقريـة صغـيرة مهدَّمـة بالقـرب مـن ليـون، قريـة رحـل عنهـا الشـباب ولم يبـق بهـا إلا العجائـز الذيـن كانـوا يكابـدون الوحـدة الناجمـة عـن الحـرب. وحينـما وصـل القريـة دعتـه سـيدة عجـوز قائلـة:

"شكرًا لقدومك لهذه القرية المهجورة".

لم يسـتطع أن ينـسى كلماتهـا، وعـاد للقريـة مـن جديـد وقـد اشـترى منـزلًا مهجـورًا وأقـام ديـرًا. أطلـق عـلى المـكان "ديـر"، إلَّا أنـه كان الراهـب الوحيـد بـه، وكان يعيـش عـلى مـا يحصـل عليـه مـن تربيـة نعجتـين.

كان رجـل مُهـذب يتسـم بالحيـاء، يسـلك حيـاة بسـيطة قوامهـا الصـلاة والكفـاح والراحـة. لم يكـن مؤمنًـا بوجـود إلـه منتقـم غيـور وغاضـب، كان يؤمـن بـأن الحـب هـو الـشيء الوحيـد الـذي يمنحـه الـرَّبُّ للبـشر. كان عنـده يقـين بحـب الـرب، رغـم علمـه بشـكل قاطـع بمـا اقترفـه الإنسـان بحـق أخيـه الإنسـان وقـت الحـرب. وفي ديـره كان يخفـي اليهـود الفارِّيـن مـن جرائـم النازيـة أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، وبعـد انتهـاء الحـرب كان يخفـي أسرى الحـرب مـن الألمـان.

كان مَـن يرغـب في السـكن معـه يحـضر لمنزلـه المتهالـك ويتعهَّـد لـه بنـذر الرَّهبنـة. كان الرجـل ذا خلفيـة بروتسـتانتية، إلا أن ذلـك لم يمنـع الوافديـن ممَّـن نَـذروا البقـاء تحـت خدمتـه في الديـر. وكان مـن

بين الذين خدموا في الدير قساوسةٌ كاثوليك، ومسيحيُّون روس من الطائفة الكاثوليكية، ومسيحيون يونانيون من نفس الطائفة، وكذلك من الطائفة الإنجيلية. كان الرجال بمختلف طوائفهم يصلُّون ثلاث مرَّات يوميًّا، بمصاحبة أناشيد قصيرة ومتكررة ينشدونها في الكنيسة الأورثذوكسية الروسية، ومن بينهم من كان يؤلِّف أناشيد جديدة كل عام مَمن قد درس الموسيقى. وقد تشابَهَت الأناشيد فيما بينها. بعض الأغنيات كُتبت باللاتينية وبعضها بالألمانية، والفرنسية والروسية والبولندية. تلك الأناشيد مع عشر دقائق من الصمت شكَّلَت روتين صلواتهم الثلاث اليومية. في الصباح كان الأساقفة يقرؤون من الكتاب المقدس، أو يتأملون في صمت، أو يتناولون القربان المقدس. لم يقبلوا عطايا أو هِباتٍ من أي نوع، وعوضًا عن ذلك كانوا يجمعون التبرعات التي يحتاجها الدير من خلال تأليف الكتب وصنع الآنية الفخارية.

وكانت هناك قاعدة عامة، وهي أنهم لا يردُّون الزائرين، فكل مَن تمنَّى زيارة المكان للصلاة أو العمل كان مُرحَّبًا به للبقاء. كان الكثير من الأوروبيين يَفِدون للدير من جميع أنحاء أوروبا في فصل الصيف. حتى إن العدد قد بلغ أربعة آلاف في بعض الأسابيع. بينما كان من الصعب على الأساقفة المائة استقبال كل تلك الأعداد، ومع زيادة أعداد الزوار، بدأ المقيمون منهم إقامةً أطول يساعدون الأساقفة على ضيافة الزوار الأحدث. ذلك الدير الذي بدأ مهجورًا أصبح الآن مزارًا سياحيًّا ومَقصِدًا لما يزيد عن مائة ألف سائح سنويًّا.

في بادئ الأمر كان أغلب المتطوعين من الأوروبيين، وكانوا يقيمون في الدير لمدة تتراوح بين شهر وقد تصل لعامين. وفي نهاية الأمر بدأ الدير يدعو المتطوعين، ويتكفَّل بتذاكر الطيران لعشرين من الدول النامية ممَّن منعتهم ظروفهم، سواء المادية أو بُعد مسافة السفر من دولهم لفرنسا. وحينما كان الدير مزدحمًا بالزوار في موسم الصيف كانت تتم دعوة زوج من المتطوِّعين من دُوَلٍ من كافة أنحاء إفريقيا

أو آسيا أو أمريكا اللاتينية؛ للإقامة والعمل والصلاة في الدير لمدة ثلاثة أشهر فترة الصيف.

ولا أعلم حتى الآن لماذا أقمت هناك كل تلك الفترة.

سبعة أشهر على وجه التحديد، بينما كانت نيتي في بادئ الأمر أن أبقى لمدة أسبوع واحد فقط. المرة الأولى التي أدركت فيها بأنني لا أرغب في ترك الدير كانت بعد أسبوع، بعد أول صلاة جماعية لي في الدير. كنت في منتصف رحلة لمدة أسبوعين في فرنسا. وقد ساعدني الدير في الحصول على تأشيرة الدخول، ثم تمكَّنتُ من الحصول على عطلة دراسية من الجامعة.

كنت في السابعة والعشرين من عمري حينها.

وبذلك كنت أكبرَ النساء المتطوِّعات في الدير، حين كان الدير يختار من المتطوِّعين للإقامة الطويلة ممَّن تتراوح أعمارهن بين التاسعة عشرة وأقل من ثلاثين عامًا. كانت معظمهن ممَّن بلغت أعمارهن الرابعة أو الخامسة والعشرين من حديثات التَّخرُّج، ممَّن يحاولن استكشاف سُبلهن في الحياة. كنت أُقابَل بصمتٍ حينما أخبر الجميع أنني في السابعة والعشرين. حتى أبواي وأختي، التي رُزِقَت حديثا بطفل قبيل سفري مباشرة. وقد تركت من خلفي أستاذي المشرف على رسالتي وزملائي بالمعمل جميعهم يُظهرون لي ردَّة الفعل ذاتها. فترة العشرينات، والتي يتحتم معها جدية السعي أكثر من أي فترة أخرى في العمر، وتلك الشراسة كانت تعني السعيَ الجادَّ لبناء حياة مهنية ثابتة وآمِنة، والأمر في المجمل مسألة حياة أو موت.

قالت لي أختي: "أنت لا تعلمين أي خطأ تقترفين في حق نفسك! هذا إهدار لحياتك. لو قضيت فترة العشرينات من عمرك على هذا النحو واستمررت على فعل ما يحلو لك فسينتهي بك الأمر كأمِّكِ وأبيك اللذين عاشا عمرهما دون تملُّك منزل. حتى ولو عملت عند

أحدهم طيلة حياتك حتى يصبح شكل كفيك كقدميك، فحتى حينها لن تتمكّني من ادّخار ولو قرش واحد لزفاف أولادك. ظننت في بادئ الأمر أن لديك هدفًا وخطة حينما أخبرتِني برغبتك في الالتحاق بالدراسات العليا، وأن تصبحي أستاذة جامعية. وإلا فلماذا استثمرت أموالك ووقتك في الأمر؟ ماذا سيظن أستاذك وزملاؤك الآن؟ أنت فعلًا لا تعلمين شيئًا عن الحياة. على الأقل فإن لم تملكي مُدخّرات فحريٌّ بك أن تحصلي على شهادة جامعية. استمري على هذا الحال من التراخي وسترين ما يحل بكِ. سينتهي بك الأمر وأنت نَكِرة. ستعيشين حياة صعبة لدرجة لا تستطيعين معها أن تضمّي طفلك الذي خرج من أحشائك لانشغالك بتوفير لقمة العيش".

كنت أتّفِق مع ما قالته أختي. كان صوتها الممزوج بالغضب والخوف الذي كان سيدي لفترة طويلة. هذا الخوف الذي لازمني طوال فترة الطفولة وربّاني لأصبح هذه البالغة التي تبدو في ظاهرها وكأنها لا تأخذ حيطتها. هذا الخوف حثّني لكي لا أكون ما أنا عليه، لكي لا أتوقّف عن التطور لأصبح شخصًا أفضل. وإن لم أتغير، وإن لم أتطور، فسأُمحى من هذا العالم.

ورغم ذلك اخترت البقاء هناك.

حبيبي كان صامتًا.

في آخر مكالمة لنا حينما أخبرته رغبتي في الإقامة بالدير وأنني لا زِلتُ غير متأكدة من مدة إقامتي، حينها زفر زفرة قصيرة ثم قال: "حسنًا". وكان هذا كل شيء. أغلق الخط قبل أن أتمكن من الاعتذار له.

لقد لجأنا لجميع الوسائل -عدا الشجار- لتحمُّل بعضنا البعض. لم تكن لدينا حتى الرغبة في التنفيس عن مشاعرنا أو التعبير بالإساءة اللفظية تجاه بعضنا البعض لنختبر ردّة فعل الآخر. الشجار يلزمه

على الأقل ذَرَّة من العاطفة. لم أكرهه ولم يكرهني. لم تجرحني كلماته ولا أفعاله. ولم تجرحه أفعالي ولا كلماتي كذلك، أو هذا ما ظننته. لم نكن نعرف كيف نكون سيئين تجاه بعضنا البعض. ولكن بنظرة للماضي، وكان أسوأ ما في الأمر جهلنا بكيف نكون سيئين تجاه بعضنا البعض.

كان كلٌّ منَّا يغمض عين الآخر بطريقة مؤدَّبة. وفي النهاية كنتُ أنا أوَّل مَن أزاح يده عن عين الآخر، ثم افترقنا في هدوء. وهذا الوداع أثبت أنه لم يبقَ بيننا أي ذَرَّة حب؛ لأن اللحظات الأخيرة بين المحبِّين لا تنتهي بهذه الطريقة السَّلِسة. انتقلنا ببساطة من نقطة لغيرها.

تلقَّيتُ منه رسالة هاتفية بعد مرور أربعة أسابيع على مكالمتنا الأخيرة.

"شكرًا لأنَّكِ سمحت لي أن أواعِدَكِ طوال تلك الثلاث سنوات الماضية. آسف، لكن علينا أن نتوقف الآن عن رؤية بعضنا البعض".

كان دومًا يستخدم لفظ "سمَحتِ لي بمواعدتك". الجملة أربكتني، جعلتني أشعر ببعض الاحتقار تجاهه، والأكثر من ذلك أنها جعلتني أظن أنه مضمون. وعلى الأغلب كان سيستعمل تلك الجملة مع أي فتاة يواعدها وليس أنا فحسب. كان يُقلِّل من نفسه على الدوام، وكان قاسيًا على ذاته، بخيلًا معها، ولم يكن الأمر من باب التواضع.

كنتُ أول حبيبة له، وكان حينها في السابعة والعشرين من عمره.

"لم يسبق أن أبدت أي فتاة اهتمامها بي. مواعدة الفتيات كانت أمرًا مُمكِنًا في أحلامي فقط".

لم يكن وسيمًا بشكل استثنائي، كان مقبولًا من النظرة الأولى. وكان كثير الاطِّلاع، ويجيد عزف البيانو، وكان بارعًا في التقبيل كذلك. ورغم ذلك كان مقتنعًا في قرارة نفسه أنه ليس أهلًا لتلقِّي الحب والاهتمام. لم يجرؤ على البوح بتلك الأفكار بصوتٍ عالٍ، ولكنه أرسل

رسالات مشابهة من خلال لغته وتصرُّفاته على مدار الثلاث سنوات التي تَواعَدنا فيها، وفي النهاية تغيَّرَت أفكاري تجاهه؛ تأثُّرًا بمعتقداته عن نفسه. كيف كان ذلك ممكِنًا؟

في وقت ما شعرت تجاهه بعاطفة أكثر ممَّا شعرته لاحقًا تجاه هانجي. ولكن تلك العاطفة تبخَّرَت عند نقطةٍ ما حينما بدا الرجل الماثل أمامي كدمية ورقية كبيرة. وذلك الحُزن أكبر من الحُزن الناجم عن حُبٍّ مفطور.

كيف حدث ذلك؟

كان لديَّ الكثير لأخبره به، ولكني عدَلتُ عن الأمر. وبكل بساطة، أرسلت له رسالة هاتفية أعتذر له عن مغادرة كوريا دون استشارته، كما شكرته على الوقت الذي قضيناه سويًّا. كان انفصالًا غير مُبالٍ، رغم أنني أذكر بكائي الذي عجزت عن تفسيره.

كانت قد مرَّت أربعة أشهر على إقامتي بالدير حين ذهبت لاصطحاب هانجي وكارو القادمين من كينيا. ونظرًا لأن القليل فقط من المتطوِّعين مَن يعرفون قيادة السيارة أو على علم بالمنطقة؛ فقد وُكِّلَت بي مَهمَّة استقبال المتطوِّعين الجدد مع ثيو. كان ذلك في شهر يونيو الشهر المُزدحم بوصول الكثير من المتطوِّعين لمطار مدينة ليون. استقبلت حتى الآن متطوعين من المكسيك، ومدغشقر وڤيتنام. كانت مَهمَّةً ممتعة. كم شعرت بالتَّحرُّر لقيادة سيارة قديمة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية في الخارج.

تحوَّلَت أنظاري بسهولة شديدة تجاه هانجي في اللحظة التي ظهر فيها عند بوابة الوصول. لم أرَ قبل ذلك أو بعده رجلًا في سواد لون بشرته. أوحى لي منظره برجل مرسوم على لوحة زيتية. كانت بشرته ذات بريق أسود خالص. وقد ارتدى سروالًا طويلًا من القماش، مع حذاء جلدي، رغم حرارة الجو. اقترب منَّا وعلى وجهه ابتسامة كبيرة

وكأنـه التقـى بأصدقائـه الذيـن لم يلقهـم منـذ زمـن بعيـد. وكانـت الفتـاة التـي تمـشي بجـواره تُدعـى كارو. تعانقنـا جميعًـا، ثـم بدأنـا الحديـث سـويًا. تحـدث هانجـي وثيـو وكارو الفرنسـية بسرعـة بالغـة. حملـت حقيبـة ظهـر كارو الصغـيرة ثـم جلسـت في المقعـد الأمامـي.

سـألتني كارو: "هـل تتحدثـين الفرنسـية؟" فأجبتهـا بالإنجليزيـة أننـي لا أتحدثهـا. "ولا تفهمينهـا حتـى؟" أومـأت رأسي بالإيجـاب. اسـتدارت كارو تجـاه ثيـو وهانجـي وبـدأت تتحـدث بالإنجليزيـة. "فلنتحـدث بالإنجليزية. يونـج جـو قالـت إنهـا لا تتحـدث الفرنسـية". اعتـذر ثيـو أنـه كان يتحـدث الفرنسـية، وأنـه غفـل بغـير قصـد عـن أني لا أتحدثهـا.

كان الجـو صافيًـا، وكانـت سـيارتنا القديمـة المتهالكـة تُصـدِر أصواتًـا، وكان ثلاثتهـم -عـداي- مندمجـين في الحديـث بطريقـة عجيبـة، فتراهـم مسـتمتعين بالحـوار وهـم يتحدثـون بالفرنسـية، ثـم مـا يلبثـون أن ينتبهـوا لوجـودي فيبدِّلـوا لغتهـم للإنجليزيـة، وفي النهايـة يعـودون للحديـث بالفرنسـية مـن جديـد. اكتفيـت بالقيـادة في صمـتٍ؛ ظنًّـا منـي أني لـو طلبـت منهـم تغيـير لغـة الحـوار للإنجليزيـة لبـدا الأمـر مثـيرًا للشـفقة. شـعرت بالعُزلـة. وكنـوع مـن الرفـض لتقبُّـل الفكـرة؛ أدرت مذيـاع السـيارة وثبَّـتُّ عينـي عـلى الطريـق.

كان ينتظرنـا أخٌ مـن كينيـا بالديـر. ابتسـم هانجـي وكارو ابتسـامة واسـعة كالتـي اسـتقبلانا بهـا في المطـار، ثـم أسرعـا في عنـاق الأخ الكينـي. وبعدهـا توجَّـه ثلاثتهـم للمائـدة التـي أُعِـدَّت مسـبقًا. ألقيـت عليهـم التحيـة وهممـت بالانـصراف، فـإذا بهانجـي يقـول لي: "يونـج جـو، شـكرًا لـك" وهـو ينظـر لي بثبـات، أجبتـه قائلـة: "ألقـاك فيـما بعـد"، ثـم خرجـت، فـإذا بأمطـار كثيفـة.

حينـما وصلـت في البدايـة كان هنـاك عـشرون متطوِّعًـا مـن المقيمـين إقامـة طويلـة في الديـر، ولكـن هـذا الرقـم وثـب لأربعـين متطوِّعًـا مـع

وصول هانجي؛ ثلاثون فتاة وعشرة رجال. تشارَكَت الفتيات في مبنى بداخل الدير مُكوَّن من طابقين، حيث تشارَكَت كل أربع فتيات في غرفة واحدة، وكان في الطابق الثاني مكان لتناول الطعام، ومكان مشترك للجلوس. وعلى الجانب الآخر أقام الرجال في منزل عتيق منفصل عن الدير يقع في مواجهة باب الدير الرئيسي، وفي مواجهة ذلك البيت شجرة زيزفون ضخمة كانت زهورها تبعث في الأمسيات رائحة خلَّابة. كنَّا نطلق على الرجال المقيمين بذلك المنزل "تيّل بويز"؛ لأنهم يسكنون بجاور شجرة الزيزفون. كان "التيّل بويز" يلقون عليَّ التحية في خجل كلما مررت من أمام مقر إقامتهم.

كان يتم توزيع المهام على كلٍّ واحد منَّا في صباح يوم السبت من كل أسبوع. كانت لدينا مهام صباحية، ومنتصف اليوم، ومسائية؛ بما يُشكِّل حوالي ست ساعات من العمل اليومي. كانت مهامٌ مثل الطهي في المطبخ الكبير، أو تثبيت الخيم للزائرين، والتنظيف، وغسل الصحون، والترحيب بالزائرين، وتنظيف الدير، ولمن يملكون رخصة قيادة كان عليهم قيادة الشاحنة أو السيارة العتيقة، التي كنت أتعجَّب أن محركاتها كانت لا تزال تعمل.

كنا نصلي الصلوات الجماعية ثلاث مرات يوميًّا. كانت صلواتنا تبدأ حينما يجلس الرهبان في منتصف مبنى الكنيسة. وكانت الكنيسة، مكان تجمُّعنا، بدائيَّةً بعض الشيء، كقاعة اجتماعات لكن بلا مقاعد؛ لذا كنا نجلس ونصلي فوق سجاد قديم متهالك فُرِشَ على الأرض. جلس المتطوعون، من ذوي الإقامة الطويلة، في أماكنهم المخصَّصة خلف الرهبان مباشرة. ظهر هانجي يوم وصوله مباشرة لحضور الصلاة المسائية. جلس في الجانب الأيمن عند نهاية صفي. بدا مرتاحًا في قميصه الأزرق ذي الياقة المستديرة والشورت. كنت قد أنهيت للتَّوِّ غسل الصحون، فخلعت حذائي ذا الرقبة الطويلة وجلست حافية القدمين على الأرض، وبدأت أحسُّ بالنعاس وثِقل عنقي. وبعد أن

رحـل جميـع الأخـوة مـن المـكان بقـي فقـط مَـن يرغـب في غنـاء التراتيـل، ثـم بـدؤوا يغنُّـون سـويًا. وكنـت لا زلـت أشـعر بالنعـاس، وبـدأ جسـدي يميـل في اتجـاه واحـد.

"يونج جو".

كان ذلـك هانجـي الـذي أصبـح بجانبـي بعـد أن كان عـلى مسـافة منـي. جميـع المتطوعـين الذيـن كانـوا برفقتـه قـد غـادروا المـكان. كان ينظـر لوجهـي وهـو يرفـع ويضـع حـذائي عـن الأرض بشـكل متكـرر.

وكانـت تلـك المرة الأولى التـي أشـاهد فيهـا وجهه عـن كثـب، كان وجهًا خاليًـا مـن التجاعيـد، مـع بـشرة لامعـة وعينـين واسـعتين كعينـي الأطفـال. وكانـت أسـنانه سـاطعة البيـاض، بينـما كُسِرَ نصـف سِـنّه الأماميـة، وعنقـه الطويـل كان ممتـدًا مـن ياقـة قميصـه، أمـا رائحتـه فكانـت مثـل العشـب في فصـل الصيـف.

سألني هانجي:

"أمُتعَبَة أنتِ؟".

"ومـاذا عنـكَ؟ ألسـتَ مُتعَبًـا؟ لقـد قطعـت كل هـذه المسـافة سـفرًا مـن إفريقيـا".

"كلَّا، لا أشـعر بـأي تعـب. بالمناسـبة، هـلَّا أرشـدتني لمـكان المتجـر؟ نسـيت إحضـار فرشـاة أسـناني".

أدخلـت قدمـيَّ في حـذائي ثـم خرجـت مـن الكنيسـة، وفي مواجهتهـا، وقـف مجموعـة مـن المتطوِّعـين مـن ذوي الإقامـة الطويلـة مـن أمركيـا اللاتينيـة يسـتندون إلى الحائـط ويتسـامرون في حميميَّـة، خاطبهـم هانجـي بالإسـبانية وعـلى وجهـه ابتسـامة مشرقـة، وكأنـه كان يعرفهـم طيلـة حياته.

"يونج جو، هل غضبت في السيارة منذ قليل؟".

"كلَّا".

"أعتقد أنك كنت غضبى لأننا كنَّا نتحدث بالفرنسية فقط".

"هـذا غير صحيـح، كل مـا في الأمـر أن لـديَّ الكثـير مـن الأمـور لأنجزها هـذه الفـترة. هـل رأيـت؟ أنـا لا أجيـد التحـدث بالإنجليزيـة كذلك".

حرّك هانجي رأسه نافيًا، ثم قال:

"كلَّا، أنا أتفهَّمكِ تمامًا". ويقصد بذلك: "أنا أفهم كل ما تقولين".

"يونـج جـو، هـل أخـبرك بـشيء؟ هـذه المـرة الأولى التـي أسـافر فيهـا لدولـة أجنبيـة، والمـرة الأولى التـي أقابـل فيهـا شـخصًا مـن كوريـا. أنـتِ أوَّل كوريـة بالنسـبة لي يـا يونـج جـو".

"ألم يسبق لك أن رأيت أشخاصًا من آسيا؟".

"بـلى، سـبق لي أن رأيـت أشـخاصًا مـن الصـين يتجوَّلـون في شـوارع نـيروبي، ولكنهـا المـرة الأولى التـي أتحـدث فيهـا مـع أحدهـم. الأمـر مدهش ومُمتـع في ذات الوقـت يـا يونـج جـو".

رُصَّـت عـدد مـن الطـاولات المرتفعـة أمـام المتجـر، بينـما كان الزبائـن يقفـون أمامهـا ويأكلـون رقائـق الشـيبس ويشربـون الكـولا. بـدا وجـه هانجـي غـير مألـوف لي أكـثر حينـما رأيتـه تحـت ضـوء مصبـاح الرقعـة الخاويـة أمـام المتجـر. لم يسـبق لي أن قابلـت أحـدًا يشـبهه، وفي الغالـب كان وجهـي غـير مألـوف بالنسـبة لـه كذلـك.

سألني:

"ماذا تعملين؟".

"أنا طالبة دراسات عليا بقسم الچيولوچيا".

"چيولوچيا؟".

"أدرس جسـم الأرض؛ الجيولوچيون يقيسون عُمر الأرض، ويبحثون عـن الكائنات الحية التي كانت تسكنها، يتنبَّؤون بالثورات البركانية والهزَّات الأرضية، كما أنهم يدرسون الصخور والجبال الجليدية".

"وماذا تدرسين من بين كل ذلك؟".

"أدرس المناخ الذي كان سائدًا في الماضي. أجريتُ دراسة حديثة حول المناخ الخاص بشرق آسيا في الألفي سنة الماضية".

"كيف ذلك؟".

"من خلال تحليل الصواعد الموجودة في الكهوف".

"ما هي الصواعد؟".

قلت له وأنا أشير لمثلّجاتي:

"القرون اللَّزِجة التي تنمو في الكهوف".

"نعم، أعلم ما هذه". ضحك هانجي، ثم قال: "بالمناسبة، هل أتيت هنا بعد أن تلقَّيتِ دعوة؟".

"كلَّا، في بداية الأمر كنت قد عزمت أمري للمكوث لمدة أسبوع واحد فقط، ثم صار الأسبوع أسبوعين، والأسبوعان ثلاثة أسابيع. أنا لا أعلم حتى كم سأمكث هنا. قدَّمتُ على إجازة من الجامعة، وليس لديَّ أي خطط. أنا في السابعة والعشرين من عمري، وأعلم أنني لا ينبغي لي أن أعيش على هذا النحو وأفعل ما أفعل هنا".

سألني هانجي: "لماذا؟".

"الهروب ليس بالفكرة الصائبة. عليَّ أن أتحمَّل مسؤولية حياتي".

قال هانجي:

"لا بأس يا يونج جو".

قراري في البقاء هنا بشكل اندفاعي؛ التَّخلِّي عن مسؤولياتي، الإقامة في الدير... كل ذلك لا بأس فيه.

بدا وجهه أكثر إشراقًا وهو يقول لي ذلك الكلام. لم يسبق لي من قبل أن رأيت انطباع وجهه في أي مكان. لم يكن وجهَ شخصٍ يريد طمأنتي، ولا أن يقول جُمَلًا متوقَّعة تُقال في مثل تلك المواقف. ولم يكن حتى وجهَ البالغين الذين يمتنعون حتى عن الابتسام مراعاةً لمشاعر الطرف الآخر. كان وجه هانجي مسترخيًا، في بساطة وتلقائية.

حينما انضممت للمرة الأولى للمجتمع الضيق للدراسات العليا، سمعت الكثير من النصائح بشأن ضرورة الحذر من الناس، ويبدو أن قِلَّة حرصي في التعامل مع الناس في جامعتي كان أمرًا طفوليًّا؛ حيث يجب على النساء بشكل خاص الاهتمام بصورتهن الشخصية، والسبب يعُزى لأنه إذا بدأ فتيل الشائعات يطال إحداهن، فذلك معناه أنها فقدت مستقبلها المهني، وذلك الكلام كان يُردَّد على مسامعي بكثرة كتناول الوجبات.

وكنت مؤمنة أنني قد التزمت بتلك القاعدة بشكل ممتاز. كنت أحضر المحاضرات والرحلات العلمية بشكل منتظم، كما أحضر الجلسات التي أعقبت اليوم الدراسي، وأشارك في الضحك والثرثرة، ورغم ذلك فقد كنت أبكي في طريق عودتي للمنزل دون سبب.

وجهي، وخطوط التجاعيد المرسومة على جبهتي. أبتسم في صوري الفتوغرافية، فأجد جانبًا من شفتي يبدو أعلى على الدوام مقارنةً بالجانب الآخر وأنا أبتسم؛ ممَّا جعل وجهي يبدو مائلًا بأكمله. كنت أضحك فحسب، ولكن شكل وجهي كان أقربَ للعبوس منه للتلقائية. ومنذ أدركت هذه الحقيقة حتى بدأت أتحاشى النظر في أعين الآخرين.

ولكـن في ذلـك اليـوم، لم أتحـاشَ النظـر في عينَـيْ هانجـي، ورغـم ذلـك لم أدرك أننـي لم أتحـاشَ النظـر في عينيـه.

قـال هانجـي إنـه كان يعمـل طبيبًـا بيطريًّـا في نـيروبي، يعالـج الأبقـار والنعـاج في المـزارع، وحـين كان يـدرس الطـب البيطـري، كان قـد اشـترك في مـشروعٍ تطوُّعـي لرعايـة زوج مـن وحيـد القـرن اليتيمـين، وذلـك لمـدة تسـعة أشـهر قبـل إرسـالهما للحيـاة البرِّيَّـة.

"كان اسـمهما هـاوي وجلوريـا. كنَّـا نطعمهـما لتريـن مـن الحليـب المجفَّـف الممـزوج بالمـاء في كل وجبـة. وحفرنـا لهـما حفـرة في الأرض وملأناهـا بالمـاء لنصنـع لهـما حمَّامًـا طينيًّـا. كانـا يعرفـان كيـف يسـتحمَّان فيـه، حتـى ولـو لم يتعلَّـما الأمـر مـن قبـل. كـبرا وهـما متعلِّقـان بي. كانـا يتبعانني كظلِّي أينـما ذهبـت، وينظـران لي بوداعـة، ويعطيانني إشـارات بأنهـما يثقـان بي كليًّـا. حتـى اقـترب اليـوم الـذي أتممنـا فيـه عمليـة تأهيلهـما للعـودة لحياتهـما البريـة، يومهـا لم أملـك الشـجاعة لأنظـر لوجهيهـما، شـعرت كأننـي أخـون الرضيعـين اللذيـن وثقـا بي وأحبَّـاني لدرجـة كبـيرة. أليـس مـن المحـزن التَّعرُّض للخيانـة؟ وعـلى الجانـب الآخـر كنـت قَلِقًـا عليهـما مـن أنهـما قـد يتعرَّضـان للمـوت. صحيـح أنهـما تلقَّيـا تدريبًـا تأهيليًّـا للعـودة للحيـاة البرِّيَّـة، ولكنهـما سـيظلان في المؤخـرة دائمًـا مقارنـة بأقرانهـما مـن الحيوانـات البرِّيَّـة. أقمنـا لهـما حفلـة في آخـر يـوم مـن التدريـب، تبادلنـا فيهـا جميعًـا كلـمات التشـجيع؛ لأننـا أحسـنَّا رعايـة الرضيعـين. ذكـر هـذه الحكايـة يدفعنـي للبـكاء".

احمرَّت عينا هانجي.

"لم أكـن أصـدق أننـي سـأفترق عنهـما، شـعرت وكأننـي أقـترف أمـرًا مُريعًـا، حتـى إنني قلـت بأنني لا أعلـم إن كنـت أفعـل الصـواب أم لا. حينهـا قـال لي متطـوِّعٌ آخـر، هـذا مـا نظنـه نحـن، لا يجـب أن نحرمهـما مـن سـعادتهما بسـبب إسـقاط وجهـة نظرنـا البشريـة عليهـما، وأن علينـا

التفريق بين الحب والتعلق، وأن رغبتي في إبقاء حيوانات برِّيَّة بجانبي ليست حبًّا. وفي يوم وداعهما، وضعنا الرضيعين في قفص وقُدنا السيارة لنقطة بعيدة لإطلاق سراحهما. كنت أستدير للخلف لأتفقَّدهما، فأجدهما لا يفعلان شيئًا سوى النظر تجاهي. قلت لهما أن يكُفَّا عن النظر نحوي ويتابعا مسيرهما. ولكنهما لم يتوقَّفا عن الالتفات نحوي. كانا يتقدمان للأمام وهما ينظران خلفهما تجاهي. مشيا ببطء ونحن خلفهما حتى توغَّلَا في السهل العشبي".

أغلق المتجر أبوابه بينما كنا نتبادل الحديث، وقد بقي بعض من الناس رغم الظلام.

"لا زلتُ أفكِّر في هاوي وجلوريا. يصعُب عليَّ فهم مشاعر وحيد القرن لأنني بشر، ولكنني أحاول جاهدًا أن أتخيَّل إحساسهما تجاه السهول والغابات. بالطبع سيكون مكانًا أفضل بكثير من موقع التأهيل الضيق، أليس كذلك؟".

حكى لي هانجي كذلك عن الحيوانات التي عالجها. بين مَن عاشت منهم رغم انعدام الأمل في نجاتها، وأخرى ماتت بعد أن ساءت صحتها، رغم أن شفاءها لم يكن بالأمر الصعب. وفي كل مرة كان يشعر بتأنيب الضمير من أنه ربما يكون هو السبب في قتل تلك الحيوانات التي كان من الممكن إنقاذها. وحتى الآن لا يزال يراوده نفس الهاجس، إلا أنه عزم على بذل أقصى جهده، وأنه الآن في مرحلة تقبُّل فكرة أن ذلك الجهد لا يضمن بالضرورة الحصول على النتائج الإيجابية المرجوَّة في كل مرة.

قُلت له:

"أنا أيضًا أحب الحيوانات، ولكني لم أحلم حتى بدراسة الطب البيطري خشية أن أرى حيوانًا يتألم. لم تكن لديَّ الشجاعة لرؤية حيوان يحتضر".

قال هانجي: "أتفهَّمكِ".

لم يبق في الساحة الخارجية أمام المتجر سوانا.

وبعـد ذلـك اليـوم لم أتمكَّـن مـن تبـادل الحديـث مـع هانجـي لفـترة مـن الزمـن.

كنـت ألقـاه في الكنيسـة ثـلاث مـرات يوميًّـا في أوقـات الصـلاة، ولكننـا كنـا نجلـس متباعِدَيْـن عـن بعضنـا البعـض، ولم نكـن نتبـادل سـوى تحيـة بالنظـرات فقـط. أصبـح هانجـي قريبًـا مـن الرجـال المتطوعـين، وكان يرافقهـم في كل مـكان. هانجـي، مرحبًـا. كنـتُ كلَّـما ألقيـتُ عليـه التحيـة كان الرجـال الذيـن يرافقونـه يبـدؤون معـي الـكلام.

كنـت أنقـل الخيـام والمـلاءات بالسـيارة أو أنظـف منـزل الضيـوف مـكان إقامـة أُسَر القساوسـة، بينـما كان هانجـي يعمـل عـلى الـدوام في المطبـخ الكبـير. كان يصنـع البطاطـا المهروسـة، ويمـزج الـكاكاو ومسـحوق الشـاي في إنـاء كبـير مـليء بالمـاء، ثـم يحملهـما إلى محطـة التوزيـع. كنـت أراقبـه مـن عـلى بُعـد مسـافة وهـو يوصـل الطعـام. وحينـما علمـت أن بإمـكاني رؤيتـه مـن موقـع أقـرب عنـد المخـزن، بـدأت أتمـشَّى قـرب ذلـك المـكان قبيـل موعـد الصـلاة الصباحيـة.

كان يعمـل بجـدٍّ دون تـراخٍ. ينقـل أكيـاس الخيـش ويصـبُّ المـاء عـلى الأرضيـات وينظفهـا بالفرشـاة، كـما كان ينظِّـم محطـة التوزيـع. كان يُركِّـز في عملـه كلِّيًّـا وهـو يقـوم بتلـك الأعـمال. كنـت أحـب رؤيتـه وهـو يعمـل، ولكنـي أعتقـد وأنـا أكتـب هـذا أنـه كان عـلى عِلـمٍ بأننـي كنـت أحـوم حولـه في تلـك الأوقـات. كنـت أتجشـم العنـاء لرؤيتـه، حتـى إننـي كنـت أضـم يـدي كمظلـة لأحمـي عينـي مـن الشـمس؛ فقـط لمتابعتـه وهـو يعمـل. كانـت بشرتـه الداكنـة تتوهَّـج تحـت أشـعة الشـمس باللـون الأزرق كمعـدن غامـض.

كنَّا نعقد جلسة لتَدارُس الإنجيل مرتين أسبوعيًّا.

كانت الجلسة غالبًا ما تُعقد في مكان متاح فقط للرهبان، في منزل صغير مجاور للكنيسة الرئيسية. وأمام المنزل اصطفَّت زهور الداليا واللاقندر.

ناقش في الجلسة التحليل الداخلي لنصّ الإنجيل ذاته من جهة، ومن جهة أخرى تحليل خارجي يشتمل على السياق التاريخي الذي كُتب فيه الكتاب المقدس. وضَّح لنا أحد الرهبان كيف أن كتابة الإنجيل قد تأثَّرت بالمعتقدات والثقافة الخاصة بالكُتَّاب في زمانهم، وبعدها بدأ المتطوّعون في إلقاء الأسئلة عليه وهم يقرؤون النَّصّ بشكل ناقد.

قال أحد الرهبان:

"من المثير للفضول أن الإنجيل لا يقدِّم أي تفاصيل حول الحياة بعد الموت. ولكن ما نعلمه على وجه اليقين أن الأرواح لا تموت، وأنها تبقى مستمرَّةً، ولكن في هيئة أخرى مختلفة عن هيئتها الحالية. وبعد الموت، لا تتأثر الروح بالقيود التي يمثلها الجسد المادي ولذا لن يكون من قبيل المبالغة لو قلنا إن مَن لم يجرِّب الموت بعدُ لا يعرف أي شيء عن الحياة بعد الموت".

سألت كارو: "ولكن ألم يذكر الإنجيل الجنة والنار؟".

أجابها الراهب قائلًا: "الإنجيل يُصرِّح بالجنة، ولكنه لم يَصِفها بشكل تفصيلي. وبصراحة، فهذا مكان ليس بإمكاننا تخيُّله أو إدراكه ونحن في موقعنا هذا".

سألت كارو من جديد: "أتفق معك أن وعي الإنسان محدود. ولكني أشكُّ في أمر التَّخيُّل. هل يوجد مكان لا يمكن للإنسان تخيُّله؟ هل للخيال حدود؟".

قال الراهب:

"لا يمكنني أن أجزم، ولكن مهما بلغنا من التَّخيُّل، فالجَنَّة ستفوق تخيُّلَنا هذا لا محالة؛ ففي الجنة لا وجود لعنصُرَيْ الزمان والمكان، وهنا يمكن أن نقول بأن الجنة هي هيئة الروح".

قُرعت الأجراس إيذانًا ببدء الصلاة المسائية؛ فتوقَّفت الجلسة عند هذا الحد. اتَّضح لي أثناء الصلاة المسائية أنه لم يسبق لي أن فكَّرتُ في الحياة بعد الموت. طَغَت عليَّ فكرة الأبدية. كانت فكرة الأبدية خانقة، أبدية في الجنة أو الجحيم.

أن لا تكون هناك نهاية.

أنهينا صلاتنا المسائية، وفي طريق عودتنا لأماكن المبيت سألتُ كارو:

"ما رأيك حول النتيجة النهائية للجلسة بأن الجنة هي هيئة الروح التي تفوق تخيُّلاتنا".

صمتت كارو قليلًا، ثم قالت:

"لا أعلم".

"ما هي أفكارك حول ذلك المكان الذي يُطلَق عليه الجنة؟".

قالت لي كارو: "لا أعلم، ولكني أظن أن هذا المكان سيكون مختلفًا عن عالمنا هذا. سيكون مكانًا نحب فيه ونتلقَّى الحب فقط. لن ألومك لو ضحكتِ من سذاجة أفكاري".

"لو كانت الحياة بعد الموت حياة أبدية، إذًا فلماذا وُجِدَت حياتنا هذه لو كانت مجرد لحظة عابرة مقارنة مع الأبدية؟ وهل الجنة هي التعويض عن مثل هذه الحياة؟".

نظرت لي كارو بتفحُّصٍ وهي تقول لي: "هذه الحياة؟".

لم أسترسل في الحديث مع كارو بعد ما قلت. لم أخبرها برغبتي في الفَناء بعد الموت. بل لم أكن أرغب في الوجود أصلًا منذ بادئ الأمر. كان الأمر سيكون أفضل بدلًا من أن أمرَّ بهذه الحياة ثم أدخل بعدها الجنة.

"يونج جو" نادتني كارو وهي تمسح على ظهري.

بالقرب من الدير كان هناك العديد من القُرى الكبيرة والصغيرة. وكان بعضٌ من الزوار يرتادون تلك القرى ويحتسون الخمر بينما يتضاحكون ويتسامرون. ولكن بالنسبة لسكان تلك القرى كان ذلك الأمر مصدرَ تَلوُّثٍ سَمعيٍّ لا يُحتمَل، وخاصة في فترة الليل، حيث تكثر المشكلات عادة؛ فكان لزامًا على عدد من المتطوِّعين الوقوف على الطرقات المؤدية لتلك القرى لمنع الزائرين المتَّجهين إليها. وكان يُطلق على تلك الوظيفة "نايت جارد" (الحراسة الليلية).

كانت تلك المرة الأولى التي أشترك فيها في عمل مع هانجي.

كانت حراستنا الليليَّة تتكوَّن من عشرة أشخاص، حيث وقف زوج من الحُرَّاس عند خمسة مفترقات للطرق. يبدأ دوامنا من الساعة التاسعة وحتى الحادية عشرة، وكنت زمليةَ هانجي في دورية الحراسة عند المفترق "أ". وكان ذلك الزقاق هو الطريق المؤدي من الدير لأكبر مدينة مجاورة. كانت الشمس لم تغرب كلِّيًا بعدُ، حتى بحلول التاسعة مساءً؛ فبدت السماء كبحيرة تُذهب العقول، امتزجت فيها ألوانها بين خليط من اللونين البرتقالي والزهري. النسمات الليلية حملت نفحاتٍ من عطر زهور أشجار الزيزفون. جلست في ذلك اليوم بجانب هانجي على المقعد الخشبي نراقب العائلات وهي تعود لأماكن المبيت.

وكانت أماكن المبيت المخصَّصة للعائلات تقع خارج الدير، والذين يبيتون في تلك الأماكن يركبون دراجاتهم للانتقال بين الدير وأماكن مبيتهم. وكان عليهم العودة للغرف قبل مغيب الشمس، ولكن

بعضهم كان يبقى للصلاة لوقتٍ متأخِّر من الليل، ثم يتحسّس طريقه معتمدًا على ما تبقّى من إضاءة لأعمدة الإنارة المنتصبة في الأزِقّة.

سألت وأنا أشير تجاه الجانب المُظلم قائلةً: "ماذا بظنِّكَ سنجد لو مشينا صوب ذلك الاتجاه؟".

قال لي هانجي: "منازل، حقول زهرة دوَّار الشمس، حقولًا، محلات نبيذ، مطاعم. سمعت أن هناك جدول مائي وإذا مشيت أبعد لوجدتِ بحيرة. وبين كل ذلك يوجد عدد من الكنائس الصغيرة للصلاة".

قلت له: "سمعت أن هناك أشياء أخرى".

"مثل ماذا؟".

"مراهقين يمارسون الجنس بداخل الحظائر".

أومأ هانجي برأسه وضحك، ثم قال:

"هل تتحدثين مع الأخوات الراهبات بتلك الطريقة أيضًا؟".

ضحكنا سويًا.

قال هانجي بوجهه البريء المميَّز: "فلنذهب بأنفسنا لنعرف ماذا يوجد هناك، ولكن بعد انتهاء الدوام".

أخفضت رأسي في صمت. أخبرته بأنني لا أريد أن أتمشّى في الليل وأوقع نفسي في الخطر في بلد غريب.

لم تكن التمشية الليلية مسموحًا بها في الدير بعد الساعة التاسعة، اعتاد بعض الزُّوَّار الكذبَ، مُدَّعين بأنهم أزواج؛ للمبيت في الغرف عند المزرعة. وكنَّا نتظاهر بتصديقهم، ونسمح لهم بالخروج من الدير.

تحدَّثتُ مع هانجي في الكثير من الأمور ونحن جالسين على ذلك المقعد الخشبي. وفي بعض الأحيان كنت أصبح منشغلة تمامًا بحديثنا، لدرجة أنني لا أنتبه لخروج الزائرين من الدير إلَّا بعد أن يكونوا

بالفعل على مسافة بعيدة منًا. كنت أعلم أنه مهما بُحتُ له فذلك الكلام لن يخرج أبدًا للعالم، والأكثر من ذلك أنني كنت على يقين أنه لن يحكم عليَّ مهما أخبرته. ذكرياتي المخجِلة، أشياء لا أستطيع أن أسامح نفسي بسببها، كنت أملك الجرأة لأن أحكي عنها أمام هانجي دون أي مقاومة من جانبي. حكيت له عن أمور لا أستطيع البوح بها حتى على هذه الأوراق، تلك الحكايات تخصُّه هو وحده.

ورغم ذلك كانت هناك لحظات ألجَمَت الكلام في فمي.

كمثل اللحظات التي سألني فيها هانجي عن كيف كان منزلي، ولماذا يُقدِم الكثير من الأشخاص في بلدٍ غنيٍّ مثل بلدي على الانتحار. لم أستطع أن أجيبه بشكل قاطع، فشعرت بالخزي من عدم قدرتي على التحدث بشكل واضح عن العالم الذي أعيش فيه. وبدلًا من الإجابة على سؤاله أخذت أحكي له عن حياة جدَّتي وأمي والسيدة في المنزل المجاور. بدا ذلك مناسبًا أكثر للإجابة على تساؤلاته.

أخبرني هانجي عن نفسه كذلك. أخبرني أن مليوني ونصف مليون شخص من أصل ثلاثة ملايين نسمة يعيشون في أحياء فقيرة. وأنه نشأ وهو لا يستوعب أبويه اللذين لم يكترثا لهذا الظلم الصارخ. وبينما كان يرى أبويه يرتادان الكنيسة للصلاة من أجل ازدهار أسرتهما، كان يفكر هو في حال الأطفال الذين يموتون على بُعد بضعة كيلومترات من الكنيسة. وفي الوقت نفسه، اعترف هانجي أن أموال والده سمحت له بتلقِّي تعليم جيد، وأن تَفاني أمه في رعاية الأسرة سمح له بالتَّقدُّم في ظل حياة أسرية مستقرة. كان يغلق عينيه أمام الحقيقة التي تُذكِّره بأن الحياة التي حظي بها كانت بسبب ثروة أبيه، وأن هذه الثروة ربما قد تكوَّنَت من خلال استغلال أحدهم، ولكنه لن يعترف في نهاية الأمر أن النقود هي الشيء الوحيد الذي يؤمن به بصدق ويعتمد عليه.

تحقَّقنا من ساعتينا فقط عندما عاد جميع الأزواج الذين خرجوا من الدير، وحينما لم نَعُد نسمع أي أصوات ثرثرة أو أصوات ضحك عالية. كانت الساعة الواحدة فجرًا. كنت أظن الساعة لا زالت الحادية عشرة مساءً.

أنهينا صلاتنا المسائية ثم ذهبت مع هانجي للجلوس على نفس المقعد الخشبي الذي جلسنا عليه في الليلة السابقة.

"أريد أن أريكِ شيئًا".

أخرج هانجي من حقيبته التي يعلِّقها على الدوام ألبوم صور صغيرًا بحجم كفّ اليد. رفعنا الصور لرؤيتها تحت ضوء أعمدة الإنارة.

في الصورة الأولى كان هناك ما يقرب من عشرين شخصًا يقفون في المطبخ باستقامة. وفي منتصف الصورة، كانت هناك سيدة ترتدي فستانًا أخضر منقوشًا بورود صفراء وهي تضمُّ رضيعًا ملفوفًا في غطاء أبيض. وعلى رأسها ارتدت عمامة نسائية تطابق لون الفستان. أشار هانجي للطفل الملفوف في الغطاء وقال:

"هذا أنا. وهؤلاء هم أقرب أفراد عائلتي".

الجميع في عائلة هانجي، رجالهم ونساؤهم، كانوا ذوي أكتاف عريضة وأقدام ضخمة. كانت البنية الجسدية لوالدة هانجي لا تختلف كثيرًا في قوتها عن بنية الرجال؛ فبدا لي هانجي، الذي تضمُّه مثل هذه الأم، كجرو صغير.

"ومَن هذا الطفل الصغير؟".

كنت أسأله وأنا أشير لطفل صغير يبلغ حوالي ثلاث سنوات، كان مُمسِكًا بنهاية فستان أمه وهو ينظر للكاميرا.

"هذا أخي الكبير".

"أليس لك أخوة غيره؟".

"بلى، عندي أخت أصغر مني".

قلَّـب هانجـي صفحـات الألبـوم ليرينـي صـورةً مـا. كانـت صـورة طفلـة لم يمـرَّ عـلى ولادتهـا مائـة يـوم، نائمـة في مهدهـا في وداعـة. قلَّـب هانجـي بعـض الصـور الأخـرى وأراني إيَّاهـا. كانـت صـورًا لنفـس الطفلـة، ولكنهـا كانـت في الخامسـة أو السادسـة في تلـك الصـور وقـد ظهـرت وهـي مسـتلقية في سريرهـا. كان وجـه ورقبـة الطفلـة ذات العشرة أعـوام مكتنـزان بالدهـون، بينـما كان شَـعرها قصـيرًا. كانـت نائمـة عـلى وسـادة تمَّـت تغطيتهـا بمنشـفة مـن الشـاش، وكان فمهـا مفتوحًـا قليـلًا، بـدا وكأنهـا مسـتغرقة في نـوم عميـق هـادئ.

"هل لديك أي صور أخرى لها وهي مستيقظة؟".

عـرض عـليَّ هانجـي صـورة أخـرى لأختـه وهـي مسـتلقية. كان وجهها ممتعضًـا وهـي تحـاول الابتسـام.

"ليا مستلقية على هذا النحو منذ ولادتها وحتى يومنا هذا".

قلَّـب هانجـي صفحـات الألبـوم. وفي هـذه الصـورة كانـت الطفلـة قـد ازدادت وزنًـا أكـثر مـن الصـورة التـي سـبقتها، ويقـف أمامهـا والـدة هانجـي وأبـوه مبتسـمين.

"هذه صورة التقطنها في يوم ميلادها".

أخـذ يتفحَّـص وجـه أختـه الصغـرى مَليًّـا، ثـم عـلا وجهـه وميـضٌ دافـئ، وقـال:

"أليست رائعة؟".

أومأت بالموافقة على كلامه.

"منذ أن كنت طفلًا، وكلما كان رأسي مشغولًا كنت أذهب لأختي ليا. وحينما كان يضربني أخي الأكبر ويقسو عليّ دون علم أمي وأبي كنت أذهب حينها أيضًا لغرفتها وأبكي في صمت. كنت أشعر بسكينة حينما أنظر لوجهها وهي نائمة في هدوء على سريرها. كنت أحيانًا أتخيَّل الألعاب التي كنّا سنلعبها لو أنها كانت مثل باقي الأطفال. كان قلبها حبيسَ عمر السنتين".

تخيَّلتُ هانجي الطفل جالسًا في غرفتها وهو يراقب وجهها. كان صعبًا عليّ أن أتخيَّل كيف هي الحياة حينما يجب عليك أن ترعى أحد أفراد أسرتك طوال حياتك.

قال هانجي إن أمَّه وأباه وأخاه وجدته وخالاته كانوا جميعهم يتبادلون الأدوار لرعايتها. ولكن يومًا ما سيكون عليه تولِّي مسؤولية رعايتها الصحية بشكل أساسي؛ ولذلك كان يعرف منذ سِنٍّ مُبكِّرة أن حياته لا تخصُّه وحده.

"لم أفكِّر يومًا في أمر الزواج والإنجاب أو مثل تلك الأمور. أريد أن أكون مسؤولًا عن ليا. أريد أن أكسب المال، أريد أن أوفِّر لها شخصًا يستطيع رعايتها في الأوقات التي أكون بعيدًا فيها".

كانت أسرة هانجي تحرص على تقليب جسدها مرة كل ساعتين حتى لا تُصاب بقرحة الفراش. وكانت تحتاج لشخصين على الأقل لمساعدتها في الاستحمام. والدا هانجي اللذان كانا معتادَيْن على السفر في كل مكان، لم يَعُد بمقدورهما الذهاب لأي مكان من بعد ولادتها ولو كان قريبًا. كانت تلك تجربة قاسية، ولكن الألم لم يكن كل شيء، فكلُّ الأسرة كانت تحبها وترعاها بصدق.

ليا أهدت أُسرتها هديَّةَ الصمت. أهدتهم الوقت لمراقبتها في صمتٍ وهي نائمة لمرتين أو ثلاث على الأقل يوميًا، وهذه الساعات التي لا تُذكر منحت هانجي صلابة العقل.

"كانـت تبـكي أحيانًـا وتبـدأ الـصراخ مـع نوبـات الغضـب، كان الأمـر عاديًـا وهـي طفلـة. ولكنهـا أحيانًـا كانـت تبـكي لسـاعات دون توقُّـف، وكنـت أكرههـا حينـما تفعـل ذلـك، وأكـره الوضـع كلـه. بـل إننـي كنـت أرغـب في ضربهـا بـشيء لـو كان ذلـك سـيجعلها تتوقَّـف. أنا شخص سـيئ".

"هانجي، أنت رائع بشكل لا يُصدَّق".

"يونج جو... كم أنت بسيطة!".

غيَّرتُ الحوار الذي بدأ يتَّخذ مُنحنًى غريبًا بيننا.

"هل هذه رحلتك الأولى؟".

"بالفعـل هـي الأولى. لم يسـبق لي السـفر خـارج نـيروبي. كانـت المـرة الوحيـدة التـي سـافرت فيهـا في رحلـة مدرسـية لمتنـزَّه سـيرينجيتي الوطنـي".

"سيرنجيتي؟".

"حيث تركبين في سيارة جيب وتراقبين الحيوانات البرِّيَّة".

"هذا رائع".

"بالنسـبة لي، كانـت سـيرنجيتي هـي حافـة العـالم. الحقـول شاسـعة ومتراميـة لدرجـة أنـك قـد تظنِّـين أنهـا بـلا نهايـة. وحـين كنـت في المرحلـة الابتدائيـة كنـت أظنهـا بـلا نهايـة فعـلًا. وحينـما عُـدتُ مـن الرحلـة المدرسـية لبيتنـا أخـذت أحـدِّث أمـي وأبي عنهـا بـكل حـماس، ولم أكتـفِ بالأمـر، فركضـت تجـاه غرفـة ليـا وبـدأت أحـكي لهـا هـي الأخـرى وأبالـغ في الأمـور التـي شـاهدتها. ولكنـي شـعرت بالسـوء بعـد أن حكيـت لهـا؛ لأننـي سـافرت وشـاهدت أشـياء ممتعـة بينـما هـي لم تتحـرَّك ولـو لخطـوة واحـدة وظلَّـت حبيسـة فراشـها طـوال حياتهـا".

قـال هانجـي إنـه كان يفكِّـر في ليـا حينـما كان يتنـاول طعامًـا لذيـذًا خـارج المنـزل، وحينـما كان يواعـد فتـاة، وحينـما كان يرقـص في الملهـى،

وحينما كان يغني؛ كان يشعر بالسوء حيالها، ولكنه كان يُسكت ذلك الصوت الداخلي ويُقنع نفسه قائلًا إن مثل هذه الشفقة هي إحدى أنواع التَّكبُّر حيالها.

"بالنسبة لي، ليا ليست شخصًا منفصلًا. أنا هنا أتحدث إليكِ الآن ولكنَّ جزءًا من جسدي يبقى مستلقيًا في نيروبي. مهما ذهبتُ، وبِغَضِّ النظر عمَّا أفعله، فسيظل جزءٌ مني عالقًا في نيروبي على الدوام".

كان نظر هانجي مُعلَّقًا بصورة ليا داخل الصور وهو يقول ذلك الكلام. الوميض الهادئ الذي شعَّ من وجهه أرخى بظلاله على قلبي الشاحب.

أشبِّك أصابعي بأصابع هانجي.

وأُقبِّل عنقه.

وأغفو معه فوق المقعد الخشبي تحت ظل الشجرة.

أركب الطائرة وأسافر معه لنيروبي، وأقابل أفراد أسرته طوال القامة الذين سبق أن رأيتهم في الصور. يرحِّبون بي ويتقبَّلونني. أتبع هانجي لغرفة ليا وألقي عليها التحية. ينظر لي نفس النظرة الدافئة الحنون التي يدَّخِرها لليا. أعبُر معه شوارع نيروبي دون حذر، والتي، كما قال، ليس بها أماكن لعبور المشاة. ثم نقفز في إحدى الحافلات ونتوجَّه لمراعي سيرنجيتي. وهناك نقابل وحيدَيْ القرن اللذين كان يرعاهما. ويبدوان في صحة جيدة. نشاهد غروب الشمس على المراعي مع زوجَيْ وحيد القرن.

أحمل طفل هانجي في أحشائي، وأستقر في نيروبي، حيث لا يوجد شتاء بارد. نتحدَّث عن هذا الدير، ونقول إن الأمر كان منذ زمن بعيد؛ ولذا لا نتذكره جيِّدًا. ونقول إن أوقاتنا قبل أن نلتقي ببعضنا البعض كانت ناقصة.

لا أستطيع الخلاص من نيروبي.

أغـيِّر حفَّاضـات ليـا. أرفـع عنقهـا وأطعمهـا بعـض الحسـاء. وطفـلي الرائـع يجلـس عـلى الأرض وهـو يبـكي، وهانجـي لا يعـود للبيـت. كـم أفتقـد أيامنـا الأولى حينـما التقيـت بـه.

مـرَّ الأسـبوعان. وانتهـت معهـما أيـام الحراسـة الليلـة، ولكننـي لا زلـت ألتقـي بهانجـي عنـد أول الطريـق يوميًّـا بعـد كل صـلاة مسـائية، وكأننـا عـلى اتِّفـاقٍ مُسـبق غـير مُعلـن. رغـم أننـا لم نتبـادل الأحاديـث المطوَّلـة كـما اعتدنـا في السـابق، إلَّا أننـا كنَّـا نتبـادل الحديـث بشـكل مُقتَضَـب لنطمـئنَّ كيـف قـضى الآخـر يومـه.

كان مـن الصعـب عـليَّ التَّعـرُّف عليـه في الأمـكان التـي تفتقـد لجـودة الإنـارة القادمـة مـن الأعمـدة. كان جسـده يمتـزج بالظـلام. بينـما كانـت عينـاه هـي الـشيء الوحيـد الـذي أمكننـي أن أراه بوضـوح، ولكـن حـين كنـت أنظـر لتلـك العينـين كنـت أعـرف فيـمَ يفكِّـر وبـم يشـعر.

كان وجهه يتصلَّب أحيانًا.

لم يكـن ذلـك الوجـهَ المرتـاحَ بتلقائيَّـةٍ، الـذي رأيتـه أول مـرة قابلتـه فيهـا. كان ذلـك لوقـت قصـير للغايـة، إلَّا أنـه بـدا كشـخص ميِّـت؛ وجـه شـخص غـير حـاضر، في تلـك الأوقـات كنـت أعتقـد بأنـه في نـيروبي بالقـرب مـن ليـا.

أصبحنـا لا نسترسـل في كلامنـا كـما كنـا نفعـل في السـابق. أقـصر وقـت كان لبضـع ثـوانٍ، وأطـول وقـت كان لبضـع دقائـق. كنـا نسـير فقـط. نلتقـط الحلـزون الـذي يحبـو عـلى الطريـق ونلقيـه وسـط الأشـجار. وفي أثنـاء ذلـك الصمـت أدركـت كـم أنـا متعلِّقـة بذلـك الوقـت. وددت لـو دام للأبـد. لا يمكننـي السـماح لهـذا الوقـت أن ينسـاب بإهـمال كباقـي اللحظـات ويتحـول لـركام مـع المـاضي.

كنا نذهب كثيراً للتمشية خارج الدير.

كانت هناك مقبرة تقع قُرب البوابة الأمامية حيث دُفن الرهبان. الزهور التي زُرعت في كل ركن من المقبرة جعلت المكان يبدو كحديقة زهور صغيرة. دُقّت الأسماء على صلبان خشبية، مع ذِكر سنوات الميلاد والوفاة التي حُفرت على شواهد القبور. قبر الراهب الذي أسَّس الدير كان هناك أيضًا. رجل طيب القلب، نزح لهذه المدينة الصغيرة التي لا يعرف فيها مخلوقًا، وكل ذلك بسبب مقولة لامرأة عجوز قالت له يومًا: "شكرًا لقدومك لهذه القرية المهجورة". وقفنا في صمت أمام قبره ونحن ننظر للصليب الخشبي، وكأن وقوفنا كان عن اتفاق مسبق بيننا.

كانت المقبرة تُطِلُّ على تلٍّ انتصبت فوقه شجرة زيزفون شاهقة. كلما هبَّت الرياح، كانت فروع الشجرة الطويلة الطرية تمسح وجوهنا حينما نمشي أسفل منها، بينما تمتزج رائحة زهورها مع رائحة الحشائش المقصوصة حديثًا في الحقل فتدغدغ أنفينا. وكان هناك حصان يعيش عند سفح التَّلَّة، أطلقنا عليه اسم "بيتر"، كنَّا نطعمه ثمار التفاح ورقائق البسكويت التي كنَّا ندَّخرها من آخر وجبة. وحين كنَّا نقطع التفاح بسكين الاستعمال الشخصي التي بحوزتنا ونضعها على كفوفنا، كان بيتر يلعق راحة كفَّينا ثم يخطف التفاحة. وحينما كنَّا نناديه "بيتر" كان يُسرِع صوبنا وحوافره تدبُّ بثِقَل في الأرض، ثم يتمهَّل حتى يصل إلينا، حتى لو كان في مكانٍ بعيد عنَّا، ثم ننتبه للذباب الذي يحوم حول إحدى عينيه المحتقنة بالدماء.

ومن خلف بيتر امتدت مَراعٍ شاسعة نحو الجنوب. كنا نتَّخذ طريقًا بينها ونمرُّ بالخراف ذات الفراء القصير وهي تستظلُّ بالشجر أثناء قيلولتها. وعندما نمشي من الجهة الشرقية من المراعي، كنَّا نمرُّ

بكنيسـة كاثوليكيـة صغـيرة بُنيـت مـن الأحجـار. وقـد تجمَّعَـت طيـور سـوداء ضمَّـت أجنحتهـا واسـتقرّت فـوق سـقف الكنيسـة. كنـا في الغالـب نعـود أدراجنـا إلى الديـر إذا مـا وصلنـا عنـد هـذه النقطـة، ولكـن قـد نكمـل أحيانًـا لنقطـة أبعـد مـن هـذه كذلـك. لتبـدأ القـرى مـن بعـد هـذه النقطـة. معظـم البيـوت المكوَّنـة مـن طابقـين كانـت قديمـة، ولكـن الزهـور الملوَّنـة التـي نَمَـت عـلى الحوائـط والشرفـات أضفـت عـلى المنـازل إشراقـة دافئـة.

وبمجـرد عبـور القريـة تجـد مجـرًى نهريًـا صغـيرًا يجـري أسـفل جـسر صخـري. خلعنـا نعلينـا وجلسـنا نغمـر أقدامنـا في ميـاه النهـر.

لم نصادف الأمور الجيدة فقط.

فقـد كان هنـاك مَـن يمـرُّون فـوق الجـسر وينادوننـي "تشـاينيز" (صينيـة)، والأكـثر عدوانيـة مَـن كان يقـول: "اللعنـة عـلى المهاجريـن!"، وهـم يصرخـون ويهـدِّدون بإلقـاء زجاجـة الخمـر التـي كانـت بحوزتهـم تجاهنـا. وفي هـذه الأحـوال كنـا نكتفـي بمجـرد النظـر بهـدوء أعـلى الجـسر؛ لأننـا ببسـاطة لم نخـشَ شـيئًا. بعـضٌ مـن النـاس كانـوا يشـتموننا بالفرنسـية، وعندهـا كنـت أسـتفسر مـن هانجـي عـمَّا كانـوا يقولونـه، فيبتسـم ويجيبنـي: "لا شيء".

كنـت أجلـس في مـكاني سـاكنةً أفكِّـر في أولئـك الذيـن هاجمونـا لفظيًّـا بعبـارات عنصريـة ثـم هربـوا. تُـرى، أي أشـخاص هـم؟ وإلى أيـن يذهبـون بعـد عبـور ذلـك الجـسر؟ في الغالـب سـيذهبون لـشراء حاجتهـم مـن السـوق ثـم يعـودون لمنازلهـم، أو ربمـا سيحتسـون بعـض الـشراب مـع أصدقائهـم. هـم أيضًـا أصدقـاء وأفـراد أسرة أعـزَّاء بالنسـبة لشـخص مـا، وربمـا شـعروا كذلـك بالإهانـة والتحقـير في بعـض الأحيـان مـن قِبـل رؤسـائهم وعملائهـم. وهـم أيضًـا عليهـم أن يتذكَّـروا أنهـم قـد عانـوا مـن

التفرقة بسبب مظهرهم أو سِنِّهم، أو خلفيتهم، أو بسبب تحيُّز شخص ما، وربما أحسوا بالرفض من شخص أحبوه.

هل كانوا يبحثون عن الانتقام؟

أم أنهم كانوا يستفزُّونك لتُظهر ردَّة فِعلِك؟ في حقيقة الأمر، أشفقت على أولئك الذين لم يشعروا بالأمان حيال أنفسهم إلا من خلال تلك الطريقة. كم هي حياة خاوية تلك التي تُبنى سعادتها على التَّحرُّش والتَّنمُّر على الآخرين!

كان الوقت يمرُّ سريعًا في ذلك المكان، وكنت أتحقَّق من ساعتي بين الحين والآخر؛ أسفًا على كل دقيقة تنساب من بين يديَّ. كنتُ أحسُّ أننا لم نتبادل بالكاد أيَّ كلمات، رغم ذلك فقد مرَّت ثلاثون أو أربعون دقيقة وحان موعد العودة. جفَّفنا أقدامنا بالمناشف وعُدنا أدراجنا للدير بخطوات أسرع. كانت خطواتنا تشبه الهرولة، حتى إنني شعرت بصعوبةٍ وأنا أحاول اللحاق بهانجي.

عُقِدَ في كل يوم اثنين اجتماع من أجل المتطوِّعين الذين سيرحلون عن الدير، الاجتماع كان في قاعة استراحة صغيرة لا تزيد عن مائة وخمسين قدمًا مُربَّعة. وضعنا طاولات أمام المتطوِّعين الذين سيرحلون، وأضأنا بعض الشموع، ثم جلسنا نستمع لهم وهم يحكون عن تجربتهم. وفي المقابل حكى زملاؤهم عن الذكريات والأوقات التي شاركوها مع رفاقهم. كما أننا نظَّمنا عرضًا لهم، فمَن كان يجيد العزف كان يتطوَّع بعزفه، ومن يُجيدُ الغناء يتطوَّع بالغناء؛ سينثيا من المكسيك قدَّمَت أداءً مسرحيًّا منفردًا، بينما قدَّم جوستافيو من كولومبيا تمثيلًا صامتًا. كما كنا نلعب ألعابًا لو سنح الوقت.

في تلك الغرفة الصغيرة، تجمَّع ثلاثون متطوِّعًا من مختلف الجنسيات. لم تكن الإنجليزية اللغةَ الأم لأيٍّ منَّا. كنا نتحدث بالإنجليزية ثم نقول بشكل متكرِّر: "ولكن، هل فهمت ما قلت؟".

لـو رآنـا مَـن كانـت الإنجليزيـة لغتَـه الأم ونحـن نتحـدث لظـنَّ عـلى الفـور أن إنجليزيتنـا في مسـتوى طفـل في العـاشرة مـن عمـره، ولكننـا قررنـا أن نفهـم كلام بعضنـا البعـض مهـما حـدث. سـواءً كانـت إنجليزيـة المتحـدث ضعيفـة، أو لضَعـف الترجمـة عـلى حـدٍّ سـواء. كان مـن الصعـب تخيُّـل هـؤلاء المتطوِّعـين المتعثريـن في الإنجليزيـة وهـم يتحدثـون بلغاتهـم الأصليـة.

هذا الجو العام كان مقصورًا فقط على هذا التَّجمُّع فحسب.

لم تطـغَ ثقافـة دون الأخـرى، ولم يكـن ذلـك مُمكِنًـا بـأي حـال مـن الأحـوال. غنَّـى النـاس وعزفـوا عـلى الجيتـار وأدَّوا تمثيـلًا صامتًـا، وكان ذلـك طواعيـة، رغـم أنهـم لم يتقنـوا هـذه الأمـور. لم يكـن هنـاك أي موضـوع واضـح ومشـترك بحيـث يمكننـا مناقشـته. عـدا بعـض الأشـخاص، فلـم نكـن نعلـم أي شيء عـن بعضنـا البعـض. لم نكـن نعـرف الأعـمار، أو نوعيـة الدراسـة التـي حصلـوا عليهـا، أو أيـن يعيشـون، أو التيـارات السياسـية التـي ينتمـون لهـا، أو سـبب وجودهـم هنـا. ورغـم ذلـك بذلنـا مجهـودًا في محاولـة فهـم كل كلمـة كانـت تخـرج بصعوبـة مـن فـم المتحـدث ونحـن جالسـون عـلى هيئـة دائريـتن في ذلـك المـكان الضيـق. جلسـنا عـلى هـذا النحـو وكأن الجلـوس في دوائـر هـو الهـدف الوحيـد مـن هـذا التجمُّـع.

المتطوعـون مـن أمريكيـا اللاتينيـة، الذيـن لم يتحدثـوا الإنجليزيـة عـلى الإطـلاق، كانـوا يحـضرون الاجتـماع ويسـتمعون للترجمـة باللغتـين الإنجليزيـة والإسـبانية، بينـما اسـتمع الأفارقـة الذيـن لا يتحدثـون سـوى الفرنسـية للترجمـة بالإنجليزيـة والفرنسـية. حينـما يقـول شـخص مـا شـيئًا كانـت تتـمُّ ترجمتـه بشـكل تلقـائي. دفَعَـت جملـةٌ قصيرة جـدًا باللغـة الإنجليزيـة، متبوعـة بترجمـة طويلـة، الأشـخاصَ الذيـن لا يتحدثـون اللغـة إلى الانفجـار في الضحـك.

كل المتطوِّعين من القارة الأفريقية ذكَّروني بشكل ما بهانجي. كانوا يضحكون بكثرة، ويحرِّكون أجسادهم بتلقائية. يضحكون وكأن قوَّةً ما تدفعهم دفعًا لاقتناص أي فرصة للضحك. حينما كنت أتابع هانجي وهو يتحدث معهم ويضحك يخالجني شعور من أنه ربما يشعر بالضجر والضيق حين يكون معي.

ترجم هانجي بالفرنسية للأفارقة الجالسين بالقرب من النافذة. كان ينقل لهم الكلام ويضفي عليه ضحكاته العالية بين الحين والآخر، مع حركات جسده المختلفة، كأنه يقصُّ عليهم قصة ممتعة. بدا الاستمتاع على هانجي والمتحدثين جميعهم، حتى الأشخاص الذي لم يضحكوا في المعتاد كانوا يضحكون ملء فيهم أمامه. بدا لي هانجي الذي أراه مع الناس مختلفًا عن هانجي الذي ألقاه وحدنا.

وفي تلك الأوقات كنت أشعر أنه بعيد عني أكثر من أي وقت آخر.

لم أكن أعرف هانجي، ولم أكن أعرف عالمه، ذلك العالم الذي نما قليلًا وزادني دفئًا وإشراقًا كلَّما لمسني.

كنت مستلقية على الأريكة في القاعة المشتركة للنُّزل السَّكني حينما قفزت كارو بجانبي. كان جِلدها الأسمر بلون الشيكولاته لامعًا، ووجهها صغير وجميل وكأنه نُحت بعناية فائقة. لها عينان واسعتان سوداوان تشعَّان بريقًا لافتًا. حدَّقت في وجهي مَليًّا للحظات بتلك العينين، ثم قالت لي: "رأيتك مع هانجي البارحة. كنتما تتحدثان على الطريق المؤدية للقرية، بعد اجتماع توديع المتطوِّعين، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"كنتما تلتقطان أشياء من الأرض ثم تعاودان إلقاءها من جديد، ماذا كان ذلك؟".

"حلزون".

عبس جبينها ثم ضحكت.

"يونج جو، هانجي أحمق. إنه مميَّز للغاية".

تُرى، إلى أي مدى تعرفه؟ وهل حدَّث هانجي الأشخاص الذين يعرفهم بالأشياء التي حكاها لي بنفس القدر؟ أصابني الفضول.

قالت كارو: "تبدين مختلفة كثيرًا عن انطباعي الأول عنك".

"وكيف كان انطباعك الأول عني؟".

"ظننتك راهبة. راهبة متحفِّظة جدًّا. لا أمزح".

خشيَت كارو؛ إذ ربما أكون قد استأت من كلامها، فأضافت قائلة:

"كان ذلك تَحيُّزًا من جانبي فحسب. وتبيَّن لاحقًا أنَّكِ حمقاء لا تختلفين في شيء عن هانجي. سمعت الكثير عنك منه. يقول بأنك أقرب أصدقائه إليه هنا. أعرفه لما يزيد عن ثلاث سنوات، ولكنها المرة الأولى التي أراه قريبًا بهذه الدرجة من شخص ما".

"هانجي؟".

"نعم".

"ولكنه متوافق مع الجميع".

"صحيح أنه متوافق مع الجميع، لكن لا علم لنا بما يفكِّر فيه. لم يسبق لي أن رأيته يُظهِر تعبير الكُره لأي أحد؛ ربما لأنه لا يريد أن يتسبَّب في جرح أي أحد. ورغم ذلك فالجميع يحملون له بعض البُغض. لُطفه لا حدود له، ولكن هذا كل شيء. ربما كان تعبير البُغض غير دقيق، وربما كان من الأفضل أن أقول بعض الاستياء، يبدو أحيانًا أفضل في التواصل مع الحيوانات من البشر".

أخذت أتطلَّع إلى وجه كارو الجميل وهي تقول ذلك الكلام. رأسها المستدير وملامحها الخلابة، وجلدها اللامع الذي يثير حاسة اللمس

عنـدي، وأخـذت أفكِّـر في أن فتـاة بارعـة الجـمال مثلهـا لـن تمـشي مـع هانجـي في الغابـة لإلتقـاط الحلـزون وتلقيـه عـلى الأشـجار.

"في حقيقـة الأمـر أنـا لا أعلـم هانجـي جيّـدًا. ولا أعلـم لمـاذا قـال لـك عنـي إننـي أقـرب أصدقائـه إليـه. فكـما تعلمـين، فالأشـغال اليوميـة كثـيرة، ولا أجـد معهـا وقتًـا لتَبـادُل الحديـث معـه".

لسـت واثقـةً إن كنـتُ قـد تحدَّثـتُ بصـدق عـن أننـي لا أحـب هانجي لهـذه الدرجة.

في الحقيقـة، أنـا أتحـدث إلى كارو وهانجـي يوميًـا، ونتمـشى حـول الدير حينـما لا نكـون مشـغولين في مناوبـة، وفي الليـل نشـتري زجاجـة كـولا مـن الماكينـة بالقـرب مـن المتجـر ونتشـاركها. وبعـد منتصـف الليل، ربمـا نجلس أحيانًـا في هـدوء تحـت الشـجرة عنـد النافـورة. فكيـف لي أن أقـول هـذا. لـو كان بإمـكاني البـوح بهذا...فهانجـي يعرفنـي، وأنـا أتخيَّـل فيـم يفكِّـر، كـما تخيَّـل هـو فيـم فكَّـر وحيـد القـرن. أحيانًـا أجلـس عـلى شرفـة منزلـه، رغـم أني لم يسـبق لي زيارتـه مـن قبـل.

ربمـا ذكـر لهـا هانجـي بشـكل تلقـائي أننـي قريبـة منـه، ولكنـي لا أسـتطيع أن أقـول ذلـك بالمثـل عنـه؛ لأننـي لـو قلـت كلمـة واحـدة عنـه، فلربمـا نظـر الجميـع بدخـلي وعرفـوا بخيـالاتي عنـه. وربمـا أكـون مجنونـة بعـض الـشيء في تلـك النقطـة.

"يونغ جو، كم عمرك؟".

تردَّدتُ على إثر سؤال كارو.

في كل مـرة كنـت ألتقـي بهانجـي صُدفـةً كنـت أشـعر بوخـز في جلـدي عنـد منطقـة بطنـي وظهـري، حتـى إننـي أسـمع صـوت تدفُّـق الـدم لـرأسي، ثـم يبـدأ قلبـي في الخفقـان، وأتلعثـم في الـكلام. وحينـما ألحظـه ينظـر لي مـن بعيـد أشـعر بلهيـب يمتـدُّ مـن سـاقي وحتـى ظهـر عنقـي.

وفي تلـك الأوقـات كنـت أسـترجع بداخـل رأسي المقيـاس الزمنـي الچيولوچـي.

تلقَّيـتُ في الصف الأول مـن المرحلـة الإعداديـة جـدولا لقيـاس الزمـن الچيولوچـي، لصقتـه عـلى الحائـط، وكنـت أحـب قراءتـه مـن البدايـة للنهايـة. كنـت أحفـظ أسـماء الكائنـات الحيـة التـي تعيـش في كل عـصر، حتـى أتممـت حفـظ جميـع البيانـات عـلى المقيـاس مـع بدايـة المرحلـة الثانويـة؛ لأننـي شـعرت بقيمـة الأشـياء التـي لم يَعُـد لهـا وجـود الآن، رُغـم أنهـا بالتأكيـد كانـت موجـودة في يـوم مـا.

الدهر الجهنمي (الأرض البدائية)،

لم تكـن هنالـك حيـاة عـلى الأرض إبَّـان الدهـر الجهنمـي. أتخيَّلهـا لوحـةً سـوداء بـلا رسـوم.

الدهر السحيق،

بـدأ ظهـور أنـواع مـن البكتريـا والجراثيـم الزرقـاء والبَدْئِيَّـات. نقـاط متناهيـة الصغـر بـدأت تُرسـم بنهايـة إصبـع طباشـير أبيـض.

دهر الحياة الأولية،

حـين ظهـر قنديـل البحـر. قناديـل بحـر ذات أجسـاد شـفافة تسـمح بالرؤيـة مـن خلالهـا.

العصر الكمبّري،

القشريات والشِّعاب المرجانية، المفصليات ثلاثية الفصوص.

العصر الأوردوفيشي،

ظهـور نجـم البحـر وكائنـات أخـرى يُطلَـق عليهـا عُريضـات الأجنحـة (عقـارب البحـر). ومخروطيـات الأسـنان المنقرضـة.

العصر السيلوري،

الحلزون، المحار، بلح البحر. اللا فكِّيَّات (الأسماك عديمة الفك).

بإمكاني تسميع أسماء كل تلك الكائنات عن ظهر قلب وكأنها صلوات. فكِّيَّات الفم، الأسماك الرئوية، الحلزون الأرضي، زنابق البحر، ثدييات تشبه الزواحف، السيكاديات، أركيوبترکس، أول نباتات مُزهرة. حينما كنت أردِّد تلك الأسماء في رأسي كنت أفقد اهتمامي بالعالم الخارجي، فتخفت المشاعر والأحاسيس بداخلي، وعلى إثر ذلك يخفت وجودي رويدًا.

حيث لم يَعُد الزمان ولا المكان مهمَّيْن.

حينما كنت أشعر بالحزن أو القلق أو الغضب، أو حينما يعتصر أحدهم قلبي ويهزُّه، كنت أكرِّر تلك الأسماء في يأس، ولقد نجَحَت تلك الأسماء بشكلٍ ما في تحريري من هذا الألم الذي كان يشقُّني. فأبدأ "بالدهر الجهنمي"، وحتى "الثدييات المختلفة ذات الحوافر"، ولم يكن الأمر وكأنني مَن أنادي أسماءهم، بل كانوا هم مَن ينادون اسمي. لم أكن وحيدة في ذلك الوقت.

تُرى، هل علم هانجي بذلك الأمر؟ أنني حينما أكون بالقرب منه أنادي على أسماء كائنات منقرضة. وبأنني أكتم مشاعري تجاهه بتلك الطريقة، وبأنني كنت أخشى لو نجح في قراءة أفكاري. وأنني كنت أخشى أن يفرَّ مني لو عرف حقيقة مشاعري تجاهه ولو بشكل مبهم.

أنا التي لا وجود لها في أي مكان. وهانجي الذي ألحظه على الفور ولو كان من بين المئات.

أنا التي لا أملك الثقة بالنفس، والمتلعثمة في أي حوار. وهانجي الذي يتحدث بتلقائية مع كافَّة الناس.

أنا التي أُخفي فمي لعجزي عن الضحك بشكل سليم. وهانجي ذو التعابير التلقائية غير المصطنعة.

ظننت حينها أنه ربما لم يكن مُعجَبًا بي، وكل ما في الأمر أنه كان يرعاني لأنني أجد صعوبة في عقد صداقات مع باقي الأشخاص.

لم نكن متساوين في تلك العلاقة؛ لذا كان من الصعب أن نكون حبيبَيْن، ولم أكن كافية حتى في علاقة الصداقة. لم يخبرني أحد بذلك، ولن يحكم عليّ أحد بذلك أيضًا، ولكنني كنت أعلم تلك الحقيقة عن نفسي. وحينما يخالجني ذلك الشعور أتذكَّر على الفور جملة حبيبي السابق «سمحت لي بمواعدتك». ربما كان الشيء الذي وثَّقنا ببعضنا طوال تلك السنوات الثلاث هو اشتراكنا في نظرتنا الدُّونيَّة لأنفسنا. كل ما في الأمر أن عُقدَة النَّقص لديه كانت أسوأ من عندي؛ ممَّا سمح لي باحتقاره، بينما تجنَّبتُ احتقار نفسي.

سألني هانجي: «فيمَ تفكِّرين؟».

«أفكِّر في أمر عودتك لنيروبي بعد شهر ونصف».

صمت هانجي.

سألته: «تُرى، كم سنذكر من الوقت الذي أمضيناه هنا حينما نعود لحياتنا العادية؟».

أجاب هانجي: «في الغالب سننسى أغلبه».

«أكره ذلك».

«ماذا؟».

«النسيان».

استخرجت دفتر مذكراتي اليومية من حقيبتي وفتحته لأريه إيَّاه. «هذا دفتر يومياتي. كنت أكتب فيه بشكل يومي منذ أن وصلتُ هنا. بامكانك قراءته».

قلَّب صفحة ثم التي تلتها، وهو يضحك عاليًا.

«الحروف تبدو مثل رسمة ما. انظُري» كان يشير إلى أحد المقاطع التي كتبتها وكانت[1] 옷 « هذه تشبه شخصًا يرقص»

أخذ هانجي يتحسس الكلمات كأنه أحس بجذابيتها.

قال: "أوه. أستطيع قراءة هذه: الثالث والعشرون من يونيو. هذا تاريخ وصولي . كنتُ متعبةً من قيادة سيارة متهالكة حتى مطار ليون في يوم حار كيومنا هذا. هذا الذي يُدعى هانجي، أو أيًّا كان اسمه، ظلَّ يتحدث بالفرنسية بصوت عالٍ ومزعج، أردت أن ألكمه. ولِمَ كان عليه أن يتحدث معي بينما كنت أحاول أن أغفو في الكنيسة؟ وكيف ينسى معجون أسنانه وهو سيكون مسافرًا بعيدًا عن بلده لمدة ثلاثة شهور؟ وبسببه اضطررت للذهاب للمتجر". كان يختلق تلك القصص ويمثِّل أنه يقرأ المكتوب وهو يتتبَّع النص بإصبعه، وكأنه يجيد قراءة الهانجل. ضحكنا سويًّا بعدها.

سألني هانجي: "هل كتبتِ أي شيء عني؟".

أنت تظهر فيها بشكل يومي منذ الثالث والعشرين من يونيو.

قلت له مازحةً: "بالكاد حكيت عنك".

قال ضاحكًا: "ظننتك صديقتي".

"هانجي يعمل في المطبخ الكبير". ثم قلت له: "هذا اسمك".. أشرت للمقطع المكتوب في الجملة كالتالي" 한지".

(1) تعني: ملابس.

قال لي: "إنه جميل. وكيف يبدو اسمك؟".

كتبتُ: 지한 بجانب 영주. حينما كتبت الاسمين جنبًا إلى جنب بدا وكأن بينهما مودة.

قال لي هانجي وهو يقلِّب الصفحات: "لن تقدري على نسيان الوقت الذي قضيته هنا. الكتابة تبدو صعبة بالنسبة لي. كيف تمكَّنتِ من التدوين بشكل يومي؟ احكي لي عن الوقت الذي نقضيه هنا الآن حين ألقاكِ لاحقًا؛ هذا لأنني كثير النسيان".

"سأحكي لك بكل تأكيد".

كنا نتحدث دومًا بتلك الطريقة، أننا سنلتقي من جديد يومًا ما رُغم علمنا بصعوبة الأمر. كنَّا نتحدَّث وكأن بإمكاننا اللقاء مجدَّدًا كجيران يبعدان عن بعضهما مجرد ضغطة زِرِّ الجرس. وكأننا نسكن بالقرب من بعضنا البعض بدرجة كافية لدرجة تُمكِّننا من تناول طعام العشاء سويًّا بينما نرتدي نِعالنا المنزلية. وبتلك الطريقة حاولنا تجاهل حقيقة أننا في الغالب لن نلتقي مجدَّدًا لما تبقَّى من حياتنا.

قال هانجي: "يونج جو. أعلم أننا سنلتقي مجدَّدًا".

"نعم".

أخذت أحدِّق في영주 و지한 الجالسَيْن بجانب بعضهما البعض في دفتري.

لازال كل من 영주 و지한 في دفتري.

حينما أقرأ ما دوَّنتُه عن تلك الفترة، بإمكاني استحضار الضحكات والقصص التي تَشارَكناها سويًّا، والتمشيات المسائية وحتى رائحة أشجار الزيزفون التي عبَّقت هواء الأمسيات. كانت كل الذكريات حيَّة: وجه هانجي المبتسم لي، ونعله الرقيق الذي اشتراه من المتجر، الكولا التي تشاركنا فيها، والمقعد الخشبي المتهالك الذي كان يسقط

للوراء بسبب اهتزاز رجله. ورغم ذلك فوميض تلك الحكايات بدأ يخفت وكأنها لم تحدث مُطلَقًا. رغم أنني أذكر تفاصيل الوقت الذي قضيته معه، إلا أن حقيقة تلك الذكريات تتلاشى تدريجيًا.

لا زلت لا أدري لماذا أشاح هانجي بوجهه عني.

لا زلت عاجزة عن فهم ذلك التَّصدُّع.

أكرِّر على نفسي على الدوام أن عليَّ أن أتحرَّر من الأشياء التي أعجز عن فهمها حتى مع مرور الوقت، ورغم ذلك فلا زِلتُ غير قادرة على نسيان أي ذكرى ولو صغيرة.

في بداية الأمر ظننت أنه ربما لم يلحظني. لا محال أن يكون قد رآني وأنا ألوِّح له، ثم تَظاهَر بأنه لم يرني، ولكنه تخطَّاني في ذلك اليوم مرارًا وتكرارًا دون أن يلحظني، حتى إنه لم يظهر عند المقعد الخشبي الذي نلتقي عنده كل ليلة. ظننت أنه ربما قد يكون مريضًا، حتى رأيته وأنا عائدة للسكن بعد أن عُدتُ من عند المقعد الخشبي، وأنا أتضاحك مع بعض المتطوِّعين الأفارقة. حينها رفعت يدي مرَّةً أخرى ولوَّحتُ له، ولكنه حوَّل رأسه.

حدث ذلك في الثاني عشر من سبتمبر، قبل أسبوعين من سفره لنيروبي.

كتبتُ: "هانجي حوَّل نظره بعيدًا".

ربما كان مستاءً من شيء لا أذكره. ربما ألقيت عليه دعابة وقحة. ولكنني كنت حريصة على الدوام؛ لأنني لم أشأ أن أجرح مَن أُحبُّ. لم أكن طفلةً تتحدث كيفما تشاء دون مراعاة لما تقول، وحتى لو افترضت بأنني أسأت إليه، ألم يكن من الممكن أن نتحدث في الأمر؟ تُرى، هل اقترفتُ أمرًا جَلَلًا بحيث يعجز معه النظر لوجهي أو الكلام معي؟ أو هل حدَّثه أحد ما عني بسوء أو حاول الإيقاع بيننا؟ لو

حاول أحدهم التحدث عنك بسوء أمامي لما كنت صدَّقتهم، وعلى الأقل كنت لأستفسر منك عن الأمر.

هانجي قال لي في تلك الليلة أيضًا: "أراكِ غدًا"، في الظلام، وبنفس تلك العينين المُحبَّتَيْن، أنت قلت لي ذلك.

رغم ذلك فهنالك ما يزعجني. كان يقول لي بشكل متكرِّر:"أنتِ بسيطة". كان يقول لي ذلك وهو يضحك، ورغم ذلك شعرت في عدة مرَّاتٍ بأنه يعني ما يقول. وفي مرة، بعدما قال لي: "أنت بسيطة للغاية"، أردف، وكأنما أراد أن يُفسِّر كلامه، قائلًا: "فالبساطة محمودة".

ولكنني لا زِلتُ لا أعلم ماذا كان يقصد ببساطتي.

كانت جدَّتي تقول لي وأنا طفلة: "الذاكرة موهبة. وقد وُلِدتِ بها، ولكنها مؤلمة؛ لذا حاولي أن تكوني أقلَّ حساسية، وكوني أكثر حيطة مع الذكريات الجميلة يا عزيزتي؛ فالذكريات الجميلة تبدو كالجواهر، غير أنها في حقيقة الأمر جمرٌ مُستَعِر، ستؤذين نفسك لو أطبقتِ عليها؛ لذا أطلِقي سراحها وانفضي غبارها عن يديك. بُنيَّتي، تلك ليست بالهدايا".

ولكنني أتذكر.

جدَّتي، التي كانت تدين بالبوذية، قالت لي يومًا إن الأموات يستمرُّون في التناسُخ بسبب ذكرياتهم عن هذه الحياة. وقالت: حين يلتصق قلبك بذاكرة، فلن تكون هناك طريقة لنزع تلك الذكرى، وبذلك يتجدَّد الميلاد فينا مرَّاتٍ ومرَّات. قالت لي ألَّا أتأذَّى بشكل مبالَغ فيه بعد موت عزيز أو فراق حبيب، وأن أنتحب ما شئتُ، ولكن أن أحذر من أن يبتلعني الحزن. وإن لم أفعل؛ فسأظل حبيسة هذا العالم، لا أنفكُّ منه. الجزء الأخير أرعبني.

فالوقت يمرُّ، والناس يرحلون، ثم نصبح وحيدين مجدَّدًا.

وإن لم نقبل هذه الحقيقة، فستعمل الذاكرة على تآكُل الحاضر، وتُرهق العقل، حتى يقودنا للشيخوخة ويُمرضنا.

كان ذلك ما قالته لي جدتي.

أذكر كلماتها تلك على الدوام.

بدأ هانجي يعاملني كأنني غير مرئيَّة بشكل صريح. لم يكن الأمر مجرَّد تَجاهُل لتحيتي حين ألقاه، ولكنه بدأ يدير ظهره ويغيِّر مساره حال قابَلَني صُدفَةً. لم يحمل في عينيه أي غضب، ولو القليل. كل ما في الأمر أنهما بَدَوتا غير مكترثتين، باهتتين ومتعبتين. لم أملك القدرة على اللحاق به أو حتى النطق باسمه. لم أملك الشجاعة.

تابعت هانجي وهو يزيل القمامة من مكان بعيد. كان يرتدي قفَازًا في يده اليمنى وصل لمرفقه، بينما حمل ملقطًا في يسراه. كان يستخرج الأكياس البلاستيكية، القوارير الزجاجية، والعلب الورقية من سلَّة القمامة ويضعهم في كيس شبكي، وأخذ يكرر تلك العملية. أخذت حبَّات العَرَق تتساقط من ذقنه وعنقه وإبطه، بينما ابتلَّ قميصه الأزرق تمامًا من منطقة الظهر. كان فمه مفتوحًا قليلًا، وظهره محنيًا، وهو يقوم بمَهمَّته في تركيز وصمت.

كنت أتوقع أن أفقده في يوم ما، ولكن ليس الآن.

حينما كان يبتسم لي، ويدَّخر من وقته للتمشية معي، ويقول بأنه يعتبرني أقرب أصدقائه؛ كنت أعتقد أن هذا من باب المبالغة، ولكن يظل الأمر مُجحِفًا حينما ينتهي كل هذا دون أي تفسير.

اقتربت من هانجي وهو يزيل القمامة. وقد أحسستُ حينها بالدوار.

"هانجي!".



نظـر لي دون أن ينبـس بكلمـة، وكان وجهـه جامـدًا، خاليًـا مـن أي ابتسـامة. وحـين رأيـت وجهـه هـذا نسـيت مـا أردت قولـه، وكنـت مصدومـةً لا أقـدر عـلى النطـق. بقيـت نظراتـه عالِقـةً لوهلـة عـلى وجهـي، ثـم انصرفـت.

كان ممسـكًا بحقيبـة شـبكية مملـوءة بالزجاجات البلاسـتيكية. لاحظت عـددًا مـن الذبابـات الطائـرة تحـوم حـول زجاجـات الكـولا التـي بـدت لَزِجَـةً للغايـة، ثـم سـمعت صيـاح بعـض النـاس الممـزوج بالضحـكات قادمًـا مـن مـكانٍ مـا. وبينـما وقفـت في مـكاني عاجـزة عـن اسـتجماع الكلـمات، أخـذ هانجـي يضـمُّ فتحـة الكيـس الـذي بحوزتـه بيـد واحـدة وحملهـا بعيـدًا. كان يمـشي متصلّبًـا في جمـود كدميـة خشـبية.

وقفـت متسـمّرةً في مـكاني أمـام صنـدوق القمامـة أحـدّق في الرقعـة التـي شـغلها هانجـي منـذ دقائـق قليلـة. هانجـي لم يقُـل لي أي شيء، ولكنـي كنـت أعلـم، فالسـبب الـذي جعلـه يتجنّبنـي لم يكـن مهـمًّا؛ إنـه يتجنّبنـي الآن، ورفـضي لذلـك الأمـر يحوّلـه وكأننـي أضايقـه.

لم أُرِد أن أضايقه.

لم يكـن مـن الصـواب أن أعتـذر لـه بـأي طريقـة، أو حتـى أن أطلـب تفسـيرًا.

الناس يرحلون... هكذا قالت لي جدتي.

وكل ما عليَّ هو أن أقبل هذه الحقيقة كما هي.

هذا ما همست به لنفسي.

أحلم في بعض الأحيان، أحلم بتمشية مسائية.

مثـل فـترة الدهـر الجهنمـي، حـين لم يكـن عـلى الأرض حيـاة؛ لا حلـزون ولا أشـجار الزيزفـون، ولا بيـتر الـذي يحـوم حولـه الذبـاب، ولا خـراف تنعـس وقـت قيلولتهـا، ولا وحيـدَيْ قـرنِ هانجـي، ولا شـباب ولا عَجَـزة،

ولا طلبـة دراسـات عليـا، ولا رهبـان، ولا عُنصريّـين ولا قمامـة تخـرج مـن أفواهـم.

في تلـك العتمـة الفارغـة، أفكّـر حينهـا "كـم كانـت الأرض مكانًـا وحيـدًا ذات يـوم".

فأخذت الأرض ترتفع وتتآكل وتترسّب بقوة.

بلا هوادة، حتى وإن كانت وحيدة.

العـالم رمـادي، وتُصـدر البراكـين دويًّـا هائـلًا مـن بعيـد. أنـا ذاهبـة في ذلـك الاتجـاه. أمـشي لوقـت طويـل حتـى أرى كنيسـة صغـيرة بالقـرب مـن الديـر، السـكن المخصَّـص للعائـلات، القريـة التـي مشـيت فيهـا مـع هانجـي. وأرى نفـسي وهانجـي مـن بعيـد ونحـن نُبلِّـل أقدامنـا عـلى جانـب النهـر. ولا أحـد سـواهما في هـذا العـالم. عـليّ أن أنـزل مـن أعـلى الجـسر وأسرع إليهـما، ولكننـي لا أجـد طريـق النـزول، ومهـما عانيـت فـلا أهتـدي للطريـق.

وفجأة يتغير المنظر.

أجلـس مـع هانجـي عـلى المقعـد الخشـبي أمـام النافـورة، نجلـس في الظـلام في صمـت.

يقول لي هانجي هذا الكلام.

"سـنلتقي مـن جديـد، وحينـما نلتقـي احـكي لي عـن الذكريـات التـي فَقَدِتِهـا؛ هـذا لأننـي سـأنسى كل شيء، حتـى أنـتِ. وهـذا الوقـت".

قال هانجي هذا الكلام وهو يضحك في حزن.

أردتُ أن أجيبـه، ولكنـي لم أقـدر عـلى فتح فمـي. أحـاول جاهـدة أن أنظـر صوبـه، ولكـن كل مـا أجـده هـو كيـس شبكيٌ في مكانـه وقـد فتـح فمـه عـلى آخـره. الكيـس الـذي مـلأه هانجـي بالزجاجـات البلاسـتيكية.

لم أرغب في أن أحتجّ بألمي أمام الآخرين.

قُمتُ ببساطة بأداء حصتي من المهام الموكلة لي، أكلت، وحضرت الصلوات الجماعية ثلاث مرات يوميًّا. وفي الوقت الذي كنت أتمشى فيه مع هانجي بدأت أقرأ في السكن في الغرفة المشتركة أو أحتسي الشيكولاته الساخنة وأتسامر مع المتطوعين الآخرين. وفي المساء كنت ألعب لعبة الورق، أو أصنع الأساور مع الفتيات القادمات من أمريكا اللاتينية، وألعب تنس الطاولة على المائدة في الغرفة المشتركة. ضحكت حتى دمعت عيناي. وبحلول الساعة الثانية عشرة مساءً حينما أدخل الغرفة أجد جميع الفتيات المشاركات لي في الغرفة قد نِمن؛ فأتدثَّر تحت غطائي وأبكي دون صوت حتى أنام.

جاءت كارو لرؤيتي في إحدى تلك الليالي. فتحت باب غرفتي وهمست باسمي.

"يونج جو".

سحبتُ غطائي فوق رأسي وتظاهرت بأنني نائمة.

"استيقظي يا يونج جو، لن يستغرق الأمر طويلًا".

جفَّفتُ وجهي المبلل بالدموع فوق وسادتي ونهضت. مشينا حتى واجهة المخزن، ثم أحضرنا صندوقين ورقيين لنجلس عليهما.

"آسفة لإيقاظك، ولكني وجدت أمر التحدث معك صعبًا إن لم أفعل ذلك، فبعد أوقات العمل أجدك في صُحبة باقي الفتيات في الغرفة المشتركة".

"هذا صحيح".

"شعرت بأنك تتحاشين الكلام معي على انفراد".

"لم أتحاشاكِ مُطلَقًا".

"لو لم يكن كذلك فأنا آسفة. في الغالب أنت تعرفين فيم أريد أن أحدِّثكِ".

"الأمر بخصوص هانجي. هل حدث شيء بينكما؟" اهتزَّ صوت كارو في ضعف.

وجه كارو جميل. أنتِ لا تعملين شيئاً. فجأة شعرت بنفسي حانقةً عليها وهي التي لا ذنب لها.

"ولماذا تسألينني عن ذلك؟".

"من باب الفضول. لماذا لا تلقيان التحية على بعضكما البعض بعد أن كنتما ملتصقين. الجميع يتحدث عنكما، هل تعلمين ذلك؟ رغم أنهم لا يذكرون الأمر أمامكما. هانجي يبدو مُتعَبًا. لم يحضر إلى التَّجمُّع الإفريقي الثلاثاء الماضي، ويبدو أنه لا يلتقي بباقي الرفاق في السكن كذلك".

"وماذا إذن؟".

"لا أعلم لماذا تعاملين هانجي بهذه الطريقة. إنه شخص طيب كما تعلمين".

فقَدتُ الكلمات.

قلت لها: "لا أعلم ماذا سمعت من هانجي".

"هانجي لم يَقُل لي شيئًا".

"إذًا لماذا تُخمِّنين كل تلك التخمينات والتحليلات وتوجِّهين لي الاتهام وحدي وتوقِعين عليَّ اللوم، هل أيقظتِني من سريري في هذا الوقت المتأخر لتضايقيني؟".

أدركت أنني أقول أمورًا فظيعة. كانت كارو تسأل بكل بساطة؛ رغبة في الاطمئنان على هانجي، ولكني تصرَّفتُ بدافع عاطفي. انفصلت عن ذاتي ونظرت لنفسي بلا مبالاة وأنا أتحدث بشكل عاطفي.

قالت كارو: "أنت تتحدثين وتضحكين، وتلعبين الورق وتنس الطاولة مع الآخرين، وفي الوقت نفسه هانجي يعاني". رغم أن نبرة صوتها كانت حذِرةً، ولكني أحسستُ من كلماتها أنها تحكم عليَّ.

"نعم أنا أفعل ذلك، وماذا يعنيك في الأمر؟".

قلت لها هذا الكلام بكلمات إنجليزية مقتضبة ومباشرة. كانت ككلماتٍ لفظها طفل صغير فبَدَت طفولية وحادة. أردت أن أشرح لها أنه يتجاهلني، وكم يؤلمني هذا الأمر، ولكني لم أستطع أن أشرح لها لِمَ لَم أقدر على سؤال هانجي عن سبب تغيُّره هكذا. المفردات الإنجليزية الطافية داخل رأسي فشلت في تحقيق نظامٍ، وأخذت تتشابك وتتعقَّد حتى عجزتُ عن النطق بها عاليًا. كارو. لم يكن ذلك ما أردت قوله. امنحيني دقيقة. دقيقة لأفكر، لأختار الكلمات الصحيحة حتى أكوِّن جملة ذات معنى.

نظرت لي كارو وقد اتَّسعَت عيناها. لا يمكن لكلماتي الصريحة أن تجرح كارو. ما رأيت في عينيها كان خيبة أمل. وكأن عينيها قالتا لي: "إذًا فهذه هي حقيقتك ولا شيء آخر".

"قلتُ ما قلته لأنني كنتُ قَلِقةً عليكما. قلت لك ذلك سابقًا، هانجي لم يسبق له أن كان قريبًا من أحد مثلما كان قريبًا منك. يونج جو، هانجي إنسان جيد. شعرت ببعض الراحة حينما وجدته قد نجح أخيرًا في تكوين صداقة جيدة؛ لأنه كان عنده ذلك الجدار غير المرئي على الدوام. وظننتُ أنه تمكَّن من هدم ذلك الجدار معك، ولكنه يبدو مجروحًا".

كانـت صامتـة لبعـض الوقـت، ثـم قلـتْ: "هانجـي يتحاشـاني. لا أسـتطيع حتـى أن أكلِّمَـه".

"هل تشاجرتما؟".

"كلّا، كنـا نتحـدث في اليـوم السـابق قبـل أن يبـدأ في تجنُّـب الـكلام معـي".

"حقًّا؟".

"حقًّا".

"يونـج جـو، لا أفهمـك. إذًا اذهبـي وواجهيـه بالأمـر. اسـأليه لِـمَ يتحاشـاكِ. عليك أن تحـلِّي الأمـر. ولكـن لا تفعـلي مثلـما تفعلـين الآن، أن تسـتمرِّي في الاسـتمتاع بحياتـك، وكأن شـيئًا لم يكـن، ليـس مـن مصلحتـك ولا مصلحتـه. أنـت تكذبـين عـلى نفسـك بالتظاهـر بأنـك سـعيدة هنـا بينـما لديـك مـا يشـغل عقلـك".

قلت لها وكأنني لم أسمعها:

"سأخلد للنوم الآن؛ فلديَّ عمل في الفترة الصباحية".

كارو، لا أريد أن أضايق هانجي.

في ذلـك الأسـبوع، عملـتُ في مطبـخ الحِميـة؛ فبعـض الـزوار كانـوا لا يتحمَّلـون اللاكتـوز أو الجلوتـين، أو لديهـم تحسُّـس تجـاه البقوليـات أو المكسـرات أو القشريـات أو الطماطـم ومثـل تلـك الأشـياء. وكنّـا نحـضِّر وجبـات خاصـة لهـم في مطبـخ الحِميـة. كنـا نسـلق البطاطـا والجـزر والبيـض، ونطهـو الأرز المسـلوق والكسـكسي المبخَّـر، ونغسـل الخـسَّ لتحضـير السـلطة. والقليـل مـن النـاس كان بإمكانهـم تنـاول الأجبـان؛ لـذا جهَّزنـا بعضًـا منـه في السـلة.

في ذلـك اليـوم كان مخـزون الجـبن قـد نفـد منّـا؛ فأرسـلني الشـخص المسـؤول عـن مطبـخ الحِميـة إلى المطبـخ الكبـير. كنـت أعلـم أن هانجـي

يعمـل هنـاك، إلا أن المطبـخ الكبـير كان واسـعًا بمـا يكفـي بحيـث لا يـراني حـين أدخـل للمنطقـة الخلفيـة مـن المطبـخ حيـث توجـد الثلاجـات وبذلك آخـذ غـرضي مـن المـكان ثـم أرحـل سريعًـا.

أضـأتُ نـور مخـزن المـؤن ودخلـتُ فوجـدت هانجـي يحمـل صنـدوق تفـاح.

نظـرت لوجهـه لمـدة ثانيـة، ثـم أفسـحت لـه الطريـق دون أن أنطـق كلمـة واحـدة. ولكنـه وقـف في مكانـه يتابعنـي وهـو يحمـل الصنـدوق بـين ذراعيـه.

وبعدمـا وضعـت جميـع قطـع الجـبن في سلَّتي، وحينـما اسـتدرت، كان هانجـي لا يـزال واقفًـا في مكانـه. ارتعـش المصبـاح المعلَّـق في سـقف مخـزن المـؤن. رغـم أن هانجـي ظـل واقفًـا في مكانـه وشـكله يوحـي بأنـه يريـد أن يقـول لي شـيئًا، إلَّا أنـه لم ينبـس بكلمـة واحـدة.

مجرَّد أنه لم يتجنَّبني منحني الشجاعة لأتحدث إليه.

خفضـت نظـري تجـاه التفـاح في الصنـدوق الـذي كان يحملـه، ثـم قلـت لـه:

"شـكرًا لأنَّـكَ لم تتحاشَـني. لـن آخـذ مـن وقتـك كثـيرًا. لا يمكننـا أن نبقى هنـا كثـيرًا عـلى أي حـال لأن الجـو بـارد للغايـة؛ لـذا اسـمعني مـن فضلـك، لا ترحـل وكأني غـير موجـودة". أنهيـتُ كلامـي ونظـرت لوجهـه.

كان يبكي.

"لـن أسـألك عـن سـبب تصرُّفـكَ عـلى هـذا النحـو. رغـم أننـي أودُّ معرفـة السـبب، ولكـن مـا فائـدة ذلـك؟ لـو كنـت قـد اقترفـت خطـأً في حقِّـكَ، فسـواء سـامحتني أو لم تفعـل؛ فالأمـر يرجـع لـك. وإن كنـتَ تفعـل ذلـك ليـس بدافـع شيء قـد قُمـتُ بـه ولكـن لأسـبابك الشـخصية؛ فبإمـكاني تفهُّـم ذلـك، أيًّـا كانـت تلـك الأسـباب. ولكـن إن كنـتَ قـد أسـأتَ الظَّـنَّ بي

بسبب كلام أخبرك به شخصٌ آخر وأنتَ لم ترَ إخلاصي، فإنه لأمرٌ مُخزٍ حقًّا". كنت أرتعش من الخوف والبرد معًا وأنا أتحدث. "لا يهمُّني كيف تعاملني بسوء، ولكن لا توجد طريقة في هذا العالم تجعلني أكرهك. أنا راضية بهذا الوضع، شرط أن أشاركك نفس المكان. إنني أبكي حتى وأنا أسير كلّما فكّرتُ في أنني لن أراك بعد أسبوع. أعتقد أنني لن أستطيع أن أتحدث معك هكذا بعد الآن. هانجي. أرجوك لا تختفِ من حياتي".

كتمتُ دموعي وتمالكتُ نفسي قدر الإمكان لأكمل كلامي.

"هانجي، لن أزعجك بعد الآن. اعتنِ بنفسك في نيروبي. قلتَ بأنك تنسى سريعًا الأحداث التي حدثت في الماضي. أبقِ الذكريات الجميلة وانسَ الباقي. لا، بل انسَ الذكريات الجميلة أيضًا. أتمنى أن تبقى بصحة جيدة، وكذلك أسرتك، وليا".

"هانجي! هل أنتَ بالداخل؟".

كان هنالك مَن يطرق الباب من الخارج ويبحث عن هانجي.

مسح هانجي دموعه بظهر كفّه وفتح باب مخزن المؤن ثم خرج.

خرجت بعده على الفور، ولكن البرودة التي سَرَت حتى عظامي لم تنفكّ عن جسدي سريعًا. ورغم ذلك كانت جبهتي تغلي بالحرارة.

قدّمتُ على طلب تأمُّلٍ صامت لمدة أسبوع.

جمعت كل أغراضي من السكن وذهبت لبيت الصمت، الذي كان يقع خارج الدير. كان بيتًا قديمًا ذا حديقة كبيرة. وأُطلِقَ لفظ "حديقة" على المكان، ولكنه في حقيقة الأمر كان حوضًا فوضويًّا لنباتات غير مُعتَنًى بها بدت جُحرًا مناسبًا لخروج الحيّات منه ليلًا. في بيت الصمت، كانت لديك غرفة خاصة بك، وتصلك الوجبات من

الدير. ولتصل للدير كان عليك أن تمشي لمدة نصف ساعة لحضور الصلوات الجماعية، كما يتم إعفاؤك من الأعمال الأسبوعية المعتادة.

اليوم بلا أشغال كان طويلًا ومؤلمًا. حاولت أن أتمالك نفسي وأن أقرأ، ولكن عيني لم تقع على أي كلمة.

بدأ التعب الناتج عن العمل طوال تلك الفترة والقلق والأوهام التي تمَّ قمعُها سابقًا تتقافز بداخلي. وأكثر الأوهام البائسة التي راودتني حينما كنت أفكر أنه كان في وسعي أن أبقى على علاقة جيدة مع هانجي لو أني فعلت في الماضي هذا أو ذاك.

حينما سألني أن أرافقه في تمشية في منتصف الليل، ماذا لو كنتُ وافقت بدلًا من رفض طلبه؟ وحين سألني لو كنت كتبت عنه في مفكِّرتي، ماذا لو كنت صادقةً معه وأخبرته أن معظم الأشياء التي كتبتها كانت عنه؟ حينما حدثني عن الحيوانات التي لم يسعه إنقاذها، ماذا لو كنت تركت صمتي إثر دهشتي وقلت له لأواسيه: "لم يكن خطأَك"؟ وفي الوقت الذي كنتُ أثرثر فيه حول أصل الحلزون، لِمَ لَم أمنحه الفرصة ليتحدث عمَّا أراد أن يقوله لي؟ هل خنَقْته بساطتي؟ ربما حاولت لقاءه بشكل متكرر. هل احتكَرتُ الوقت الذي كان يُخصِّصه لنفسه بحيث دَفَعته للإحساس بالضجر من تمضية الوقت معي؟

الصمت دفعني بقوة لرؤية الوجه الحقيقي لرغباتي بشكل صريح.

الرغبة في تلقِّي الحب، الرغبة في التواصل مع أحدٍ ما بشكل عميق وبلا فراق، الرغبة في النسيان، الرغبة في عدم النسيان، الرغبة في أن يستوعبني أحدهم كلِّيًا دون أن يعارضني، الرغبة في ألَّا أُجرَح، الرغبة في أن أحب حتى لو جُرحت، والأهم من ذلك، الرغبة في أن أرى هانجي.

بعدما التقيت بهانجي في مخزن المؤن قرَّرتُ ألَّا أسعى لرؤيته.

كنت لألتقي به لو أنني جلست في مقاعد المتطوّعين في الكنيسة أو ذهبت للمطبخ الكبير، ولكني بذلتِ جهدًا واعيًا حتى أتجنّب لقاءه. كان من المفترض أن يعود لنيروبي بعد أقل من أسبوع في ذلك الوقت، وظننت أن تخيُّلَ أنه قد سافر بالفعل سيكون حلًّا أقلَ ألمًا، اختيار ألّا أراه الآن كان أهونَ عليَّ من عدم قدرتي على رؤيته لاحقًا.

كلَّما دخل هانجي أفكاري، دخلتُ خلال الحشائش الطويلة في الحديقة وأنا أسمِّع الجدول الزمني الچيولوچي. ولكن تسميع الجدول لم يفلح في إبعاد خياله عن ذهني. كان يتنفَّس في كل عصر چيولوچي. كان هناك وقت الخلق الأول للأرض، وحينما لم يكن الكوكب سطحًا صُلبًا، وحينما لم تظهر حيوانات اليابسة بعدُ. كان خالدًا ما دُمتُ أذكره. وقد قَبلتُ هذه الحقيقة.

جلست على كرسيٍّ في أحد أركان الحديقة وكتبت ما أردت أن أقوله لهانجي. كتبته بالكورية أوَّلًا، ثم بالإنجليزية، ولكن مع أخطاء إملائية جسيمة، وفقرات مفقودة هنا وهناك.

هانجي

أنا في بيت الصمت الآن. الساعة الخامسة عصرًا، والجو بارد بعض الشيء.

الليلة، ستحضر حفلة وداعك برفقة الآخرين. أحدهم سيعزف لك الجيتار، وغيره سيغني، وآخر سيتحدث عن ذكريات الوقت الذي قضاه معك. أنت وكارو ستتحدَّثان عن الوقت الذي قضيتماه هنا، وستشكران الجميع. لن أكون موجودة في حفل الوداع، وستكون مرتاحًا لأنني لم أظهر.

ستغادر لنيروبي غدًا، وهناك ستجتمع مرة أخرى بعائلتك في منزلك وقت العشاء. كم ستكون ليا سعيدة برؤيتك. وكم ستكون سعيدًا

برؤيتها. ستستحم، وتُفرغ حقائبك، ثم تتناول الطعام مع عائلتك. ستريهم الصور التي التقطتها على هاتفك وتحكي لهم عن هذا المكان وكأنَّكَ لم تَمُرَّ سوى بالأمور الجيدة فقط. وفي الوقت ذاته ستشعر بالذنب لأن أسرتكَ لا تستطيع أن تبرح مكانها؛ ولذا ستكون في خدمتهم بشكل أكبر، وربما ستعود عمًّا قريب لعملك في المشفى البيطري.

وبمرور الوقت ستكون مرتبكًا بعض الشيء، وربما شعرت ببعض الغرابة أنك قضيت بعض الوقت في دير في قرية ريفية نائية، وأنك شاركت حكايتك مع فتاة كورية صغيرة الحجم، وتمشّيتَ معها يوميًا، وحينها سيكون السبب الذي دفعك لتجنُّب تحيتي وتجاهُلي قد تلاشى. وحين تذكرني في تلك اللحظة، سأكون قد تحوَّلتُ لذكرى بلا وجهٍ ولا صوت. سأكون شخصًا لم يترك في حياتك إلا أثرًا طفيفًا لا يُذكَر، وربما لم أترك أيَّ أثر من البداية، شخص غريب لا علاقة له بك.

ومثلك، سيكون عليَّ ترك هذا المكان والعودة لمحل إقامتي الأصلي. وسأواصل دوامي في المعمل من جديد، وأتعامل مع الصخور، وأسافر في رحلات علمية لكهوف اليابان والصين، وسأرتدي الملابس، وأضع تعبيرات على وجهي أكثر ملاءمةً لعمري، وسأكافح حتى لا أدخل في صراعات مع أي أحد، وسأتذكَّر وقتي هنا بين الحين والآخر؛ أكثر وقت شعرت فيه أنني على طبيعتي، وسأتذكر نفسي وأتذكرك من ذلك الوقت.

أشكرك لبقائك معي في قلبي الوحيد.

هانجي،

آمل أن تغمرك البركة في جميع أوقاتك المُقبلة.

كما أتمنى لك أن تُرزَق بنعمة النسيان، وأن تجد القوة لتكون حاضرًا لحظة بلحظة.

يونج جو

كتبت خطابي، ثم مزّقتُ الصفحة التي تحتوي على ترجمتي من الكورية للإنجليزية وألقيتها. وضعت دفتر مذكراتي في حقيبتي وعُدتُ للدير. وفي دفتر يومياتي دوّنت أحداثي بشكل يوميٍّ بالكورية على مدار السبعة أشهر التي قضيتها في الدير.

كان موعد الصلاة المسائية، حيث كانت هناك أغنية يتبعها صمتًا، ثم أعقبهما المزيد من الأغنيات، وبعدها خرج الرهبان من قاعة الصلاة. كان هانجي يجلس ساكنًا في منطقة مقاعد المتطوّعين مُثبّتًا نظره لأيقونة معلّقة على أحد أعمدة الكنيسة. لا أعلم كم بقي على هذه الحال. نهض من كرسيه ومشى أمام الكنيسة وانحنى أمام الحائط وأغلق عينيه. وكانت تلك الصورة الأخيرة التي رأيتها لهانجي، ولم أستطع الاقتراب منه.

غادر الناس المكان.

ثم نهضت من مقعدي وخرجت من قاعة الصلاة، وهناك وجدت كارو واقفة.

همستُ في أذنها قائلةً: "مع السلامة يا كارو".

قالت لي كارو: "ليس عليكِ التّحدُّث؛ أنتِ في فترة أسبوع الصمت، أتذكرين؟".

سلّمتها بطاقة بريدية كنت قد كتبتها لها. كتبت فيها كم كنتُ مُمتنّة للثلاثة أشهر الماضية، وظننت أنني لم أخبرها من قبل كم هي شخص جميل. أعطتني هي الأخرى بطاقة بريدية، وضعتها في حقيبتي وودّعتها للمرة الأخيرة.

وفي طريق عودتي لبيت الصمت قابلت ثيو، الذي كان قد انتهى للتو من توصيل الطعام عندي. تردّدتُ لبعض الوقت، ثم أخرجت دفتري من حقيبتي وناولته إياه.

"سلِّمها لهانجي من فضلك. هذا دفتر هانجي".

تردَّد ثيو قليلًا، ثم أمسك بالدفتر.

ثم سألته: "هل تعلم السبب وراء تجنُّب هانجي لي؟".

حرّك ثيو رأسه بالنفي. ورمقني بنظرة كأنه ينظر لشخص مخبول.

"سأعطيها لهانجي حين أقابله. سيعود لنيروبي غدًا ".

"أعلم ذلك".

"ألن تحضري حفلة وداعه بعد قليل؟".

"لن أذهب هناك".

تردَّد ثيو للحظة، ثم قال:

"لا أعلم إن كان مسموحًا لي بأن أقول ذلك الكلام، ولكن موضوع أنكما لم تتصالَحا حتى آخر لحظة أمرٌ فظيع".

كان ثيو يستعمل كلمة "فظيع" كلَّما أراد التعبير عن مشاعر سلبية. كان ضعيفًا في اللغة الإنجليزية، ولم يكن يعلم سوى القليل من الصِّفات، فالطعام غير المستساغ، الجو شديد المطر، بثور وجهه، شَعره المجعَّد؛ كان يصف كل ذلك بالفظيع. ولكنه حينما وصف علاقتي بهانجي بكلمة الفظيع تحوَّلت الكلمة لسهم اخترق روحي.

فمثل هذه النهاية للعلاقة لا يمكن تلميعها بكلمات جميلة.

عُدتُ ببطء لبيت الصمت.

كانت الليلة الأخيرة التي سيقضيها هانجي في الدير. بقيت مستيقظة طوال الليل، ثم مشيت تجاه الدير في العتمة. كان موعد طائرته في السابعة والنصف صباحًا، وعلى الأغلب فإنه سيرحل من الدير في الخامسة، هذا ما ذكرته لي كارو، ولكن حينما وصلت كانوا قد استقلُّوا السيارة ورحلوا بالفعل. لم أعِ الأمر حينها، ولكن يبدو

أنني لم أستطع أن أستجمع شجاعتي بشكلٍ كافٍ. وأقنعت نفسي حينها بأنني لم أتمكَّن من اللحاق بهم، ولكن في قرارة نفسي كنت أعلم أنها لم تكن الحقيقة.

عدت لسكن النساء بعد يومين من رحيل هانجي عن الدير. كنت مرتدية الملابس الصيفية حينما أقمت في بيت الصمت، ولكن درجة الحرارة قد انخفضت كثيرًا خلال ذلك الأسبوع، لدرجة جعلت الجميع يرتدون السترات الصوفية والسترات ذات القلنسوة (الهودي). عاد المتطوِّعون الوافدون من الدول النامية واحدًا تلو الآخر، دون علمي، لبلادهم، ولم يبقَ في الدير سوى المتطوِّعين الأوروبيين ومُتطوِّعي كولومبيا وباراجواي. كان هنالك حوالي خمسة وخمسين متطوِّعًا في الدير، ولكن هذا العدد قد تقلَّص لخمسة عشر متطوِّعًا فقط في غضون ثلاثة أسابيع. أضحت الغرفة المشتركة خاوية إلَّا من بعض إبر الحياكة وكرات الغزل المتدحرجة على الأرض، بعد أن كانت تعجُّ بالأصوات الصاخبة والمتطوعين الذين كانوا يحيكون. البعض لم يتمالك نفسه ولم يقبل هذا التغيير وبدأ يذرف الدموع بينما يحتسي كوب الشاي.

كانت دموعهم تنزل حنينًا لمن رحلوا عن الدير. تلك الفرحة النادرة، لشخص بالغ، حين يستمتع بمحبَّة الآخر ويعيش معه في ظل صداقة غير مشروطة. السعادة التي خُلقت من التواجد معهم خلال ذلك الوقت الذي لن يتكرَّر ولن يستمر. دموعهم نزلت حدادًا على وقت قد نسوا فيه الوحدة.

عاد دفتر يومياتي بين يدي من جديد.

قال لي ثيو: "هانجي لم يأخذ الدفتر. قال لي إنه يهمُّكِ. لم أقصد أن أتطفَّل وأتصفَّحه. ولكن الدفتر فُتح عن غير قصد، وكانت الكلمات بداخله مكتوبه بحروف غير مفهومة. هل هذه هي الأبجدية الكورية؟".

"نعم".

"وهل يستطيع هانجي قراءتها؟".

"كلَّا".

ناولني ثيو الدفتر وعلى وجهه تعبيرٌ يوحي بعجزه عن قراءة ما هو مكتوب.

غادر ثيو الدار بعد يومين. ولا زلت أذكر صوته ذا النبرة العالية وهو يتحدث الفرنسية. قال لي إنه من الفظيع أنني لم أتصالح مع هانجي. وكأنه يقول إننا قد اقترفنا ذنبًا فظيعًا بحق أحدنا الآخر. لا زِلتُ أذكر كيف امتعض وجهه وهو يقول لي ذلك.

كوَّرتُ دفتر يومياتي ووضعته في حفرة حفرتها بداخل الجليد، وأخذت أدسُّه بقوة ليدخل بعمق، وإذا به ينزلق في الحفرة دون أدنى مقاومة أو احتجاج. هذا الدفتر لن يتحلَّل لآلاف السنين. لا أريد أن أولد مرارًا وتكرارًا خلال تلك الفترة الزمنية. أَوْلى بتلك الذكريات أن ترحل عني وتلتصق بالجليد.

وجه ليا.

كلمة: لا بأس.

حدود الجسم التي تتلاشى مع العتمة، وطرفة العين بين الحين والآخر.

العينان والشفتان الصامتتان.

البشرة السوداء اللامعة.

والحركة المُصطنعة حين حوَّل نظره بعيدًا عني.

وبساطتي التي وقفَت حائلًا يمنعني من فهمه حتى النهاية.

والوقت الذي انساب فوق كل ذلك.

تمزُّق.

كل تلك الأشياء، ستسقط في الجليد.

مثل كل الحيوات التي عاشت هنا زمنًا ثم رحَلَت.

مثــل روبــرت ســكوت، ومخروطيــات الأســنان، والقطـط ذات الأســنان الســيفية، وقــرد الأرض.

وحيدون، مهجورون.

أغنية قادمة من مكان بعيد

قَدِمتُ إلى سانت بطرسبرج بعدما أنهيت محاضرات فصل الربيع. بعد عشرة أعوام من بداية ميجين سونبيه[1] للدراسات العليا.

أرسلتُ ليوليا رسالة على الفيس بوك ماسنچر ليلة سفري، أخبرتها أنها ستعرفني على الفور حينما ترى فتاة آسيوية ترتدي فستانًا أخضر طويلًا. طلبت منها التالي "ولأكُنْ صريحةً، فالجميع يبدون متاشبهين في نظري. فهلّا بحثتِ عني بدلًا من أن أبحث عنك؟". كنت أتجوّل في توتُّر عند بوابات الوصول، وإذا بيوليا تضع يدها على كتفي وتبتسم لي. كانت نفس الفتاة البولندية التي ظهرت في الصور التي كانت ترسلها ميجين سونبيه، حيث تقف أمام الكاميرا دون أن تبتسم، بحاجبيها الكثيفين، وعينيها الرماديتين، وشفتيها الرقيقتين؛ ممّا جعلني

(1) كلمة تُطلق على الفتيات الأكبر سنًا أو الأقدم دراسيًا أو مهنيًا.

أتذكر وجهها البارد، ولكن قلبي اطمأنَّ حينما رأيت وجهها المبتسم في الحقيقة.

أخبرتها أن ترسل لي العنوان وسوف أجد طريقي، ولكنها أصرَّت على الحضور لاستقبالي، قائلة: "سآتي لأنني أريد ذلك. أنتِ ضيفة عزيزة علينا يا سو إن. فاسمحي لي بالقدوم".

"مكتب أبحاث ميجين يبعد حوالي عشرين دقيقة بالحافلة من منزلي. وحتى الحديقة الصيفية التي ترتادها على الدوام على بُعد مسافة قريبة كذلك. وسأخبرك بمكان مطعمها الڤيتنامي المُفضَّل". رُغم أن إنجليزيتها لم تكن مُتقنة إلا أنها تحدثت ببطء وبنطق يسهل فهمه.

"هلّا ذكَّرتِني، منذ متى وأنتِ تعيشين معها؟".

"منذ حوالي ثلاث سنوات. كانت ميجين أول شريك سكن عثرت عليه بعد انتقالي لهذا المكان. تشاركنا السكن حتى انتقَلَت لشقتها بالحرم الجامعي".

كان مبنى السقق السكنية الذي تقطنه يوليا على شكل حرف ㅁ بالكورية، والشكل المكافئ لطراز البناء سيُكوِّن عبارة عن شُقق ذات أروقة. إلا أن تلك كانت تحتوي على مساحة كبيرة مفتوحة من المنتصف على شكل الدُّونَت، وبها حديقة. كانت شقة يوليا بالطابق الثالث. وتتكوَّن من مساحة صغيرة لغرفتين وحمام وغرفة معيشة، وغرفة لغسيل الملابس ومطبخ. خلعت يوليا حذاءها ووضعته أمام الباب الأمامي.

"بدأتُ عادة خلع الحذاء في المنزل بعدما سكنتُ مع ميجين. تجدين الأمر مريحًا حالما تعتادينه".

شعرت ببرودة الأرضية الخشبية حينما لمستها قدماي.

"كانت هذه غرفة ميجين".

شممت رائحة القِرفة بشكل طفيف حينما فتحت يوليا باب غرفة ميجين سونبيه. كان بالغرفة سرير لشخص واحد، ومكتب ضخم من خشب البلوط، ورفُّ كتب فارغ، وخزانة مكوَّنة من ثلاثة أرفف، وخزانة ملابس، ونافذة كبيرة سمحت بنفاذ أشعة الشمس وقت الغروب.

" لم يكن لديَّ شريك سكن لبعض الوقت. أعتقد أن الغرفة كذلك ستكون مسرورة بوجود صُحبة. أخبريني لو احتجت أي شيء في أي وقت. هذا منزلك الآن".

استلقيت على الفراش الذي نامت عليه ميجين سونبيه لمدة ثلاث سنوات بعد أن أخذت حمَّامًا دافئًا، وتلحَّفتُ بغطاء السرير، وأخذت أحدِّق في سقف الغرفة بعينَيْ ميجين سونبيه. وبعكس توقُّعي، فقد نعست سريعًا، وحين فتحت عينيَّ كانت العاشرة صباحًا، ولا أعلم إن كان السبب طول فترةَ الانتظار في مطار موسكو التي استغرَقَت ستُّ ساعات عند تحويل الرحلة، أم أنه كان حِرماني من النوم بسبب تصحيح الامتحانات حتى الليلة التي سبقت سفري. غفوتُ في نوم عميق، حتى إنني لم أنتبه لخروج يوليا من المنزل. كان على طاولة المطبخ توست وتفاحة وبيضة مسلوقة ومربى البرتقال. ،

ستجدين عصيراً ولبنًا بالبرَّاد، توجد كذلك قهوة ثقيلة في ماكينة صنع القهوة. أتمنى لكِ يومًا سعيدًا.

حدَّدَت يوليا موقعي الحالي على خريطة المدينة، كما وضعت علامات بنقاط على أماكن مختلفة، وأضافت الملاحظات. مكتب أبحاث ميجين سونبيه، شقة ميجين سونبيه، المطعم الڤيتنامي، الحديقة الصيفية، الكاتدرائية الأرثوذكسية... حتى إنها أضافت بجانب تلك النقاط أرقامَ الحافلات التي عليَّ أن أستقلَّها للذهاب لتلك الأماكن.

كانـت ميجـين سـونبيه ترتـدي فسـتانًا بلـون أزرق سـماوي مـن الكتـان. لم يكـن الفسـتان فضفاضًـا، إلّا أن صِغَـر حجمهـا جعـل المنظـر وكأنهـا ملتحفـة بكيـس. كانـت تحمـل بـين أصابعهـا لفافـة سـجائر رفيعـة في إحـدى يديهـا، وبالأخـرى أمسـكت قائمـة الطعـام تتفحَّصهـا، وقـد تـلألأ شـعرها القصـير الناعـم في الشـمس.

"سـأطلب آيـس كريـم بالفانيـلّا. ومـاذا عنـكِ؟"، قلـتُ لها إنني سـأطلب مثلهـا، فنـادت عـلى النـادل وأخبرتـه بالطلبـين بالروسـية. أخذنـا نتحـدث ونحـن نتنـاول الآيـس كريـم عـن جـوّ سـيؤول وبيطرسـبرج، وعمـلِ كُلٍّ منّـا.

"لمـاذا تأخَّـرتِ في المجـيء؟ حسـبت مـن كلامـك وكأنـك سـتحضرين عـلى الفـور".

"آسفة".

"لا تتأسَّفي. أشعر بالسوء في كل مرة تعتذرين فيها".

"أعتذر لأنني أشعر بالأسف حقًّا".

"ولكنـي سـعيدة بقدومـك، حتـى وإن تأخَّـرتِ لهـذه اللحظـة". أرخـت الشـجرة بظلالهـا عـلى وجـه ميجين سـونبيه وهـي تتحـدث، فبَـدَت مرتاحة في ذلـك المنظـر أكـثر مـن أي وقـت مـضى.

قلـت لهـا: "الجلـوس معـك في هـذا المـكان يُذكّـرني بالسـياج حـول حديقـة مارونـير بـارك[1]. هـل تذكريـن الأشـجار التـي كانـت بجانـب ذلـك السـياج؟ تمكَّنّـا بفضـل تلـك الأشـجار مـن تأديـة عرضنـا تحـت الظـل". رسَـمَت ميجـين سـونبيه ابتسـامة ناعمـة إثـر كلامـي. كانـت في الخامسـة والعشريـن حـين قابلتهـا للمـرة الاولى. كـما كانـت تسـبقني بعـدة سـنوات في الفرقـة الغنائيـة الطلابيـة التـي انضممـتُ إليهـا في الجامعـة.

(1) حديقة تقع في شارع ديه هاك نو (شارع الجامعة) بسيؤول.

كنّا نقدّم العروض الغنائية في حديقة مارونير بارك في أمسيات الجمعة الأخيرة من كل شهر. وكنا نغني مستعينين بأصواتنا فقط دون اللجوء لاستخدام مكبِّرات الصوت أو الميكروفونات. السياج المنخفض الذي أحاط الحديقة كان مسرحَنا. وكنا نتسلّق أعلى السياج ونغني ونحن متأبّطي الأذرع، وأحيانًا متشابكي الأيدي، بينما تتأرجح يدانا المتشابكتان. حينما كانت تندمج أصواتنا سويًّا في جمع الظلام، كنت أتحرّر من وطأة التفاصيل الدقيقة في الحياة، ومن جسدي، ومن الأفكار المزعجة. وكأنّ لحمي وعظمي بدآ في التَّخلُّص من الوزن، فبات معهما جسدي كقنديلٍ ورقيٍّ أجوف يعرج للسماء مع أدنى تأثير للحرارة. وكان باستطاعتي التحليق أينما شئتُ بمجرد أن أقطع الحبل الذي يربطني؛ فلا يمكن لأحد أن يربطني فيعيقني، وكنت أؤمن بشدة في تلك اللحظات أنني خُلِقتُ لأغنّي، وأنني لن أستطيع العيش دون الغناء.

لا يمكنني أن أنسى تلك الأمسية في شهر إبريل حينما شاركت للمرة الأولى في عرض في الهواء الطلق. كنا قد انتهينا للتو من تكرار الأغنية، حتى بدأت ميجين سونبيه في أداء أغنية منفردة لم يكن مُخطَّطًا لها. توقّف المارُّون، والتفتُّ مع زملائي في الفرقة لننظر صوبها. كان صوتها الصافي الناعم يحمل عَزمًا، وقصة خاصة بها مُستقلّةً عن اللحن والكلمات. وحينما توغّلَت أغنيتُها في جسدي، توغُّلًا حادًّا، لكن لطيف، صعد إلى السطح جزءٌ مني كنتُ أحاول جاهِدةً أن أخفيه وأُبقيه سرًّا. لم أعلم على وجه التحديد ماهية الأمر، ولكن أغنيتها جعلتني أشعر بشعور ممتزج بين خجلي من نفسي وحزني. أردت أن أدفع بكلتا يديَّ على كتفيها الضعيفتين وأقبِّلها. أردت أن أمتزج بعالمها في تلك العتمة. كانت لديَّ رغبة مُلِحَّة في أن أقترب من عالمها، حتى ولو بخطوة واحدة. كان ذلك قبل أن نصبح قريبتين.

مشينا سويًّا في الحديقة الصيفية، وقد انسابت أشعة الشمس الدافئة فوق رؤوسنا.

"هل وجدتِ صعوبة في العيش في روسيا؟".

"في بداية الأمر لم أفكر سوى في العودة إلى كوريا. حينما كنت هناك في الجامعة ظننت بأنني كنت في فريق الأذكياء، ولكن في روسيا كنتُ أحدَ أفشل الطلاب. الأمر أصابني بالدهشة، ولم أكن أجيد اللغة كذلك. كنت سأستلم في نصف الطريق لو لم ألتقِ بيوليا. لقد ساعدتني كثيرًا. كنا متشابهتين في كثير من الأمور، حتى في مزاجنا الناري المتَّقِد". برزت بعض الأوردة الزرقاء فوق ذراعها البيضاء الشاحبة.

"حريٌّ بكِ أن تخرجي للشمس قليلًا. تبدين كقطعة بيك سول جي[1]". قلتُ ذلك مستنكرةً، وإذا بميجين سونبيه تتثاءب تثاؤبًا طويلًا وتتمتم قائلة: "أشتهي البيك سول جي".

"بالمناسبة، لماذا لا زِلتِ تستعملين الأسلوب الرسمي معي في الكلام؟ بينما تنادين سوهيون والأخريات بـ 'أونّي'[2] وتُحدثِّينهم بصيغة الخطاب غير الرسمي؟". سألتني سونبيه ذلك حينما وصلنا لجانب النهر.

"لا أعلم، حينها كنت أشعر أن هناك فجوة عمرية بين سنوات التحاقنا بالجامعة، وكنت أنظر إليك بتبجيل، ولم أتجرأ على أن أرفع الكُلْفة في الكلام، وخاصة أنني كنت أعتبرك من البالغين، علاوة على ذلك أنَّكِ لم تسمحي لأحد بالاقتراب منك على أي حال".

باقي الزميلات اللاتي يكبرنني كنَّ يعاملنني بلُطفٍ بالغ؛ مراعاةً لكوني طالبة جديدة، باستثناء ميجين سونبيه؛ لم تكن تبادر بالحديث معي، وحينما كنت أدخل غرفة الفرقة كانت تحزم أغراضها في حقيبتها

---

(1) كعكة مصنوعة من الأرز الأبيض تُسوَّى على البخار.

(2) لقب تطلقه المتكلِّمة الأنثى على الفتيات الأكبر منها سنًّا، ويحمل معنى 'أختي'.

وتـترك الغرفـة دون إلقـاء السـلام أو حتـى كلمـة "وداعًـا.. أراكِ فيـما بعـدُ"، أو أي شيء كهـذا. وحـين كنـت ألقاهـا مصادفـة في الشـارع وألقـي عليهـا التحيـة كانـت تقابلنـي بإيمـاءة مقتضبـة مـع تعبـير وجـه جامـد، ثـم ترحـل لوجهتهـا، وكأنهـا تتعمَّـد أن تتحـاشى الـكلام معـي. ولم أسـتوعب الأمـر سـوى لاحقًـا عندمـا فهمـت أن السـبب وراء تصرفاتهـا تلـك نابـع مـن شـخصيتها الانطوائيـة التـي تفتقـر لمهارات التواصـل، وأن تصرُّفاتهـا تلـك كانـت أفضـل مـا يمكـن أن تقدِّمـه شـخصية مثلهـا.

"سـونبيه، لِـمَ كنـتِ تتصرَّفـين بهـذه الطريقـة في السـابق؟" سـألتها وأجابتنـي بابتسـامة مُحرَجـة. كنـت أحـب وأكـره وأسيء فهـم هـذا الوجـه لوقـت طويـل. جلسـنا لفـترة عـلى المقعـد الخشـبي دون أن نتحـدث، نتابع أشـعة الشـمس المهتـزة عـلى صفحـة نهـر نيڤـا.

سألتني يوليا: "هل قضيتِ وقتًا ممتعًا مع ميجين؟".

"نعـم، ذهبـت قـرب مقـر مكتـب الأبحـاث الـذي تعمـل بـه، ثـم ذهبنا للحديقـة الصيفيـة، ومشـينا حتـى النهـر، ثـم عدنـا أدراجنا".

قَدِمَـت امـرأة آسـيوية تجـاه يوليـا تحمـل معهـا قائمـة الطعـام، وتحدَّثَـت ليوليـا بالروسـية.

"تسـألني مَـن أنـتِ، وتسـتفسر إن كنـتِ أخـتَ ميجـين الصغـرى، فأجبتهـا بأنـك صديقتهـا، وأنـك وصلـت البارحـة مـن سـيؤول". نظـرت لي المـرأة وقالـت بعـض الـكلام بالروسـية. "ظنَّـت بأنكـما مـن نفـس العائلـة لأنـك تشـبهينها. تتمنـى لـك قضـاء رحلـة ممتعـة في بيطرسـبرج، وتنصحـك بعـدم ركـوب مـترو الأنفـاق في الليـل. تقـول إنـه خطـير"، فشـكرتُها بالروسـية. تناولنـا المعكرونـة المحمَّـرة والسـبرينج رولـز عـلى مهـل قبـل أن نعـود لشـقة يوليـا.

قالـت يوليـا: "لم أعـد أذكـر السـبب الـذي دفعنـي للشـجار مـع ميجـين. كرهتهـا بشـدَّة في مرحلـة مـا، وبعـد أن أخبرتهـا ببعـض الـكلام الجـارح،

كنت واثقة من أني لن أذرف ولو دمعة واحدة حزنًا عليها، حتى لو رأيتها تموت أمام عينيّ. صرخت فيها لتخرج من منزلي وهي لا زالت تحزم أمتعتها في حقيبة سفرها الكبيرة". توقَّفَت يوليا عن الكلام عند هذه النقطة بعد أن شعرت أن الكلام يخنقها فلم تستطع المواصلة.

"هذا يمكن أن يحدث. هذا يمكن أن يحدث لأي شخص يا يوليا. لقد ذكَرَت لي أن الفضل في استقرارها في روسيا يرجع لك. ذكَرَت لي الأمر عدة مرات، وكانت ممتنَّةً لكِ". ابتسمت يوليا ابتسامة باهتة على إثر كلامي.

"كان بيننا الكثير من سوء التفاهم لأننا كنَّا نتحدث الروسية، والتي كانت بطبيعة الحال لغةً أجنبيَّةً لكلتينا. كذلك كانت ثقافتنا المختلفة، كنت أشعر أن ما تقوله لي كدعابة يبدو كإهانة لي في بعض الأحيان. وعلى الأرجح أنها شعرت بالشيء ذاته. كنا نرتاد جميع الأماكن سويًّا لأنه لم يكن لنا أحد آخر لنعتمد عليه. حتى أضحى إحباطنا تجاه بعضنا البعض بقدر اعتمادنا على بعضنا البعض. ومهما حاولت التَّذكُّر، فلا زلتُ عاجزة عن تذكُّر السبب الذي دفعنا لهذا الشجار الكبير في نهاية الأمر. على الأغلب فإن الأمر كان نتيجة تراكُمات تكونت من شِجار صغير، ولكني لا أعلم حتى لماذا صرختُ فيها بهذا الشكل بسبب شيء أعجز عن تذكُّره من الأساس".

"من جانبها، فعلى الأغلب أنها تشعر بالأسف حيال الكثير من الأشياء كذلك. أنا أعرفها كذلك يا يوليا. فشخصيتها نارية كما تعرفين، ولا تعرف كيف تتصنَّع مشاعرها".

"هذا حقيقي". أومأت يوليا برأسها وهي تبتسم بانشراح. "على الأغلب واجهت الكثير من الصعوبات؛ بسبب الاختلاف الكبير بين اللغة الكورية والروسية، فوجه الصعوبة في تعلُّمها للروسية يختلف عن تعلُّم بولندية مثلي للغة. والأمر يزداد صعوبة مع تقدُّم العمر.

كان كبرياؤها قويًا كذلك، وذلك الكبرياء كان يدفعني للغضب حينها، ولكن بنظرة لتلك الفترة، أعتقد أنني أحببتها لنفس السبب".

كان الآن دوري لأومئ برأسي. جلسنا على طاولة يوليا نحتسي سويًا كوبَيْ عصير البرتقال الممزوجين بالفودكا. كانت المحادثة تنقطع بين الحين والآخر، وحينها كنَّا نكمل حديثنا وكلتانا تنظر في اتجاه مختلف.

قالت يوليا: "أنتِ لا شيء. سوو إين، هل سبق أن سمعت هذا الكلام؟ لقد سمعت هذا الكلام بشكل متكرِّر منذ طفولتي. أنتِ لا شيء. والذي قال لي هذا الكلام لم يكن شخصًا غريبًا، كان أبي". قالت يوليا ذلك الكلام وهي تحدِّق بلا حركة في الزهور المجفَّفة المعلَّقة على الحائط. "سوو إين، الأطفال يصدقون كل ما يقوله الكبار ويعتبرونه حقيقة مُسلَّم بها، ثم يعيشون عمرهم بأكمله على خلفية ذلك الكلام. أنتِ لا شيء. أنتِ لا شيء. هذا ما قاله لي أبي. أنتِ فتاة مُدلَّلة لا تصلحين لشيء. فتاة ضخمة الجسد لا تصلح لشيء. لم أشأ أن أكون ظاهرةً، ولكن جسدي لم يتوقف عن النُّموِّ. حاوَلتُ أن أحني ظهري أثناء المشي بحيث أظهر أصغر حجمًا، ولكن الأمر لم يكن مجديًا على الإطلاق. أردت أن أختفي؛ لذا حينما طلبني رجلٌ روسي للزواج تزوَّجتُه على الفور، وجئت هنا كأنه مَهرَبٌ لي، ولكني لم أستطع تركه حتى وهو يعاملني باحتقارٍ ويسبُّني بدون سبب. كنت أظن أنه أسدى لي أجَلَّ معروف بزواجه مني حينما كنت لا شيء". عَلَت ابتسامة مريرة على وجهه يوليا.

"جاءت مجين لمعاينة الشقة حينما كنتُ كتلةً من الفوضى بعد انفصالي عنه، فقرَّرنا مشاركة السكن، وكنا نجلس نتسامر على هذه الطاولة كل ليلة. كانت قد أمضت حينها عامًا واحدًا منذ إقامتها في روسيا ، وكانت تمرُّ بأوقات صعبة. كنت أقدِّم لها يد المساعدة

بكل سرور في كل مرة كانت تحتاجها. وكنت أصحبها لمكتب الهجرة ولجامعتها، وكنت المتحدث الرسمي لها في الأمور التي عجَزَت عن شرحها بالروسية. وكانت ممتنَّةً لي. وحينما أسترجع الأمر، أعتقد أنني كنت أحب أن أرى نفسي حينها كشخص يساعد الأضعف منه. كنت أقول لها بأننا أصدقاء، ورغم ذلك كنت أعتبر نفسي أفضل منها. كنت أظن أنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من دوني، وكنت أشعر بالغضب تجاهها كلَّما تحسَّنَت روسيتها، وكلَّما قَلَّ احتياجها لمساعدتي، وبدأت تخرج مع أخريات ممَّن هُنَّ أكثر جاذبية مني. كنت أشعر وكأنها تقول لي أنتِ لا شيء. لم أعد أحتمل منها ذلك، ولم أدرك أن ما ظننته إيثارًا كان مجرَّدَ أنانية إلا بعد أن رحلت ميجين".

رأيتُ ميجين سونبيه تقف أمام منزل دوستويفسكي. كانت تستند أمام حائط وهي ترتدي شورت باللون الأرزق الداكن مع قميص أبيض برقبة مستديرة، وتحمل على ظهرها حقيبة سوداء. وفي كل مرة كانت تهبُّ فيها الرياح كانت تكشف وجهها المحجوب تحت شعرها القصير. فبدا تعبير وجهها كتعبير طفلة صغيرة.

لم نتبادل أي حديث بيننا ونحن نمشي حول منزل دوستويفسكي. كانت عقارب الساعة بمنزله متوقِّفةً عند ساعة وفاته، بينما عُلِّقَت على الحوائط صورًا رسَمَها لأطفاله. ومن بين المعروضات لعبة الروليت التي أدمنها طيلة حياته. أشارت سونبيه لمتعلَّقات دوستويفسكي دون أن تنطق بكلمة، وهي تلقي نظرات متقطِّعة تجاهي. وقفنا أمام صورته لبعض الوقت. كانت نفس الصورة التي وضعتها على مكتبها حينما كنَّا نعيش سويًّا. جَمَعَنا دوستويفسكي سويًّا تحت مُسمَّى "أصدقاء"، رغم الفجوة العمرية الكبيرة بين سنوات التحاقنا بالجامعة، ورغم شخصياتنا القوية ومزاجنا الحسَّاس والذي جعل من الصعب علينا تكوين صداقات.

حينما أخبرتني سونبيه برغبتها في السفر إلى روسيا لدراسة روايات دوستويفسكي، نما لديَّ حَدسٌ قوي بأنها لن تعود مجددًا لكوريا. وقالت لو طالت المدة فلربما قد تصل لسبع سنوات، ولكنني لم أصدق الكلام كما قيل لي. كنت أُطَمئنُ نفسي بأنني سأراها مجدَّدًا في أي وقت، ولكن في قرارة نفسي كنت أعلم أن هذه هي النهاية.

سكنّا سويًّا لمدة ثلاث سنوات حتى وقت رحيلها لروسيا، وفي الليلة التي سبقت سفرها استعنت بجزء كبير من مدخَّراتي التي جمعتها من الوظيفة جزئيَّة الدوام بغرض شراء بعض البقالة لأطهو لها أطباقها المفضَّلة. طهوت لها الزلابية الخالية من اللحم، الكيم باب، حساء نبت الفاصوليا، التشاب- تشيه، سلطة التوفو، البطاطا الحلوة الدبقة، شراب البطيخ. كنت أراقبها وهي تمضغ قطعة كبيرة من الكيم باب حَشَرتها في فمها وهي قَلِقَة إذا ما كانت ستتمكَّن من الأكل كما ينبغي في بلاد أجنبية. لم أبكِ حين جلست في غرفتها الخاوية بعد أن رحلت وأنا أُفرغ صحن التشاب- تشيه من بقايا الطعام. لم أشعر بأي حزن. شعرت بقلق ممزوج بقلة الحيلة؛ إذ ربما لا تجد ما تأكله في روسيا؛ كونها نباتيَّةً لا تتناول اللحوم. لجوئي لتلك الأسباب المنطقية لتبرير قلقي كان وسيلةً لتغطية وخداع إحساسي العميق بالفقد والحزن، الأمر الذي لم يكن جديدًا بالنسبة لي.

لم يسبق لي الكلام مع سونبيه مباشرة قبل مهرجان الجامعة في شهر مايو. كانت تجلس دومًا على طاولة مختلفة عن طاولتي كلَّما خرجنا مع الفرقة لتناول الطعام. ولم يكن يوم احتفالية الهوم كومينج داي[1] استثناءً.

(1) احتفالية تنظِّمها الجامعات من خلال دعوة كبار الخريجين ممَّن يعتبروا مثالاً جيِّدًا للطلاب الجدد. ومن خلال هذه الاحتفالية يشارك الطلاب الكبار خبراتهم العملية المختلفة، ومن خلال هذا التجمع يطرح الطلاب الجُدُد أسئلتهم حول سوق العمل والتوظيف وتحديات الحياة العملية بكل حرية.

بعـد انتهـاء احتفاليـة الهـوم كومينـج داي خرجنـا لاحتسـاء الخمـر، وجلسـت سـونبيه بشـكل مائـل مـن مقعـدي عـلى الطاولـة المقابلـة في القاعـة السـفلية للحانـة التـي قصدناهـا. كنـت أرغـب في الجلـوس بجانبها، ولكـن ترتيـب الجلـوس كان بنـاءً عـلى أسـبقية الحضـور، فانتهـى بي الأمـر في أن أجلـس مضغوطـة بـين زملائنـا مـن المتخرّجـين مـن الدفعـات الأكـبر، مـن دفعتَـيْ الثمانينيـات والتسـعينيات. وفي مواجهتـي جلـس اثنـان مـن السـونبيه ممَّـن بـدا عليهـم الإرهـاق الشـديد، وقـد فضحـت وجوههـم المتعبـة سـخطهم عـلى هـذا التجمُّـع.

"إذًا التحقـتِ بالجامعـة في دفعـة 02؟" سـألني صاحـب الشَّـعر المجعَّـد. حينـما أومـأت بـرأسي، أخـرج مـن جيبـه بطاقـة العمـل التعريفيـة وناولنـي إيَّاهـا. كُتـب فيهـا "شـين كيونـج سـوك، محامـي الملكيـة الفكريـة"، "التحقـتُ بالجامعـة في عـام 86"، قـال لي ذلـك وهـو يحـدِّق فيَّ. أحسسـت بعـدم الراحـة فحوَّلـتُ نظـري بعيـدًا عنـه، ولكـن حينـما نظـرت تجاهـه مجـدَّدًا وجدتـه لا يـزال مُثبِّتًـا نظـره تجاهـي. ولم يسـتغرق الأمـر طويـلًا حتـى تحـوَّل شـعور عـدم الراحـة إلى الاحتقـان.

"لمـاذا تبـدو طالبـة جديـدة بمثـل هـذه الكآبـة؟ سـمعت أن تخصّصَـكِ الأدب الكـوري. أنـا كذلـك. التحقـت بالجامعـة في عـام 95. اسـمي كيـم يـون سـوك". هـذا مـا قالتـه السـونبيه التـي كانـت جالسـةً بجانـب محامـي الملكيـة الفكريـة وهـي تناولنـي بطاقـة العمـل الخاصـة بهـا. كانـت صحفيـة تابعـة لجريـدة "ك".

في ذلـك اليـوم، كان الجـو العـام غريبًـا منـذ بدايتـه أثنـاء احتسـائنا للخمـر. كان المتخرِّجـون مـن الدفعـات الأكـبر يتناولـون الشراب سريعًـا ويتراشـقون النِّـكات الحـادَّة فيـما بينهـم. كانـت تعليقاتهـم أقـرب للهجـوم منهـا للنِّـكات، وهـذا مـا تبيَّنتُـه مـن نـبرة صوتهـم والجـو العـام، ولكننـي لم أفهـم عـلى التحديـد تفاصيـل حواراتهـم. مصطلحات مثـل: التبعيـة، التحرر

الوطني، ديموقراطية الشعب، الخيانة. بعد ذلك بدؤوا يتراشقون بأقبح السباب حتى تعكَّر الجو، لدرجة دفَعَت إحدى خريجات دفعة 99 للتدخل لفضِّ الخلاف. بينما لم يكترث للأمر السونبيه المتخرِّجون الذين جلسوا على طاولتي وكأنه مشهد معتاد.

" فرقتنا تجذب الكثير من ذوي الشخصيات القوية، وكذلك الكثير من المهاترات والمشاكل، ومثل تلك المناوشات تظهر بمجرد أن يصلوا لمرحلة السُّكر" هذا ما قالته السونبيه الصحفية، بطريقة أقرب للصياح منها للكلام. "سونبيه، أليست الأجواء صاخبةً؟ لا أدري إن كنتِ تتحدَّثين أم تصيحين!".

صدرت من مكبِّرات الصوت أغنية راب للمغني إيمنيم.

قال محامي الملكية الفكرية:

"مَن الذي اختار هذا المكان للتَّجمُّع؟ توقَّعتُ اختيارًا أفضل من أعضاء الفرقة الغنائية". ثبَّت نظره صوب أظافري المطليَّة باللون المشمشي. وقد كانت نظرةَ اعتراض. "الطلاب في زماننا كانوا من النُّبَهاء، أمَّا طلاب هذه الأيام، يصبغون شعورهم ويطلون أظافرهم، منغمسون كلِّيًا في ثقافة البوب بحيث يجهلون معها عَظَمة إنجازات زملائهم ممَّن سبقوهم في التَّخرُّج". مال الرجل ناحية الحائط وهو ينفث دخان لفافة التبغ. نظرتُ تجاه ميجين سونبيه وأنا أتحدث مع السونبيه التي تعمل في الصحافة. وكانت المرة الأولى التي تلاقت فيها أعيننا، وقد أرسلت لي نظرةَ تَضامُن وتشجيع. على الأقل ذلك ما أذكره.

"يونج جا، اذهبي لصاحب الحانة واطلبي منه أن يخفض صوت الموسيقى؛ فهي تسبِّب لي الصداع" صرخت السونبيه الصحفيه للفتاة من دفعة عام 99 التي كانت تجلس بجواري. وعندما هدأ صوت

الموسيقى، بدأ محامي المكلية الفكرية في التّذمُّر وهو يبتلع بسرعة أكوابًا من خمر السوجو على مرات متلاحقة.

"متى طلبت أن يحترمني زملائي المتخرِّجون؟ كل ما طلبته أن تستمر فرقتنا الموسيقية بشكل صحِّيٍّ. ولكن انظروا لهذا الخراب. فبناءً على ما أراه الآن فلا مستقبل لناديكم، لا مستقبل مُطلَقًا".

كانت السونبيه من دفعة عام 99 تصبُّ الخمر في كوب المحامي وهي تهزُّ رأسها مُصدِّقةً على كلامه. بدأت السونبيه التي تعمل بالصحافة تغني نفس المقطوعة، وقالت: "هذا صحيح يا هيونج[1]. هل رأيت الفتيات في جامعتنا؟ يمشون في مجموعات أينما ذهبوا كتلميذات سخيفات في المدرسة. وينادون زملاءهن الأكبر 'أوبا'[2]. ولو سألتني لقُلتُ لك إن العبث الذي تشهده فرقتنا في الوقت الحالي إنما يرجع سببه لعدم انضمام أعضاء من الذكور للفرقة بما يضمن قيادة قوية لها. أنا امرأة كذلك، ولكني أعرف تمامًا أن النساء لا يعرفن كيف يتَّحِدن ولا يفهمن طبيعة الجماعة". توقَّفت عن الكلام قليلًا، ثم رمقتني بنظرة. "اسمك سوو إين أليس كذك؟" حينما أومأتُ تابَعَت قائلة: "هذا الكلام موجَّه لك أيضًا. إن كنت تعدِّين نفسك جزءًا من الفرقة الموسيقية، أفلا تعتقدين أن عليك التَّخلِّي عن سلوكك الأنثوي؟ طريقة كلامك، وهيئة ملابسك... أنا امرأة، ولكن حين خرجت للعالم الواقعي رأيت الكثير من النساء ممَّن عجزنَ عن الانسجام مع ذلك العالم. تجدينهنَّ مُتذمِّرات وغاضبات حول كل شيء ولو كان أمرًا ضئيلًا. الرجال لا يفعلون ذلك. ولماذا بظنِّكِ نحن النساء الجامعيات مميَّزات؟ نحن الجنس الثالث. نساء، ولكن علينا أن ننبذ

---

(1) لقب يطلق على الأولاد الأكبر سنًّا حينما يكون المتكلم والمخاطب ذكَرًا. وفي السابق كانت الفتيات يطلقن على الأولاد الأكبر منهن في المراحل الجامعية لقب هيونج كذلك. ولكن حاليًا يقتصر استخدام اللقب على المتكلِّم الذَّكر للمخاطب الذَّكر فقط.

(2) لقب يُطلَق على الأولاد الأكبر سنًّا حينما يكون المتكلِّم أنثى.

عُقَد النقص التي تملكها النساء الأخريات. أقول لك ذلك الكلام لأنني سونبيه. ومَن غيري ينصحك؟ إن لم تسمعي هذا الكلام من أي أحد، فستتلقَّيْ ضربات حقيقة في العالم الواقعي لو كنت تعلمين".

شَعري المصبوغ باللون البني الفاتح، أظافري المطلية، وصوتي الرقيق، خجلي، وشخصيتي الانطوائية، وحتى تصنيفي الجنسي كامرأة... جلست في مكاني أسيرةَ إحساس أن كل شيء متعلِّق بي كان مرفوضًا.

"ماذا بك؟ هل استأت من كلامي؟ ما بال ذلك التعبير الذي يعتلي وجهك؟" سألتني الصحفية، لم أجاوبها، ونظرت ناحية ميجين سونبيه، فأجابتني بابتسامة خافتة، كان فمها مبتسمًا ولكني لمحت في عينيها غضبًا باردًا.

"الرجال أسهل في التعامل. خلال دراستي، وحينما لم يكن يعجبنا الدفعات الأصغر، كنَّا نأمرهم بالوقوف في ركن ما وننهال عليهم ضربًا بمضارب البيس بول. كان هذا من باب التعليم كما تعلمين" قدَّم المحامي ملاحظته السابقة.

"هراء!" كان ذلك صوت ميجين سونبيه.

"ماذا قلتِ؟" سألها المحامي بصوت منخفض.

"قلتُ هراء" أجابته ميجين سونبيه بصيغة الاحترام، حتى الزملاء الآخرون الذين كانوا يتناوشون حتى هذه اللحظة توقَّفوا عن الشجار ونظروا نحونا، أطلق المحامي ضحكة سخرية مستنكرة لما سمع، ثم قال: "كيف تجرئين؟ كيف تقولين هذا للسونبيه الذي يقع بمثابة السماء لك؟".

قالت ميجين سونبيه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة فضولية: "وهل نحن ممنوعون من الكلام؟".

أمسكت السونبيه الصحفيه بذراع ميجين سونبيه وقالت لها: "ميجين، كلام كيونج سوك هيونج نابع من رغبته في التَّودُّد للطالبة الجديدة، وكان يقدِّم لها نصيحة جيدة لا أكثر. هيونج! أنتَ تعلم ميجين، هي حسَّاسة بعض الشيء كما تعرف. ميجين! هيا اعتذري لكيونج سوك هيونج ولباقي الزملاء".

"اتركيني". حلَّت ميجين سونبيه ذراعها من قبضة الصحفية. "هل تعتبرون سنة الالتحاق الجامعي ميدالية تستدعي الفخر أو ما شابه ذلك؟ تُطِلُّون علينا كل عام ثم تسكرون، وتختارون الأصغر والأضعف لتمارسوا عليهم تنمُّرَكم، وهل تظنين أنني سأظل أعتبره سونبيه بعد هذا؟ شين كيونج سوك، تقول بأنك تحب الديموقراطية، أليس كذلك؟ فكيف تتغنى بالديموقراطية بينما تدعس بقدميك الأضعفَ منك؟ حتى ولو كان ذلك في مجموعتنا الصغيرة هذه؟ أراهن أن رجُلًا مثلك تناسبه الديكتاتورية أكثر. أنت لا تفهم أصلًا فكرة أن جميع البشر سواسية. في الحقيقة. اللعنة عليكم. هل عليكم أنت تستعرضوا قذارتكم هذه أمام تلك المسكنية؟ أرفض أن أستمرَّ في هذا، أرفضه".

"لقد كنتِ عاطفيَّةً على الدوام. هذه نقطة ضعفك. وإن لم تتغلَّبي عليها، لن تنجحي في مكان عملك". هذا ما قالته السونبيه الصحفية.

قالت ميجين سونبيه: "اهتمِّي بشأنك كيم يون سوك. هل كونك امرأة أمرٌ مُحرِج ومؤلم لهذه الدرجة؟ النساء تغلبهن عواطفهن، يستدعين التدمير، وأنانيات، وبسبب هذا تجديهن الأكثر مَيلًا لخيانة الجماعات؟ عدو المرأة بنات جنسها. وهل تعتبرين إنكارنا لذواتنا هو مقياس الصحة في نظرك يا أستاذة كيم يون سوك؟ عليك أن تخجلي من نفسك وأنت في هذا الموقف أمام زميلاتك الأصغر منك". كان صوت ميجين سونبيه يرتعش بشدَّة. أمسَكَت بحقيبتها بيدين

مرتعشتين وخرجت كعاصفة من المكان، ثم أمسكتُ حقيبتي على عجل لألحق بها.

خرجت للشارع فإذا بها قد وصَلَت بالفعل عند معبر المشاة بالميدان.

"ميجين سونبيه".

لم تحوِّل ميجين سونبيه رأسها تجاهي.

"سونبيه".

وقفت أمامها ونظرت في وجهها، كانت تضحك وقد رسمت تعبيرًا غريبًا على وجهها، وحينما دقَّقتُ النظر وجدتها تبكي ولم تكن تضحك. استخرجت من حقيبة كتبي منديلًا لأناولها إياه. جفَّفَت دموعها بمنديلي ثم عبَرَت الشارع وأكمَلَت خطواتها. لو كنت أعلم أنها تبكي لَمَا حاولت أن أكلِّمها. شعرت بالأسف لأنني ربما أكون قد تسبَّبتُ في ضيقها، رغم أنني لم أتعمَّد ذلك.

كان ذلك بعد مرور وقت طويل حينما علمتُ بأن اللوم الذي كان موجَّهًا لها كان بسبب إنهائها للنشاط الطلابي التقليدي في فرقتنا. كان النشاط الطلابي يعاني خفوتًا أعقبه تهاوٍ سريع على الفور بعدها. كانت تتحدى العلاقة الصارمة بين الطلاب السابقين و اللاحقين، وسيطرة الطلاب الذُّكور على قيادة الهيكل، وثقافة الطاعة العمياء، كل ذلك كان السبب في مشاعر الحنق التي يحملها لها أعضاء الفرقة الأكبر سنًّا. كانت متَّهَمة بالتَّعلُّق بما لم يكن يمثِّل في نظرهم مشكلة بالكاد، وأنها كانت تعارض وتنتقد أسلوبهم في النشاط الطلابي، في الوقت الذي كان من الصعب عليه الاستمرار في إبقاء إرث 'رابطة الهيونج'، أو بمعنى آخر 'رابطة الأخوية' كجماعة متَّحِدة. وكما سمعت، فالقليل فقط منهم مَن عاملوها بلُطفٍ بسبب ذلك. حتى إن البعض تمنَّى لو غادرت الفرقة وتنحَّت عن حملتها المنادية باستقلالية الأفراد

لاتخاذ القرار، وتحقيق العدالة بين العلاقات، والتربية النسوية. كانت ميجين سونبيه متمسّكة بموقفها وملتزمة بالبقاء في الفرقة مع رفض فكرة أن تغادر، رغم أنها كانت تسمع كلامًا قاسيًا؛ مثل "لو كان الراهب مستاءً من المعبد، فالأَوْلَى به أن يتركه".

والآن، حينما أفكر في الأمر، فسونبيه التي تحمَّلت تعليقات ضدها؛ كعنيدة، متحجِّرة مثل المسمار؛ كانت لا تزال في بداية العشرينات من عمرها حينها. ولا شكَّ أنها كانت مجروحة رغم أنها تمكَّنت من التعامل مع هذا الكم من الكراهية الموجَّهَة ضدها من قِبَل الكثيرين. ما هو مقدار الشجاعة الذي احتاجت إليه لتتصدى في مواجهة تنظيمٍ لم يُدعِّمها ولم يحترمها؟ الدموع التي ذرفتها في ذلك اليوم عند مكان عبور المشاة وهي ابنة الخامسة والعشرين لم يكن بدافع الغضب، بل كان بسبب تراكمات نَمَت من وحدتها.

قلت لها: "على ما أذكر، فقد تمَّ حلُّ الفرقة الغنائية بعد سفرك لروسيا بثلاثة أشهر".

أجابتني قائلة: "على الأغلب هذا ما حدث بالفعل".

"كان هناك عدد من المتخرِّجين ممَّن ألقوا باللوم علينا، رغم أن معظم الناس لم يظهروا حتى استياءهم من الأمر. شعرت وكأنني قد دمَّرتُ بيدي تلك المساحة التي حوت ذكرياتهم".

"لم يكن في وسعنا تقديم المساعدة. لم يكن ذلك مُمكِنًا حقًّا. ليس مع تَغيُّر العالم من حولنا". كانت سونبيه تنظر لظلها وهي تضع يدها بداخل جيبها، ثم مشينا على مهل في الزقاق الخلفي لمنزل دوستويفسكي.

"ما حدث في شهر مايو بمدينة كوانج جو، كم كان المجتمع الذي نعيش فيه مريضًا! ولم يكن بمقدورنا أن نجادل حول الأمر سوى بعمر العشرين، حين التحقنا بالجامعة، وبعمر الواحد وعشرين، وحينما

أرهقنا الألم وأتعبنا بدأنا نغني. كان من بين بعض السونبيه مَن كانوا يعتبرون الغناء إحدى وسائل التعليم ورفع الوعي، ولكني أعتقد أن أغنياتنا كانت بمثابة وعدٍ قطعناه على أنفسنا، على الأقل، وعد على نفسي، بأنني لن أستمر في الظلام. كانت الفرحة التي نشعر بها من الغناء سويًا تكفينا. لم أشأ أن تبدو أغانينا مثل النشيد الوطني أمام العَلَم الكوري بساحات المدارس" كان صوتها يرتعش بعض الشيء. كان صوتها يرتعش كلَّمَا نبعت كلماتها من قلبها. قالت لي في إحدى المرات إنها تريد العمل على تصحيح عادتها الواهنة حين تخون مشاعرها تعبيرها. كانت تشعر بالخزي من تذبذب صوتها حينما تصبح عاطفية ووَاهِنة، ومن شخصيتها غير الاجتماعية، والبطء الذي يلازمها حين تمشي وتأكل وتقرأ، ومن مهاراتها الرياضية المتواضعة، ومن حساسيتها التي دفعتها لاستخراج مئات المعاني من كلمات أحدهم أو تصرُّفاته وتبدأ في اجترارها بلا نهاية. قالت لي إنه كان عليها أن تتغلَّب على نقاط ضعفها تلك وتصبح شخصًا جديدًا. لم أعرف رأيها حيال نقاط قوتها. ولكنني أحببت الأشياء التي كانت تعتبرها نقاط ضعفها؛ فقد جعلتني أبتسم كثيرًا بسببها.

كنّا قد أوشكنا على الوصول للكنيسة الأورثوذكسية حينما بدأ شلَّال من المطر يهطل فوق رؤوسنا؛ ممَّا دفعنا للاحتماء بداخل مقهى مقابل للكتدرائية. كانت المدينة حارَّةً في الأيام المشمسة، ولكن حينما ابتللنا بالمطر شعرنا ببعض البرودة حين دخلنا للمقهى البارد.

سألتني: "كيف حال كتاباتك؟".

"ليست على ما يرام. أنا خائفة".

"ولِمَ الخوف؟".

"ربما أفقد فرصتي للأبد لو أخفقت لمرة واحدة. كان كل ما تمنَّيتُه هو أن أكتب عملًا يمكنني أن أقدِّمه في جلسة مناقشة رسالة

الدكتوراة". أذكر أنني نشرت قصة لم تنجح مؤخَّرًا، وكم شعرت بالخزي حينها، وكنت مذعورة حتى من البكاء. تلقَّيتُ وابِلًا من النقد اللاذع الذي نُشر على الإنترنت، وتلك التصريحات التي عَلقَت بي وأنا أكتب، وكأنها تهمس لي بأنني لن أتحسَّن ولو بقدر بسيط في الكتابة. تذكَّرتُ نصيحة صديقة لي حينما أخبرتني أن عليَّ أن أصيب نقطة آمِنةً عند نشر أعمالي. وفي حالة أنني ضربت كرةً خطأ حتى بعد عدد الساعات الطويلة التي قضيتها وأنا أكتب، فلن يكون لديَّ مجال لتبرير موقفي حينها. فكرة أنني لا أستطيع التَّنبُّؤ بمكان إصابة كرتي إلَّا بعد أن أضربها بمضربي أوَّلًا، أصابتني بالشلل.

"أذكر القصة التي عرضتها عليَّ، قبل سفري لروسيا".

"قرأتها وقلت لي أن أصرف النظر عن الكتابة، وأنه ليس عليَّ أن أحيد عن طريقي لأختار الطريق الأصعب، وأن عليَّ أن أجعل حياتي أسهل. وهذا الكلام كان قد صدر من شخص سافر لروسيا لدراسة روايات القرن التاسع عشر". ضحكت بعدها.

"وهل تذكرينني في كتاباتك؟".

"أفكِّر بك في كل ما أكتب. دقِّقي النظر. كل الكلام عنك".

"كيف صحَّتُكِ؟".

"أستطيع التعايش الآن دون الحاجة للدواء، وأحصل على الكثير من أشعة الشمس، كما أنام كثيراً. أنا بخير الآن، صدِّقيني".

في السابق، وحينما اشتدَّ مرضي، كانت ميجين سونبيه ترسل لي بريدًا إلكترونيًا بشكل يومي تقريبًا. وحينما كنت أقول لها إن الدواء لا يُجدي نَفعًا، كانت تجيبني بأنها تعرف شخصًا قد شُفِي على نفس الدواء، وأن دواء البروزاك فعَّال، وأنه قد يستغرق بعض الوقت لأشعر بفاعليته. كانت تتصل حينما لا أُجيب على رسائلها، وتناديني

باسمي: سوو إين. أحيانًا كنت أبكي بشدة لمجرد سماع اسمي منها، وأذكر أنني سبق وأن انفعلت عليها بشدة وجسدي ينتفض وطلبت منها أن تنهي المكالمة لو أصرَّت على الاستمرار في مثل تلك التأكيدات السطحية.

أذكر مرضي كرائحة فمٍ كريهة. رائحة لا تغادرني مهما غسلت أسناني أو استحمَمتُ. كنت أجد صعوبة في بعض الأيام في أن أنهض من فراشي، وفي أحيان أخرى كنت أجد الذهاب للحمام أمرًا مستحيلًا. سلوكي تجاه الحياة، والذي كان يتَّسِم بالاجتهاد في تعذيب النفس، لم يكن مُعاوِنًا في أي شيء مع هذا المرض. الاستحمام، تجفيف شعري، ارتداء ملابسي، والخروج من الباب؛ تلك الأمور كانت تستهلك طاقة جسدية وقوَّة إرادة يوم بأكمله. لم تكن لي اليد العليا على جسدي.

ومن إحدى نوافذ الرَّدهة بالمشفى، كان باستطاعتي أن أرى المارونير بارك في الجهة المقابلة من الشارع. الفتاة ابنة العشرين ربيعًا التي غنَّت من كل قلبها عند الحديقة هي نفسها التي تتهاوى الآن أرضًا ولا تتمالك نفسها إذا حاولت النهوض وهي ابنة الرابعة والعشرين؟ وكل ذلك بسبب تأثير العقاقير على رُكبتي التي عجَزَت عن حملي. فقدت كل ذكرياتي عن غنائي في المارونير بارك، حتى صوت تلك الأغنية، والضحكات. كقطارٍ فَقَد مقطورته الخلفية إثر حادث بينما أكمل طريقه بعدها بنصفه المتبقي منه. فقدت الإنسان الذي كنت أعرِّفه سابقًا بكلمة "أنا". انفصَلَت ذاتي ابنة العشرين ربيعًا عن قرينتها ابنة الرابعة والعشرين بشكل نهائي، وتركت الأخيرة تقف وحيدة، مع استحالة العودة على شريط مُظلِم للسكة الحديدية.

كانت سونبيه تواجه وقتًا عصيبًا أثناء محاولتها للاستقرار في روسيا، ولكن معاناتها بالنسبة لي كانت شأنًا يخصُّ شخصًا آخر حرفيًّا. كنت الإنسان الأكثر تألُّمًا وتعذيبًا في كل العالم؛ لذا لم تبصر عيناي سوى

ألمي الشخصي فحسب. وأعتقد أن أنانيتي تلك، لم تَحوِ أيَّ حُبٍّ لميجين سونبيه، ولا حتى تجاه نفسي. ذاتي حينها لم تملك أي طاقة للحب. ولكن ميجين سونبيه لم تتوقَّف عن محبَّتي يومًا، ولم أدرِ ماذا عساي أن أقول لها الآن بعد كل هذه المُدَّة.

كان هناك قُدَّاسٌ مُقامٌ بداخل الكنيسة، وبما أنها كنيسة أرثوذكسية فلم يكن بها مقاعد المُصلِّين الخشبية، ولم يكن أمام الحضور سوى الوقوف لحضور القُدَّاس، إلَّا من بعض الحضور من ذوي الإعاقة الحركية ممَّن جلسوا على مقاعد مثبَّتة على الجدران. انضمَّ الحضور لقائد الترانيم حينما بدأ في الغناء. ورغم صِغَر حجم الكاتدرائية، إلَّا أن سقف الكنيسة المُصمَّم على شكل قُبَّة أصدر صدى عميقًا لصوت الترانيم. وقفت ميجين سونبيه في نهاية الكنيسة وأخذت تردِّد القُدَّاس مع الحاضرين. جوسبودي بوميلوي، جوسبودي بوميلوي، جوسبودي بوميلوي. تعجَّبتُ كيف تُردِّد ميجين سونبيه ترانيم القُدَّاس رغم أنها لم تكن مسيحية أرثوذكسية أصلًا، لكن صوتها المنسجم مع باقي الأصوات دقَّ كالطبول على قلبي. فليرحمنا الرب، فليرحمنا الرب. كانت تغني وهي واقفة بالقرب مني. سمعت هزيم الرعد، وصوت حبَّات المطر الثقيلة تقرع سقف الكنيسة. جوسبودي بوميلوي، جوسبودي بوميلوي، جوسبودي بوميلوي. أخذت أُردِّد معهم الترانيم، رغم تلعثُمي، فالتحلم صوتها بصوتي في انسيابية غير عابئة بجميع الأصداء.

تركنا الكاتدرائية حينما توقَّف المطر، ثم مشينا صوب نهر فونتانكا. مرَّ قارب يحمل عددًا من السُّيَّاح على متنه، وقد بدؤوا يلوِّحون لنا، فأجبنا تحيتهم، ولوَّحنا لهم. تُرى، ما السِّرُّ في أن الذين يركبون القوارب يلوِّحون دومًا للأشخاص الواقفين على اليابسة؟ جلسنا فوق سور منخفض بالقرب من النهر وأخذنا نطالع القُبَّة الذهبية

لكتدرائية القديس إسحاق المقابلة لنا، ثم أُضيئت أعمدة الإنارة في الشوارع وفتحت القوارب المارَّة أنوارها تباعًا.

قالت ميجين سونبيه: "أتمنى ألَّا تعاني هكذا مرة أخرى".

"أتمنَّى ألَّا تعيشي الحياة بتلك الجدِّيَّة. حتى ولو لم يكن بالأمر السهل، على الأقلِّ تَذكَّري أنك شخص يستطيع الغناء. ليس بإمكاني أن أقوم بأي شيء لك يا سوو إين، ولكن..." بدأت تغني أغنيتها القديمة المُفضَّلة. بصوتها الذي صبَّ الشجن والخزي في أعماقي يومًا. كانت تنظر لي وهي تغني، وقد أشرق وجهها كما حدث من قبل.

لم يتسنَّ لميجين سونبيه أن تصل لعمري مُطلَقًا.

انتهت الأغنية، فسمعت صوت تصفيق الأشخاص المجاورين. أطفأت جهاز المسجِّل ونزَعتُ السَّمَّاعات من أذني. سمعت صوت السيارات تمرُّ بجانبي، وأصوات الألعاب النارية قادمة من مسافة، وانسكبت أضواء أعمدة الإنارة على النهر.

توقَّف قلب ميجين سونبيه دون سبب في صيف عام 2009. كان من المفترض أن تناقش رسالة الدكتوراة قريبًا، ولم تكن تعاني من أي مشاكل صحية عدا التعب المزمِن. تُوفِّيَت بعمر الثانية والثلاثين وهي بعيدة عن موطنها. قال الطبيب إنها لم تشعر بأي ألمٍ لأنها أصيبت بنوبة قلبية مفاجئة. حينما علمنا بأنها لم تتألَّم في وفاتها بعث ذلك ببعض الطمأنينة عند العديد من الأشخاص الذين تألَّموا لوفاتها. كان لديها الكثير من الأعداء. جميع الأشخاص الذين كانوا يستشيطون غضبًا بمجرد ذِكْر اسمها حضروا لجنازتها، واحدًا تلو الآخر، وقد أحنوا رؤوسهم أسفًا.

كان بين يدي بعض الصور لميجين سونبيه قد ناوَلَتني يوليا إيَّاها. سونبيه وهي تأكل المثلَّجات في الحديقة الصيفية، وهي تبتسم وقد أغلقت عينيها وهي جالسة على المقعد الخشبي عند نهر نيفا،

وصورة أخرى وهي مستندة للحائط عند منزل دويستفسكي في انتظار يوليا، وصورة أخرى لها وهي جالسة في المقاعد الخارجية للمقهى وتهمُّ بِقَول شيء، وصورة لها وهي واقفة عند الممر بالقرب من نهر ڤونتانكا، تبتسم وتلوِّح للسُّيَّاح على متن القارب السياحي. تتبَّعتها بين تلك الصور ورأيتها من خلال عينَيْ يوليا.

مع السلامة يا ميجين سونبيه. أتذكَّر وجهك وأنت تغالبين دموعك بكل طريقة عند مكان عبور المشاة، وأدركت أنني أعيش الآن بمثل ذلك الوجه منذ رحيلك، وأنني تمنَّيتُ أن أصبح أكثر الأشخاص جفافًا وانعزالًا.

مع السلامة يا سوو إين. في اليوم الذي التقيت فيه سونبيه للمرة الأخيرة لم أستطع أن أبتسم في وجهها حينما ودَّعتني. نصيحتها لي بألَّا أعيش الحياة بشكل جدِّيٍّ بدت لي وكأنها تعطي محاضرةً لطفل صغير. لم أستطع حتى أن أشكرها على قدومها الصعب لكوريا حينما كنت في مرحلة التعافي من مرضي. كنتُ أحسُّ دومًا أنني أدنى منها منزلة، وخاصة أنها كانت شخصًا ناضجًا على الدوام، بينما كنتُ غير ناضجة، إضافة لمرضي المستمر الذي زاد الأمور سوءًا. عاملتها بتلك الطريقة، رغم أنني كنت أعلم يقينًا أنني لم أكن لأتخطى تلك المرحلة لولا محبتها لي.

كنت ممتنَّةً لاهتمامها غير المنقطع، ولكن عدم ارتياحي كان كبيرًا بقدر امتناني على حدٍّ سواء. كنت أشعر أنها تدعس حدود 'الأنا' الخاصة بي، وأنها تقتحمها بكل فظاظة. رغم أنها كانت بعيدة عني للغاية إلَّا أنها كانت قريبة مني للغاية. لم أستطع أن أحتمل حبَّها، وهي التي لم ترفضني حتى بعد أن أظهرتُ لها أسوأ وجوهي. لم أتحمَّل الأمر لأنني كنت خائفة من أن أتلقَّى الحب منذ بداية الأمر.

بـدأت يوليـا في فتـح بـاب الحديـث وقالـت: "ربمـا قـد يبـدو كلامـي غريبًـا، ولكـن حينـما التقيـت بميجـين للمـرة الأولى، قالـت إنهـا نادمـة عـلى القـدوم في هـذه البعثـة الدراسـية؛ لأن صديقتهـا التـي كانـت تسـكن معهـا قـد سـاءت حالتهـا الصحيـة بعـد سـفرها مبـاشرة، قُلـت لهـا إن الأمـر لم يكـن ذنبهـا، ورغـم ذلـك كان إحسـاس تأنيـب الضمـير مُلازِمًـا لهـا. كانـت توفِّـر مـن نقـود تذكـرة الحافلـة، ونقـود تنـاول الطعـام في المطاعـم، وحينما سـألتها عـمَّا سـتفعله بتلـك النقـود التـي تدَّخِرهـا أخبرتنـي أنهـا تدَّخِرهـا لتسـافر إلى كوريـا بـأي طريقـة خـلال العطلـة الدراسـية. كانـت تريـد أن تطهـو لصديقتهـا تلـك، وأن تسـمع منهـا، كان كل مـا تفكـر فيـه هـو كيـف يمكـن أن تبقـى بجانبهـا في محنتهـا. ثـم قالـت إن صديقتهـا تحسَّـنَت بعدمـا زارتهـا في كوريـا، وأن الحِمـل الـذي أثقـل كاهلهـا بـدأ يقـلُّ بعـد أن رأتهـا تتحسَّـن. تلـك الصديقـة كانـت أنـتِ يـا سـوو إيـن، أليـس كذلـك؟".

أومـأت بـرأسي بالإيجـاب. كان صحيحًـا أننـي أتحسَّـن، ولكننـي كنـت لا أزال مريضـة في ذلـك الوقـت، وكنـت غـير قـادرة عـلى الابتسـام في وجـه ميجـين سـونبيه. كانـت قـد طلبـت منـي زيـارة بيطرسـبرج في الصيـف التـالي، ولم أقُـل شـيئًا.

سألتني يوليا: "ماذا قالت عني ميجين؟".

"قالـت بأنـك مميَّـزة يـا يوليـا. ليـس لأنـك سـاعدتِها، أو لأنـك قـاردة عـلى إنجـاز الكثـير مـن الأمـور. ولكنهـا لم تلتـقِ بشـخص مثلـك قـطُّ، و...".

"هل قالت هذا الكلام؟".

"إضافـة لذلـك، قالـت إنهـا تشـعر بـالأسى لأنـك لا تعرفـين تلـك الحقيقة عـن نفسـك. هـل تذكريـن حينـما حكيـت لي في تلـك الليلـة الماضيـة بأنـك تعيشـين وأنـت مقتنعـة بأنـك لا تسـاوين شـيئًا؟ حينـما كنـتُ أسـتمع لكلامـك كنـت أشـعر بهـا تجلـس بجانبـي وتقـول 'كلَّا يـا يوليـا'. كنـت أحـسُّ بهـا تزفـر أسـفًا وهـي تسـمع كلامـك عـن نفسـك".

احمرَّت عينا يوليا وأحنت رأسها وهي تتحسَّس مفرش الطاولة.

"ظننـت بأننـي سـألقاها مُجـدَّدًا، فالمسـافة حتـى منزلهـا لا تسـتغرق أكـثر مـن عشريـن دقيقـة فقـط بالحافلـة. فكَّـرتُ أن أطلبهـا، وأن أعـرض عليهـا تنـاول وجبـة العشـاء سـويًا، ولكننـي كنـت خائفـة؛ إذ ربمـا لا تـزال مسـتاءة مـمَّا حـدث بيننـا. لـو كنـت اسـتدركت بعضًـا مـن شـجاعتي لكنـت بـادرت بالخطـوة الأولى في التواصـل معهـا قبـل وفاتهـا. وحتـى لـو لم نَعُـد بنفـس درجـة وفاقنـا وصداقتنـا كـما كنَّـا في السـابق، عـلى الأقـل لَـمَا شـعرت بنفـس النـدم الـذي أشـعر بـه الآن. تُـرى، هـل كانـت تنتظـر اتصـالي؟ وهـل كانـت حزينـة عـلى الـدوام لأننـا افترقنـا بتلـك الطريقـة؟ التفكـير بهـذه الطريقـة يعذِّبنـي".

"لم تُرِد لكِ أن تبقَي حبيسةَ الماضي وتتعذَّبي به".

"هذا صحيح، ما كانت لتتمنَّى لي ذلك".

أخذت يوليا تحدِّق في صورة ميجين سونبيه التي تعتلي طاولة الطعام.

"ميجـين، اشـتقتُ لـكِ" قالـت يوليـا ذلـك الـكلام بصـوت منخفـض وهـي تضـمُّ صـورة ميجـين سـونبيه لصدرهـا. "بـدأت أنسـاك شـيئًا فشـيئًا، والآن لا أذكـر فعـلًا كيـف كنـت تبديـن يـا ميجـين". وضعـت ذراعـي حـول يوليـا وهـي تنطـق اسـم ميجـين سـونبيه. كان جسـدها ضخـمًا ودافئًـا. وحـين كنـت أضمُّهـا شـعرت بـأن ميجـين سـونبيه هـي التـي تضمُّهـا. سـمعت صوتهـا يطمئنهـا بداخـل جسـدي قائـلًا: يوليـا، يوليـا، آسـفة لأني رحلـت بهـذه الطريقـة.

اسـتخرجت شريطًـا تسـجيليًا مـن حقيبتـي، كُتـب عـلى الشريـط "كيـم ميجـين، مـن دفعـة عـام 97". أدخلـت الشريـط في مُشـغِّل الشرائـط التسـجيلية وضغطـت عـلى زر التشـغيل. سـمعت صـوت آلات تنبيـه السـيارات قادمـة مـن بعيـد. ثـم سـمعت صـوت ميجـين سـونبيه وهـي تسـعل قليـلًا لتصفِّـي حَلقهـا. ثـم بـدأت تغنِّـي "دو ري مـي فـا صـول لا"؛

لتختار سُلَّمًا إيقاعيًا مُناسِبًا. جاءت يوليا لتستمع بالقرب من مُشغِّل الشريط.

"آه، آه. أنا كيم ميجين من دفعة عام 97. أحضرَ السونبيه حديثًا جهاز تسجيل للفرقة. قالوا لي إن بإمكاني تقييم صوتي بشكل أفضل لو قُمتُ بتسجيله. ومع بعض التدريبات سيصبح بإمكاني أن أصير مغنية جيدة كذلك". أنهت السونبيه كلماتها، ثم أعقبها صوت قهقهات من الفرقة في الخلفية. "هذه هي الروح المطلوبة أيتها الطالبة الجديدة. غنِّي لنا أغنية. غنِّي لنا أغنيتك المفضلة".

غنَّت ميجين سونبيه ذات العشرين ربيعًا، وقت تسجيلها لهذا الشريط، أغنية "زهرة الفاصوليا" بصوت صافٍ وبريء. كان غناؤها صادرًا من زاوية في شقة صغيرة بسانت بطرسبرج، غنَّت بصوت لا زال يهزُّ قلبي. جلستُ جنبًا إلى جنب مع يوليا أمام المُسجِّل ننصت للقصة التي تحكيها ميجين سونبيه. انتهت الأغنية وتبعها صوت تصفيق ثم ضحكت ميجين سونبيه.

غنَّت سونبيه أغنيات لـ"نوتشاسا"[1] و"كوت-دا-جي"[2] و"جانج سا إيك"[3]، إضافة لـ"بوب مارلي" و"بيلي هوليداي". كما تضمَّن الشريط أداءها لأغنيات مايكل چاكسون، وتراتيل لاتينية. أيًّا ما غنَّت، وأيًّا كانت الأغنية، فكنت تشعر أنها أغنيتها الخاصة. صوتها الذي كان

(1) مجموعة من الفرق الموسيقية التي تكوَّنت من مجموعات من الطلاب الجامعيين الذين حُرِموا من ممارسة الديموقراطية أثناء الحكم الديكتاتوري العسكري الذي ساد كوريا في فترة الثمانينات والتسعينيات، فوجد الطلاب في الغناء وسيلتهم للتعبير بحرّية عن أفكارهم السياسية، ويعني اسم الفرقة بالكورية (الباحثون عن الأغاني). (노찻사).

(2) فرقة موسيقية اشتهرت بموسيقاها الشعبية في فترة الثمانينيات أثناء الحكم الديكتاتوري العسكري لكوريا.

(3) (장사익) مغنٍّ كوري مشهور، جمع في أغنياته بين مختلف أنواع الموسيقى، وكان أهمهم موسيقى البان- سوري الكورية التقليدية.

أجشَّ وهي تتحدث، ينقلب للنعومة والصفاء إذا ما بدأت في الغناء. لم تلتزم بأي تقنية محدَّدة في غنائها. ولم تكن تتعمد التأكيد عند بعض المقاطع من خلال منح قوة صوتيَّة أكبر عند بعض المواضع تحديدًا، ولم تستَعِن حتى بطريقة اهتزاز الصوت الشائعة عند المغنِّين. لم تكن ميجين سونبيه تتوسَّل. كانت تغني الأغاني الحزينة بطريقة جافَّة، بينما تغنِّي الأغاني المشتعلة بهدوء.

كنت أمنع نفسي كل هذا الوقت كي لا أستمع للتسجيل خشيةَ ألَّا أتمالك نفسي. كما كنت أخشى أن تطأ قدمي بطرسبرج التي ماتت بها ميجين سونبيه. أردت لمشاعري أن تبقى متماسكة، تمامًا كلوحات متراصَّة خشية أن تنهار جميعها. كان لديَّ هاجسٌ يخشى أن ينهار كل شيء فتتسبَّب الشظايا بجرح داخلي. كانت يوليا هي مَن أخذ بيدي في تلك اللحظة. أخذت عنوان بريدي الإلكتروني وبدأت تراسلني. كنت أكتب لها عن الفترة التي عشتها مع ميجين سونبيه بينما تحكي لي عن الفترة التي عاشتها معها. كلانا كان يحكي عن ميجين سونبيه، ولكن في نهاية الأمر كنت أحكي عن نفسي وكانت يوليا تحكي عن نفسها. كنا نتبادل الرسائل على مدار عام، وكأنني أكتب مذكراتي لامرأة بولندية لم ألتقِ بها في حياتي.

كنت أسمع صوت الدراجة النارية وهي تحتكُّ بالأرض حين تتوقَّف، أو صوت طنين الثلاجة المتكرِّر. كنت أنا ويوليا نتحاشى التواصل البصري، ولكن في مرحلةٍ ما بدأنا ننظر في وجه بعضنا البعض. الأغنية الأخيرة كانت أغنية "زهرة الفاصوليا" التي غنَّيتها مع سونبيه. كنت حينها في الثالثة والعشرين، وكانت سونبيه في الثامنة والعشرين من عمرها، وقد غنَّينا الشِّعرَ بأصدق وأجمل حرارة نبعت من قلبينا. حينها عندما لم أكن مريضة، ولم تكن متوفَّاة، عندما لم نكن أي شيء يُذكَر، افترقنا حينها.

هبَّت نسمات رقيقة في غرفة الجلوس حيث جلست مع يوليا ووجهي مقابِل لوجهها. كنت مثل يوليا بدأت أنسى ميجين سونبيه ببطء. المشاعر التي كانت تعتريني وأنا أغني تلك الأغنية أصبحت باهتةً في هذه اللحظة. فقدت عقلي بعد رحيلها لمدة عام ، لكن مرارة فقدانها وشوقي لها الذي كان أقربَ للغضب، بدأ يشحب بمرور الوقت. أخذت أستمع لدوران الشريط لبعض الوقت حتى بعد انتهاء الأغنية، ثم ضغطت على زِرِّ الإيقاف. يوليا، التي احمرَّ وجهها، حاوَلت جاهدة الابتسام في وجهي. انتهت الأغنية وقد تُركنا مع الوقت الذي لم يُمنح لميجين سونبيه.

قررنا في اليوم التالي أن نركب قاربًا، وقرَّرنا أن نستند على الدرابزين وأن نلوِّح بأقصى طاقتنا للمارِّين على الجسور والطرقات، وستكون تلك أولى رحلاتي مع يوليا.

ميكائيلا

1

أخَـذَت تنظـر مـن نافذتهـا للنـاس أسـفل منهـا. في العـادة، كان أتبـاع الكنيســة الكاثوليكيــة يجلســون في شــوراع مــرور الســيارات لمتابعــة القُـدَّاس. كان البابـا يلقـي القُـدَّاس في ميـدان كوانـج هـوا مـون مـن مـكان بعيـد، وقـد اكتظَّـت منطقتـا كوانـج هـوا مـون وجونـج رو بالحضـور.

"سـنلتقي في السـاعة الخامسـة فجـرًا ثـم ننطلـق. سـمعت بأننـا سنسـتغرق الكثـير مـن الوقـت حتـى نجـد بقعـة مناسـبة حتـى ولـو وصلنـا لسـيؤول".

كانـت أمهـا متحمِّسـةً كطفلـة ذاهبـة في نزهـة، وقالـت لهـا أن تنظـر مـن نافـذة مكتبهـا لتبحـث عنهـا وسـط الحشـود؛ إذ رُبمـا يقـام القُـدَّاس ناحيـة المبنـى الـذي تعمـل بـه. لصقـت جبهتهـا عـلى نافـذة المكتـب،

وبـدأت تراقـب الحشـود، ولكـن كل مـا اسـتطاعت رؤيتـه مـن الطابـق الخامـس عـشر كان مجـرَّدَ أمـواج بيضـاء مـن أغطيـة الشـعر.

"لـن تظفـري برؤيـة واضحـة لوجـه البابـا، الأفضـل لـك أن تتابعيـه عـلى شاشـة التلفـاز. هـل تريديـن تكبُّـد كل ذلـك العنـاء حقًّـا منـذ الفجـر؟".

"يبـدو أنـك لا تعلمـين عـمَّا تتحدثـين. سـأحضر قُـداس يرأسـه بابـا الڤاتيـكان برفقـة الكثـير مـن أتباعـه. لـن أحظـى بفرصـة كهـذه طيلـة حيـاتي. كـم أنـا ممتنَّـة عزيـزتي ميكائيـلا".

قبـل خمـس وعشريـن سـنة لحقـت بأمهـا لسـيؤول لحضـور قُـدَّاس يرأسـه بابـا بولنـدي المولـد. أقيـم القـدَّاس بميـدان يوئيـدو، الـذي لم يَعُـد لـه وجـود حاليًـا، وقـد جـذب حـوالي سـتمائة وخمسـين ألفًـا مـن أتبـاع الكنيسـة الكاثوليكيـة. وكل مـا تذكـره عـن ذلـك اليـوم هـو مـذاق حلـوى الخـوخ التـي دسَّـتها أمهـا في فمهـا. أخـذت أمهـا تقضـم الحلـوى بفمهـا ثـم تناولهـا لابنتهـا قطعـة قطعـة حتـى لا تختنـق جـرَّاء القطـع الكبـيرة. كان اليـوم دافئًـا إلَّا مـن بعـض النسـمات البـاردة التـي وشـت بقـدوم الخريـف. وكانـت الصغـيرة قـد غفـت عـلى صـدر أمهـا وقـد لطَّختـه ببعـض اللعـاب الحلـو السـائل مـن فمهـا مـن أثـر الحلـوى. كان ملمـس الهانبـوك التـي ترتديـه أمهـا خشِـنًا عـلى وجنتهـا.

علَّقَـت أمهـا الصـورة التـي التقطتهـا في ذلـك اليـوم عـلى الحائـط في غرفـة المعيشـة. وفي الصـورة كانـت الأم ترتـدي هانبـوك بلـون زهـري مـع غطـاء رأس خـاص بحضـور القُـدَّاس، وكانـت تضحـك في الصـورة بينـما كانـت ابنتهـا تقـف بجانبهـا بوجـه متجهِّـم، مرتديـة فسـتانًا أبيـض وجوربًـا طويـلًا مـن نفـس لـون الفسـتان. فسـتان قـد حصلـت عليـه بعـد أن نجحـت أمهـا في اسـتعارته بعـد أن اتَّصلَـت بجميـع أصدقائهـا في حيِّهـا. كانـت ممسـكة بنهايـة فسـتان أمهـا ولم تكـن قـد أفاقـت بشـكل كامـل بعـدُ.

أخـذت الأم تحـكي لهـا وهـي تنظـر للصـورة المعلَّقـة كـم كان الجـو بديعًـا في ذلـك اليـوم، وكـم كان منظـر القساوسـة بديعًـا، وقـد ارتـدوا أرديتهـم الكهنوتيـة البيضـاء، أثنـاء دخولهـم في الموكـب القـدَّاس. كـما حكـت عـن كمِّيَّـة البَرَكـة التـي حظيـت بهـا عائلتهـا في ذلـك اليـوم. أخبرتها أن أعـدادًا غفـيرة مـن النـاس تمنَّـوا حضـور القُـدَّاس ولكنهـم لم يتمكَّنـوا مـن ذلـك، بينـما حظيـت بتلـك الفرصـة، وهـذا ليُذكِّرهـا كـم يحبهـا الـرب. وأخبرتهـا أن عليهـا أن تـدرك كـمَّ النِّعَـم التـي تتلقاهـا مـن الـرب، وأن تملـك قلبًـا شـاكرًا حتـى في الأوقـات الحزينـة.

كانـت أمهـا كذلـك عـلى الـدوام؛ كانـت تشـكر الـرب عـلى تمـام نضـوج مخلَّـل الكيمتـشي، وتشـكره عـلى انخفـاض سـعر لحـم الخنزيـر بمـا يمكنهـا مـن إطعـام أسرتهـا، وتشـكره عندمـا تلتئـم البُـثرة عـلى إصبـع قدمهـا، وتشـكره أنـه منحهـا الصحـة لتعمـل، وأنهـا تسـتطيع أن تتنـاول الطعـام في المطاعـم، وتشـكره حينـما تسـوء الأمـور وحـين تنصلـح.

ولكـن الابنـة رأت مـن خـلال ابتهـالات أمهـا بالشـكر أمـرًا آخـر، وهـو واقـع حيـاة أمهـا البائسـة؛ فـما حاجـة مـن اعتـاد ارتيـاد المطاعـم للشـكر؟ ومـا حاجـة مَـن اعتـاد عـلى تنـاول اللحـم بالكميـة التـي تُشـبعه أن يكـون شـاكرًا عنـد انخفـاض أسـعار اللحـوم؟ ومـا حاجـة مَـن حظيـت بـزوج غنـيٍّ، أو كانـت مـن أسرة لأبويـن ميسـوري الحـال، فـلا تُضطـرُّ لتحمُّـل الألم البـدني المصاحـب للعمـل وهـي واقفـة لمـا يزيـد عـن عـشر سـاعات يوميًـا، أن تشـكر؟ كانـت ميكائيـلا تظـن أن الأَوْلَى بأمهـا أن تصبـح أكـثر صدقًـا حيـال وضعِهـا، وتمنَّـت لـو أبـدت تذمُّرهـا مـن ذلـك الوضـع؛ فقـد شـعرَت لفـترة طويلـة بـأن إحسـاس أمهـا بالامتنـان إزاء واقعهـا المُـزري كان ضربًـا مـن الخـداع.

نظـرت مـن النافـذة، بعـد أن أنهـت عملهـا، فوجـدت أن الجميـع قـد رحلـوا بالفعـل ولم يبـقَ سـوى السـيارات تشـغل المـكان. كانـت تراقـب

الناس في هدوء وهم يتفرّقون تجاه أرصفة المُشاة، ثم طرأ في ذهنها خاطر يتساءل عن مكان أمها الآن.

"سأذهب لمنزل إحدى صديقاتي. كانت تقطن في حيِّنا ثم انتقلت لسيؤول. لن تعرفيها حتى لو حكيتُ لك عنها. كم أنا ممتنَّة لها".

قرَّرت أمها أن تغلق أبواب محلها لتصفيف الشعر لمدة ثلاثة أيام وليلتين، وتذهب في رحلة لزيارة الأماكن السياحية بسيؤول. وكانت الخطة أن تحضر القُدَّاس في يوم السبت، ثم تزور كلًّا من منطقة ميونج دونج وبرج نام سان، ومبنى 63 في يومي الأحد والاثنين. كما ودَّت لو كان بإمكانها ركوب قارب نهريٍّ بطول نهر الهان. كانت مستاءة من أمها التي لم تفكر في مدى انشغال ابنتها ورغم ذلك قَدِمَت إلى سيؤول.

علَّقَت آمالها على ذِكر أمها لجملة "إحدى صديقاتي"؛ رُبما ستذهب أمها لزيارة الأماكن السياحية مع تلك الصديقة. ففي نهاية الأمر الأم لم تعرض على ابنتها مرافقتها لزيارة تلك الأماكن. ونظرًا لأنها لم تتصل بها بعد انتهاء القُدَّاس فذلك يعني أن السيدتين قد التقيتا بالفعل وذهبتا لمنزل صديقة أمها.

لم تَزُر الأمُّ ابنتَها في منزلها بسيؤول سوى مرة واحدة فقط. والسبب لأنها كانت تسكن مع رفيقة سكن حتى وصلت لسنِّ السابعة والعشرين من عمرها، ولم تأتِ تلك الزيارة سوى حينما استقلَّت الابنة بشقة بمفردها. حوت علبة حفظ الطعام التي أحضرتها أمها على اللحم المشوي، يخنة سمك البلوق، أوراق البيرلا المُتبلة، مسحوق الفلفل الحار، براعم الفجل المخلل، وزيت السمسم. حينما رأت الابنة تلك العلبة الثقيلة مثل الصخرة شعرت بالضيق لأن أمها قد تكبَّدَت العناء في حملها لزيارتها وركبت بها الحافلة ثم القطار ثم مترو

الأنفاق؛ لذا لم تكن الابنة مسرورة من تلك الزيارة، بل على العكس من ذلك.

"ثلاجتك صغيرة للغاية".

زفرت الأم باستياءٍ أمام ثلاجة ابنتها الصغيرة التي اكتظَّت بعُلَب الجعة المعدنية.

"ما العمل في كل تلك الأشياء التي أعددتها؟ حتى مسحوق الفلفل الأحمر ستتكالب عليه الحشرات إن لم يُحفظ في الثلاجة".

فتحت الأم غطاء علبة الطعام مُحكمة الإغلاق التي تحوي اللحم ثم شمَّته وقالت:

"علينا أن نأكله عن آخره اليوم يا ميكائيلا".

أخذت ميكائيلا ووالدتها تتناولان اللحم المشوي في كلٍّ من وجبتي الغداء والعشاء.

كانت بطنها قد امتلأت بالطعام بالفعل، ولكن أمها أجبرتها على تناول المزيد خشية أن يَفسَد اللحم. أخرجت الأم من الثلاجة الصغيرة عُلَب الجعة المعدنية ووضعت بدلًا منها كلًّا من يخنة سمك البلوق، وأوراق البيرلا المُتبَّلة، ومسحوق الفلفل الحار، وبراعم الفجل المخلَّل، بعد أن أفرغتهم في كيس بلاستيكي. المحتويات كانت كثيرةً مقارنة بحجم الثلاجة التي عجزت عن إغلاق بابها، فأخرجت بعض القطع من اليخنة وطلَبَت من ابنتها تناولها، فأكلتها الابنة.

لم تكن الأم ستبيت عند ابنتها في هذه الليلة، فبدأت تعدُّ أغراضها لركوب القطار. تلك الأم التي لم تعرف طريقًا للراحة. حتى إيجار المحل الذي تعمل به كان يرتفع باستمرار، ورغم ذلك لم ترفع الأجر الذي تتقاضاه من الزبائن طوال الخمس عشرة سنة عن عملها في قصٍّ وفَرْد الشعر؛ ممَّا يعني أنها تجارة لا تُدِرُّ عليها ربحًا. حتى

بعد أن أخبرتها ابنتها بأنها ستصحبها حتى محطة سيؤول للقطارات، فرفضت الأم، وأخبرتها بأن ترتاح وتأخذ كفايتها من النوم، وكانت تُصرُّ على الذهاب وحدها. رحلت الأم ثم أصيبت ابنتها بعُسر هضم حادٍّ، تقيَّأت على إثره كل الطعام الذي تناوَلَته، ورغم ذلك شعرت ببرودة في جسدها الذي ابتلَّ بعَرَقها، وانتهى بها الأمر في غرفة الطوارئ.

أمها لم تعرف حقًّا أي شيء عن مراعاة الغير.

2

لم تَصِلها أي مكالمات من ميكائيلا. تُرى هل هي مشغولة؟ مسحت المرأة عَرَقها المتصبِّب بأكمام الهانبوك الذي كانت ترتديه، وحينها فقط تذكَّرَت أنه مستعار. كان كل ما شغل تفكيرها وهي تنتظر بداية القُدَّاس هو كيف لها أن تدفع ثمن السُّترة العلوية من الهانبوك. كان عليها ارتداء الهانبوك مع المحافظة على نظافته، ومع انتهاء فترة الظهيرة كان العَرَق يتصبَّب بغزارة من تحت إبطها، فترك أثرًا قبيحًا على قماش الفستان.

كانت قد استعارت فستانها من إحدى الأخوات في فيلق مريم العذراء بالكنيسة؛ لذا كان يختلف عن الهانبوك العادي. حصلَت تلك الأخت على الفستان في زفاف ابنتها كهدية من والِدَيْ صهرها. كان باهظَ الثمن؛ حيث يتكوَّن من فستان باللون الأزرق مع سُترةٍ علوية باللون الأصفر الفاتح. ومن الواضح أن صاحبة الرداء لم تُخرِجه من خزانتها قطُّ إلَّا لو كانت سترتديه في قُدَّاس مَهيب، ولكنها أقرضته إيَّاها بكل سرور لترتديه لحضور قُدَّاس البابا. فكَّرَت المرأة أنه سيكون عليها دفع تعويض لصديقتها في حال عجزت المغسلة عن محو آثار العَرَق التي خلَّفتها على الرداء. كانت تعلِّق حقيبة كرة السلة على ظهرها. والآن كان عليها البحث عن مكان لتقضي فيه ليلتها.

كانت قد أخبرت الناس في الكنيسة بأنها ستبيت في منزل ميكائيلا بسيؤول، وأنها ستتجوَّل في المدينة لأول مرة في حياتها، وحتى تكتمل رحلتها فسوف تزور برج نام سان، وحتى الرحلة النهرية ستكون ضمن خطتها. كان الناس يقولون إن ميكائيلا قد تبدو جافَّةً من الظاهر، ولكنها ذات قلب طيب، وأن ابنتها هي عِوَضُها عمَّا رأته من مشاقٍّ في حياتها.

كانوا على حقٍّ؛ كانت ميكائيلا دومًا الابنة التي يمكن أن تعتمد عليها. كانت تشعر حيالها بمزيج من الامتنان والشفقة، لأنها كان عليها أن تغرس جذورها بمفردها في سيؤول بعد خوض الكثير من الصعوبات. لم يكن بمقدور أمِّها ماديًّا أن ترسلها لمعاهد التعليم الخاصة كباقي الآباء، وكانت تشتري لها زيَّها المدرسي من السوق، لا من العلامة التجارية المعروفة. حتى مُدخَّراتها لم تكفِ سوى لتأمين مصاريف القبول في الجامعة والفصل الدراسي الأول فقط، ولا شيء أكثر من ذلك. عادت ميكائيلا لمنزلها بالقرية خلال العطلة الصيفية للفصل الدراسي الأول وأخبرت أمَّها أنها سوف تعمل لتوفير مصاريفها الدراسية، وطلَبَت منها أن تتوقف عن إرهاق نفسها في العمل.

كانت الأم تشعر بالخزي كلما فكَّرَت في ابنتها؛ فشعورها بالذنب تجاهها، لأنها لم يكن بوسعها أن تفعل أي شيء لها، دفعها لتقرِّر ألَّا تكون عبئًا عليها على الأقل. كما كانت تدَّخِر مبلغ ثلاثمائة ألف وون شهريًّا في حساب الادِّخار الخاص بها لتأمين نفقات زواج ابنتها، وقد خطَّطَت لادِّخار المزيد من أجل نفقات ما بعد التقاعد.

"لن أتزوَّج يا أمي". كانت ميكائيلا قد صرَّحَت بالأمر منذ سِنٍّ صغيرة.

"الفتيات اللاتي يَقُلن هذا الكلام مثلك هُنَّ أول مَن يتزوَّجن، صدِّقيني".

بدت وديعة وهي تقول تلك الكلمات، وخاصة حينما ترسم ملامح الامتعاض على وجهها، ولكن حينما كرَّرَت ميكائيلا نفس الكلام بعد أن وصلت لسنِّ الثلاثين، بدأت أمها تشعر بالقلق حينها؛ إذ ربما تكون ابنتها جادَّةً فيما تقول.

لم تكن هناك عروس أفضل من ميكائيلا؛ فالفتاة قد تخرَّجَت في جامعة بسيؤول، كما حصلت على وظيفة هناك، وكان لديها من الموارد المالية ما يؤهِّلها لدفع مبلغ الإيداع الباهظ لشقتها المؤجَّرة. ورغم أن شخصيتها لم تكن ودودةً بشكل خاص، إلا أنها كانت مُهذَّبة، وتتحدَّث بشكل لائق. حتى لو سمعتها وهي تتحدَّث كلامًا عاديًّا للاحظت على الفور أنها قد درست بسيؤول. ولو شاءت لتزوَّجَت من شخص غني، ولكانت أنجبت طفلين بحلول هذا العمر.

ولم تفهم المرأة لِمَ اختارت ميكائيلا طريقًا محفوفًا بالأشواك والصعاب بدلًا من الطريق السهل. وفي نهاية تفكيرها كان هناك على الدوام وخزات تأنيب الضمير المتمثِّلة في جملة "ربما كنتُ السبب"، فعلى كل حال، هي لم تكن جيدة بما يكفي لتكون أمّ ميكائيلا.

تحرَّكت المرأة تجاه مترو الأنفاق. كانت خطتها هي البحث عن مكان للمبيت في حي مانج وون- دونج، حيث تسكن ابنتها. وربما اتَّصلَت ميكائيلا غدًا لتناول طعام الغداء سويًّا، ولكنها كانت تفتقد للشجاعة الكافية لتطلب ابنتها أوَّلًا. ألن تكون مكيائيلا في دوامها يوم عطلة عيد الاستقلال وكذلك اليومَ السبت؟ لم ترغب المرأة في الضغط على ابنتها المشغولة. كل أمنيتها كانت أن ترى وجهها ولو لمرة واحدة، ولكن حتى تلك الأمنية بدت بالنسبة لها أنانية منها. وبكثير من المجهود نجحت في تهدئة قلبها.

مرَّ عليها وقت كانت ترى فيه ابنتها وقتما شاءت. كانت تصل البيت بعد انتهاء دوام عملها فتجدها تصيح في سعادة قائلة "أمَّاه!"،

وتجري تجاه أمها. كانت كل أوجاعها تختفي بمجرد أن تضمَّها إليها، كانت تمنحها القوة لتستكمل عملها في اليوم التالي. مَن غيرها في هذا العالم الذي سيمنحها كل هذا الحب، ويركض نحوها بوجهه الجميل هذا ليرتمي بين أحضانها؟

ولكن هذه الأيام قد ولَّت، إلا أنها لم تنسَ الحب الذي تلقَّته من ميكائيلا. يقولون إن الدَّين الذي ندين به لأبوينا عظيم مثل السماء، وعلى العكس من ذلك، فإن الحب الذي منحته لها ابنتها كان مثل السماء. الحب الذي منحته لها ميكائيلا الصغيرة كان دافئًا مُخصَّصًا لها وحدها، حبٌّ لن تجده في أي مكان آخر على وجه الأرض.

كان سعر الليلة في الفندق الصغير الذي بُني على طراز المطعم الصيني بثمانين ألف وون. نظر لها الموظف على مكتب الاستقبال في تشكُّك وقال لها:

" قلت لك ثمانين ألف وون. تسعيرة عطلة نهاية الأسبوع".

بدأت تتحقَّق من قائمة الأسعار الملصقة على زجاج مكتب الاستقبال. وكما ذكر الرجل، فسعر الليلة في أيام الأسبوع ستُّون ألف وون، بينما يرتفع إلى ثمانون ألف وون في أيام العطلة الأسبوعية. مقولة إن الأسعار في سيؤول قاتلة لم تكن من فراغ. حاولت البحث في فندقين آخرين في الجوار، ولكنهم طلبوا نفس المبلغ أو حتى أكثر. بدأت قدماها تتورَّمان بداخل حذائها التقليدي. أعادت ربط عُقدة سُترتها العلوية التي انحلَّت، ثم مشت لمحطة الحافلات القريبة. وصل العَرَق المتصبِّب من تحت إبطها هذه المرة حتى أطراف أكمامها. كان عليها أن تسدِّد ثمن الهانبوك لا محالة. لم تستطع حتى أن تبدأ في تخمين سعر الفستان.

وعلى محطة انتظار الحافلات سألت سيدة في منتصف العمر تجلس بجوارها على المقعد الخشبي: "هل هناك أي غرف ساونا بالجوار؟".

"اركبي نفس الحافلة التي سأركبها. وأنا سأدلُّكِ على مكانها، لأنني سأنزل بعدك. هل أتيتِ لحضور حفل زفاف؟ من أين أنتِ؟".

كانت شديدةَ الحذر، لأنها توقَّعت أن أهل سيؤول سيكونون متغطرسين، إلّا أنها اطمأنّت لمقابلة مَن يجيبها ويريد مساعدتها؛ لذا أخبرت السيدة، التي كانت في منتصف العمر، بكل فخر، بأنها جاءت لحضور القُدّاس الذي ترأَّسه الأب المقدَّس اليوم. وأضافت أنها المرة الثانية التي تحضر فيها للأب المقدَّس. ارتفعت كتفاها فخرًا وهي تقول:

"حضرت القُدّاس الذي أقيم في ميدان يوئيدو عام 89. كان يرأسه حينها الأب المُقدَّس يوحنا بولس الثاني".

قطعت المرأة الأربعينية كلامها وسألتها:

"ولكن لماذا لم تعودي مع باقي رفاق الكنيسة؟".

بدت لهجتها وكأنها غير مهتمّة بأمر الأب المُقدَّس.

"عليَّ أن ألتقي بشخصٍ ما".

"يبدو أنه ليس لك أبناء يسكنون في سيؤول. ورغم ذلك، هل تنوين الذهاب لغرفة الساونا بهذه الهيئة؟".

"كلّا... ليس الأمر كذلك".

"هنا. يمكنك أن تنزلي هنا". كادت المرأة الأربعينية أن تدفعها من الحافلة. نظَرَت المرأة للحافلة المغادِرَة وأخذت تلوِّح بيدها، وجال بخاطرها أن ليس كل أهل سيؤول من المتغطرسين.

3

أمها لم تتَّصل.

تُرَى كم كانت أمها سعيدة بالأمس. وترى كم مرة صاحت بأنها ممتنَّة لحضور هذا القُدَّاس حتى ولو لم تتمكَّن من رؤية وجه البابا. ضحكت ميكائيلا من الفكرة. كانت أمها امرأة بسيطة، فلم تنظر للأمور بشكل ملتوٍ، ولا تسيء الظن بالأشخاص. وتلك البساطة والسذاجة زادت معاناتها في الحياة. كانت تعيل زوجها وتؤمِّن رزق أسرَتها، وكل ذلك بقبولٍ أعمى من جانبها، وحينما وصلت ميكائيلا لمرحلة المراهقة، كانت العلاقة بين أبويها مثل علاقة الحيوان الطُّفيلي بمضيِّفه، حيث كان والدها يتسكَّع في المنزل على الدوام، بينما كانت أمها تعمل، حتى أصبح شكل يديها مثل قدميها.

كانت حياة والدها حبلًا مستمرًّا بلا نهاية بين إيجاد الوظيفة وفقدانها. في شبابه، أراد تسخير نفسه لقضايا الضعفاء على هذه الأرض، فالتزم بالحركة العمالية وعمل متخفِّيًا في أحد المصانع، بجانب التدريس الليلي. كان كثيرًا ما يصاب بنزيف في أنفه أثناء الحصَّة، وكانت أُمُّها، التي كانت إحدى طلابه في تلك الفترة، تبكي ويمزِّقها شعور الشفقة حياله. مَن الذي كان عليه أن يساعد الآخر؟ كانت تحمل أستاذها الذي يسقط مغشيًّا عليه في أي مكان، وتذهب بحثًا عن طلب المساعدة، وحينما بدأ يتواعدان كانت تستنفد جميع مدخَّراتها لتشتري له الأعشاب الطبية. لم يكن هناك زفاف ولا شهر عسل؛ لأن أباها كان في السجن في تلك الفترة، وكانت متعة أُمِّها الوحيدة وهي عروس جديدة أن تشارك زوجها بعض الكلمات خلال زيارته الأسبوعية في السجن.

"كم كنت ممتنَّة لتلك الأيام!".

كان ذلك هو ما تحكيه أمي عن تلك الأيام. كانت كثيرًا ما تتحدث عن أن تلك الزيارة كانت تجعلها في مزاج جيِّد، بدءًا من الصباح وحتى ينتهي بها الأمر بقضاء ليلتها مستيقظة بلا نوم. ووصل عدد البطاقات البريدية التي كانت تكتبها له كل يوم بعد انتهاء دوام العمل لما يزيد عن خمسمائة بطاقة.

وبعد أن أُطلِق سراح والدها من السجن، وبفضل بعض من توسَّطوا له عند بعض الشركات الصغيرة؛ نجح في الحصول على وظيفة، ثم ما يلبث أن يتركها بعد فترة وجيزة. كان يعمل في بعض الأحيان بنظام التعاقد من الباطن مع بعض دور النشر، فيقوم بمهام المراجعة اللغوية أو الترجمة في أحيان أخرى. وبالطبع لم تؤمِّن هذه الوظائف النقود اللازمة، وكان كلما أنهى كتابًا سقط مريضًا طريح الفراش في أحد المشافي. كان والدها بالنسبة لها ذلك الشخص الذي يرقد باستمرار في المشفى وقد عُلِّقت له محاليل الوريد، أو الذي يحمل ملعقةً بأصابعه، التي لم يبقَ منها سوى العظام، مقلِّبًا طبقًا من العصيدة مائية القوام. ورغم بنيته الضعيفة، إلا أنه لم يتغيَّب عن أي مظاهرة كبرى في سيؤول، كما كان يشجِّع ابنته، التي كانت في المرحلة المتوسطة، على قراءة رسائل كيم داي جونج التي كتبها في المعتقل، والكتب التي كتبها هام سوك هيون.

كانت تفكر في أمره قائلة: ما بال هذا الرجل؟ ما علاقة إن تولّى كيم داي جونج أو لي هويه تشانج الرئاسةَ بحياتنا؟ كانت أمها تعمل بلا توقُّفٍ في فَرْد شَعر النساء ممَّن بلغن منتصف العمر، حتى أصبحت يداها تشبه قدميها، وكل ذلك لتأمين ثمن رحلة ابنتها الدراسية. كان والدها يتحدث على مائدة العشاء عن الرأسمالية التي تهمِّش الفقراء، وأن الطبقة المتوسطة ستنهار سريعًا في المستقبل، وستدفع بالكثيرين للفقر.

وماذا في ذلك؟ أبي، هو مَن يدفع بأسرتنا نحو الفقر ليس العالَمَ ولا الرأسمالية، بل أنت على وجه التحديد. هل تعتقد بأن لديك الحق أن تتكلَّم عن مثل تلك الأمور بينما تدفع بزوجتك للعمل وهي تقف على قدميها طوال النهار في محل لتصفيف الشَّعر لا تتجاوز مساحته الثلاثة والعشرين مترًا مربَّعًا، وذلك لعَجزِك عن تأمين نفقات معاشك اليومي؟ ولكنها ما عادت تفهم أباها ولا أمها مطلقًا. كانت أمها تعود من دوام عملها ثم تغيِّر ملابسها وتبدأ في تفقُّد أمور زوجها. وتسأله إن كان مُتعَبًا في ذلك اليوم... وهل أعجبه الكتاب الذي يطالعه... كانت ميكائيلا تعتقد بأن سبب انفصال أبيها عن العالم وتعلُّقه في فقاعة أحلامه تلك بسبب تقبُّل أمها التام له، وأن أمها لم تحب نفسها بالقدر الكافي؛ ولذلك قَبلَت على نفسها أن يتم استغلالها على هذا النحو من قِبَل شخص مثل أبيها. والحقيقة أن تلك العلاقة لم تكن حبًّا، بل استغلالًا من طرف واحد.

اتصلت ميكائيلا بأمها، فسمعت رسالة مسجَّلة تخبرها بأن هاتفها مُغلَق. كان من الواضح أن أمها قد نسيت أن تحضر معها شاحن الهاتف. في مثل تلك الأحيان كانت أمها هي مَن تبادر بالاتصال قبيل انقطاع الهاتف عن العمل؛ لذا فكان من الغريب ألَّا تتلقَّى منها أي اتصال، وخاصة أنه بإمكانها اقتراض هاتف أي شخص آخر في حالة الضرورة، حتى لتخبرها عن رأيها بعد حضوْر القُدَّاس، وتُطلِعها على خطتها لذلك اليوم. قرَّرَت أن تتصل على السيدة سكولاستيكا.

"لم أستطع الذهاب لسيؤول بالأمس. خسرت في القرعة. لا تقلقي على أختنا. تلك السيدة كثيرًا ما تنسى أن تشحن هاتفها. انتظري، ألديكِ رقم السيدة إليزابيث؟ نعم، أقصد السيدة التي تغني في الكورال".

"مـاذا؟ مـاذا تقصديـن؟ أخبرتنـي أنهـا سـتبيت في منزلـك. ألم تـأتِ لمنزلـك؟ ولم تتصـل حتـى؟ يـا إلهـي، مـا الـذي حـدث؟' منـزل صديقتهـا؟ هـل تعـرف أي أحـد في سـيؤول؟ أخبرتنـي بالفعـل بأنهـا سـتبقى عنـدك، أنـا متأكّـدة مـن ذلـك".

بينـما كانـت عـلى الهاتـف مـع السـيدة إليزابيـث أذاع التلفـاز منظـرًا شـاملًا لميـدان كوانـج هـوا مـون. أظهـرت الكامـيرا كُشـكًا خـاص بجمـع التوقيعـات لتقديـم التـماسٍ حـول "القانـون الخـاص لتقـصي حقيقـة مـا حـدث في كارثـة العبّـارة سـيه وول في السـادس عـشر مـن إبريـل وبنـاء مجتمـع آمـن". وكانـت هنـاك خيمـة نُصِبَـت خلـف ذلك الكُشـك، جلسـت تحتهـا امـرأة عجـوز بجانـب امـرأة أربعينيـة. كانـت لحظـةً سريعـة، ولكنها أدركـت عـلى الفـور بـأن تلـك المـرأة كانـت أمَّهـا. ومـمّا أكّـد لهـا ظنهـا حقيبتُهـا التـي كانـت ملقـاةً بجانبهـا. تُـرى، لمـاذا تجلـس أمهـا في ذلـك المـكان؟ خرجـت ميكائيـلا سريعًـا مـن منزلهـا دون أن تغسـل وجههـا حتى.

4

كانـت غرفـة السـاونا التـي دلّتهـا عليهـا السـيدة في موقـف الحافـلات أصغـرَ مـمّا قـد توقّعَتـه. خلعـت عنهـا رداء الهانبـوك الـذي كانـت ترتديـه، وبـدأت في فَرْك جسـدها لتزيـل عنـه الأوسـاخ. رأت الكثـير مـن الأمهـات وقـد حـضرن بصُحبـةِ بناتهـنّ لتمضيـة الوقـت سـويًّا خـلال عطلـة نهايـة الأسـبوع الطويلـة في حـمام السـاونا. منظـر الأطفـال الذيـن كانـوا يركضـون في كل اتجـاه جعلهـا تبتسـم تلقائيًّـا. بينـما أجلسـت الأمهـات الشّـابّات أبنائهـن عـلى كـراسي الاسـتحمام، وبـدأن في فـرك كلّ بقعـة في أجسـاد أطفالهـن الصغـيرة بالصابـون. وفي المقابـل بـذل الأطفـال مجهـودًا في غسـل ظهـور أمهاتهـن.

تُـرى، هـل سـأكون جـدّةً مثلهـن في يـوم مـن الأيـام؟ كاد قلبهـا ينفطـر مـن فكـرة أنهـا قـد تُـرزق بحفيـد يركـض نحوهـا ذات يـومٍ. لا زالـت

الحيـاة تتفتَّــح أمامهـا وتَعِدهـا بحلـم جديـد. ورغـم أن ذلــك الحلـم صعـب التحقيـق، إلَّا أن وجـوده كان كافيًـا ليمنحهـا طاقـة جديـدة وشـهية عـلى الطعـام.

كلـما فكَّـرَت كـم هـي محظوظـة لأنهـا تعيـش هـذه اللحظـة تذكَّـرَت عـلى الفـور زوجهـا الـذي اسـتدعته السـماء منـذ ثلاثـة عـشر عامًـا. كلَّـما تذكَّـرَت زوجهـا أحسَّـت وكأن بنـدولًا ثقيـلًا يخـدش قعـر قلبهـا ويمزِّقـه. لم يتسـنَّ لزوجهـا حتـى رؤيـة ميكائيـلا وهـي تلتحـق بالجامعـة، ولا حتـى أن يراهـا كيـف كـبرَت وأصبحـت شـابَّةً يافعـة. لم يسـبق لـه أن حـضر القُـدَّاس الـذي ترأَّسـه البابـا في ميـدان كوانـج هـوا مـون، نعـم... حتـى جزيـرة جيجـو التـي يرتادهـا الجميـع، لم يسـبق لـه أن زارهـا مطلقًـا. كانـت تتسـاءل إن كان هنـاك مَـن هـو أفقـر منـه، ثـم تبـكي حـين تفكِّـر أن روحـه الآن مرتاحـة في مـكان بـلا ألم.

كان الجـيران في حيهـا يشـعرون بالشـفقة حيالهـا لأنهـا مُنيـت بـزوج لا يمكنـه إعالـة أسرتـه. قالـت لهـا ميكائيـلا بـأن أمهـا هـي مَـن تـأذَّت مـن عجـز والدهـا. وكان كلامهـا صحيحًـا. فمنـذ أن التقـت بـه حتـى بـدأت الحيـاة تُخضِعهـا تحـت أحكامهـا أضعافًـا مضاعفـة. عاشـت حيـاةً بـلا مُتنفَّـس، لدرجـة أنهـا لم يسـبق لهـا الذهـاب للاسـتمتاع برؤيـة أشـجار الخريـف المتلوِّنـة مثلهـا مثـل أي شـخص آخـر. كانـت تـتردَّد دومًـا عـلى السـجون والمستشـفيات، بينـما كان مـن المفـترض في قَدَرهـا ألَّا يكـون لهـا دخـل بهـذه الأماكـن. كـما كانـت تعمـل دون راحـة أو عطلـة أسـبوعية لتسـدَّ فجـوة حسـابهم البنـكي البائـس.

ورغـم ذلـك لم توافـق أبـدا عـلى رأي النـاس حـول زوجهـا حـين يسـيؤن الظـن بـه قائلـين بأنـه لا يتجشَّـم العنـاء في المحاولـة. كان يقـرأ الكتـب، ويكتـب المقـالات، ويتواجـد حيـث يجـب أن يكـون، وذلـك مـا كان مطلـوب منـه فحسـب، وحينهـا كان أكـثر النـاس اجتهـادًا في تلـك المواضـع؛

وعليـه، فليـس مـن المنصـف الحُكـمُ عليـه بأنـه عاجـز لمجـرَّد أن الوظيفـة التـي يؤديهـا لا تُـدرُّ عليـه المـال الـكافي.

كانـت تؤمـن أن العـالم بحاجـة لمختلـف صنـوف البـشر. صحيـح أننـا بحاجـة لمـن يضـع لفائـف الشـعر للتصفيـف، إلا أننـا بحاجـة لأمثالـه كذلـك. وكـما أن هنـاك رجـالًا يعملـون لكسـب أقـوات أُسَرِهـم، فـإن هنـاك مـن الرجـال مَـن يرعـى شـؤون البيـت، وهـو يراعـي طفلتـه. وبعـد أن احتكَّـت بالعـالم الخارجـي، فلـم يسـبق لهـا أن رأت مَـن هـو في رِقَّتـه وطيبتـه. لم ترغـب في أن تطلـب منـه أن يلـوِّث صفـاءه العـذب ليصبـح مـاؤه ملوَّثًـا كحمَّامـات الاسـتحمام العامـة. ربمـا قـد بـدا للعـالم كشـخص بـلا فائـدة، ولكـن ليـس كل مـا فعلـه الأشـخاص المفيـدون مُفيـدًا حقًّـا لباقـي العـالم.

بينـما كانـت تقـشِّر وتـأكل البيـض المسـلوق في الصالـة العامـة بحمامـات السـاونا، حتـى بـدأت تنتبـه لتشـعُّب العـروق عـلى سـطح جلـد ربلتَـيْ سـاقيها. مجموعـة الـدوالي التـي تشـعَّبَت عـلى جـدران سـاقيها بـدت وكأنهـا كتلـة خـضراء. وبعدمـا انتبهـت للوضـع أخـذت منشـفة وغطَّـت بهـا سـاقيها بعـد أن جلسـت متربِّعـة. بـدأت أعـراض تـورُّم قدميهـا بالتزامـن مـع بدايـة عملهـا في مهنـة تصفيـف الشَّـعر، أي قبـل عـام مـن الآن، ولكنهـا كانـت مشـغولة بحيـث لا تملـك الوقـت الـكافي لتلقِّـي العـلاج، كانـت قـد أهملـت الوضـع زمنًـا، ولكنـه ازداد سـوءًا في الوقـت الحـالي. يومًـا مـا أشـار إليهـا طفـل صغـير في الخامسـة مـن عمـره مـن أطفـال زبنائهـا وهـو يقـول لأمـه: "أمـي، أنـا خائـف مـن سـاقَيْ هـذه السـيدة". وحـين سـمعته انهمـرت في البـكاء، وقـرَّرَت بعدهـا ألَّا ترتـدي إلا السراويـل الطويلـة مهـما كان الجـو حـارًّا.

كان خـبر قُـدَّاس اليـوم يُـذاع عـلى نـشرة الأخبـار في التلفـاز، ويبـدو أن عـدد مَـن تجمَّعـوا في السـاحة يُقـدَّر بمليـون شـخص. حجـزت المـرأة مقعدًا

لهـا عنـد شـارع جونـج رو 3، ورغـم ذلـك لم تتمكـن مـن رؤيـة البابـا المقـدَّس مباشرة. وحتـى عندمـا كان يقـود موكبـه في سيارته البابويـة، فلـم تتمكَّـن حينهـا أيضًـا مـن رؤيتـه بسـبب تدافُـع النـاس. ذكـر بعـض الأخـوة مـن الكنيسـة مـن طـوال القامـة أنـه كان بإمكانهـم رؤيتـه مـن بعيـد، إلَّا أن السـيدات القصـيرات لم يحظـين بمثـل فرصتهـم، وكان كل مـا رأينـه يومهـا هـو ظهـور النـاس ورؤسـهم فقـط.

ظهـر الأب المقـدَّس عـلى الشاشـة الضخمـة وهـو يوقـف موكبـه بـين الحـين والآخـر ليمسـح عـلى رؤوس الأطفـال ويمنحهـم البركـة. ثـم حـين اسـتدار ناحيـة أحـد الأركان ووجـد رجـلًا ينـادي عليـه باسـتماتة، فنـزل وتوجَّـه حيـث يقـف الرجـل، ثـم أمسـك بكـف الرجـل وأحنـى رأسـه وأخـذ ينصـت لكلامـه، وبـدا القـسُّ الواقـف بجانـب البابـا يترجـم لـه كلام الرجـل. صـاح النـاس الذيـن تجمَّعـوا في كل مـكان بعدمـا شـاهدوا ذلـك المنظـر عـلى الشاشـة الكبـيرة. قالـت لهـا الأخـت سـوزانا التـي جلسـت بجانبهـا ذلـك اليـوم: "هـذا والـد يـو- مـين، إحـدى ضحايـا العَبَّـارة سـيه وول".

وجـه الرجـل الشـاحب الـذي كان يحـدِّث البابـا بحرقـة أثـار موجـة بقلـب المـرأة. إلَّا أن صـورة وجـه الرجـل قـد لازمـت قلبهـا كأنهـا نُقِشَـت بداخلـه، حتـى بعـد أن اسـتأنف البابـا موكبـه بعـد مغـادرة المـكان.

تُـرى، مـاذا قـال للبابـا؟ ومـا هـي الكلـمات التـي اسـتخدمها ليعـبِّر عـن ألمـه في تلـك الدقائـق القصـيرة؟ وكيـف كان شـعوره وهـو يصيـح للبابـا لينظـر لـه متوسـلًا لشـخص قَـدِم مـن النصـف الآخـر مـن الكوكـب ليسـمعه؟

ورغـم البَرَكـة التـي شـعرَت بهـا بعدحضـور القـداس، ورغـم سـعادتها الغامـرة، إلَّا أن سـعادة قلبهـا تلـك لم تكتمـل. لـو كان الأمـر بيدهـا لنزلَـت بـين تلـك الجمـوع وشـقَّت طريقهـا وصـولًا لذلـك الرجـل لتعانقـه. كانـت

حزينةً أنها لن تتمكَّن من مشاطرته ألمه. ولم تُذِع النشرة حوار البابا مع ذلك الرجل.

خرج الناس من الصالة العامة بحمام الساونا واحدًا تلو الآخر بينما كانت لا تزال تتابع التلفاز، ثم أطفأت السيدة التي تبيع الوجبات الخفيفة في الصالة مصباح الفلورسنت في الكُشك، ثم المطعم. كان فرعًا صغيرًا، ومن الواضح أن الناس لن يجتمعوا في تلك الصالة للسهر أو النوم كما هو معتاد بطبيعة الحال في مثل ذلك المكان. نظَرَت في المكان من حولها فلم تعثر سوى على ثلاثة رجال قد تمدَّدوا في مواقعهم. استلقى ثلاثتهم، وكانوا شابًا في الثلاثين من عمره، ورجلًا في منتصف العمر، وعجوزًا أشيبَ، ومع حلول الساعة الحادية عشرة قام أحدهم بتشغيل التلفاز. لم يكن باستطاعتها أن تنحشر وسطهم لتحصل على قسطٍ من النوم. كانت صالة الساونا صغيرةً بحيث لا توجد بها غرف منفصلة للنوم؛ فلم يكن هناك حلٌّ سوى أن تعود لغرفة تغيير الملابس وقد غطَّت ربلتي ساقيها بالمنشفة.

تتكوَّن غرفة تغيير الملابس من مجموعة من الخزانات المرصوصة على شكل مُربَّعٍ ينقصه الضلع الأخير، إضافة لخزانة أخرى، ومقعد خشبي. أمَّا المقعد الخشبي فقد احتكرته امرأة بَدَت في الستين من عمرها، وقد نامت فوقه بعمق، بحيث سال لعابها. كانت الأرضية دافئة، إلا أنها شعرت بهواء بارد، ربما كان سببه المكيِّفات. حاولت أن تعدِّل حرارة المكيف ولكنه لم يتحرك؛ إذ ربما كان مُعطَّلًا. مشت المرأة تجاه الخزانة التي انتصبت على شكل المربَّع منقوص الضلع. يبدو أن هذا هو المكان الوحيد المتاح للنوم، وحينها خرجت سيدة عجوز قد انتهت للتوِّ من الاستحمام، واحتلَّت المكان وتمدَّدت على الأرض. فاستسلمت للوضع وانتقلت للردهة لتنام، وحينها عرَضَت عليها السيدة العجوز أن تنام في مكانها بدلًا منها.

"عليك أن تنامي بالداخل يا عزيزتي، بإمكاني أن أنام في أي مكان".

رفَضَت المرأة العرض من خلال حركة من يدها، ولكن العجوز لم تكترث لها وتمدَّدَت في الردهة متظاهرةً بالنوم. جلست المرأة القرفصاء بجانب العجوز، وأخذت ترمق وجهها. كانت عجوزًا ذات شَعر أبيض قصير، وقد عضَّت على لسانها لأنها كانت بلا أسنان، قصيرة القامة، وقد بدا لو أن طولها لا يزيد عن حوالي مائة وخمسين سنتيمترًا. خمس دقائق من الاستلقاء على هذه الأرض كانت كفيلة بأن تثير كافة أنواع الألم، وخاصة مع مثل جسدها النحيل، الذي لم يبقَ منه سوى العظام، ورغم ذلك فمنظرها وهي مستلقية على الأرض بأريحية يشي ببعض فصولٍ من حياتها، فالخبير يعرف الخبير مثله من نظرة واحدة، بدا من منظرها أنها قد تجرَّعَت مُرَّ المعاناة في حياتها.

"جدَّتي، استيقظي".

استمرَّت العجوز في التظاهر بالنوم.

"جدَّتي، يبدو أنك شخص غير عادي... جدتي! سيؤلمك جسدك لو نِمتِ بهذه الطريقة. ألا تشعرين بالبرد؟ جدَّتي! وما خطب ذلك المُكيِّف؟ سيدة عجوز تحاول النوم هنا!".

أخرجت المرأة منشفتين من حقيبة ظهرها التي احتفظت بها في خزانة الساونا. كانت منشفةً بيضاء نُقِشَ عليها باللون الأزرق الجملة التالية "ذكرى قُدَّاس تطويب البابا فرانسيسكو. كاتدرائية حي إيل وول دونج. 16-8-2014". كانت منشفةً كبيرة مثل تلك التي تظهر في الأفلام الأمريكية. كان خطأً من قِبَل مدير مكتب الكاتدرائية حينما طلب تلك المناشف كبيرة الحجم، ممَّا أثار حيرة الناس من حجمها. انتهى الأمر بأن حصلت المرأة على منشفتين بدلًا من واحدة بعدما تنازَلَت الأخت جيما عن منشفتها لها لأنها لا حاجة لها بها وتخشى أن تكون حِملًا عليها.

"جدَّتي، هلَّا افترشتِ هذه المنشفة على الأقل لتنامي عليها؟".

بقيت المرأة العجوز على حالها متكوِّمةً على الأرض دون أن تحرِّك ساكنًا. غطَّت الجسد الصغير للعجوز بالمنشفة الكبيرة، ثم ذهبت تجاه الرقعة الخاوية بالقرب من خزانة الملابس، ونامت، بعد أن تلحَّفَت بالمنشفة الأخرى. هي الأخرى كانت خبيرة في النوم على الأرض. غفت المرأة في سُباتٍ عميق، ثم رأت في نومها وجهَ الرجل الذي رأته صباح ذلك اليوم في القُدَّاس. ماذا لو كنت فقدتُ ميكائيلا مثله؟ كيف كنت سأعيش حينها؟... بدأت الدموع تنزل من عينيها لمجرد التفكير في الأمر. تُرى، ماذا قال ذلك الرجل؟ ودَّت لو كان باستطاعتها سماع صوته الذي لم يكن مسموعًا.

فتحت عينيها إثر صوت مُجفِّف الشَّعر، فوجَدَت على الأرض بجانبها علبةَ حليب كرتونية.

"تركتُ لكِ علبة اللبن لتشربيها. اشتريتُ لكِ واحدةً معي".

كانت المرأة العجوز، التي انتشرت خطوط التجاعيد حول فمها، تجلس فوق المقعد الخشبي وهي مبتسمة.

"شعرت بالدفء بالأمس بفضل منشفتك. هل أتيت من كاتدرائية حي إيل وول دونج؟ تكبَّدتِ عناء القدوم من ذلك المكان البعيد؟ هل حضرتِ القُدَّاس الذي كان بالأمس؟ ولكن لماذا لم تسافري بعدُ ونِمتِ هنا؟".

فرَكَت المرأة إفرازات عينيها ثم توجَّهَت نحو المقعد الخشبي. وقد بدت المرأة العجوز أصغر من عمرها بخمس سنوات عمَّا كانت عليه بالأمس وهي مغمضة عينيها، وربما كان السبب لأنها قد ارتدت طقم أسنانها.

"عزيزتي، أنا أيضًا قد سبق لي أن رأيت الأب المقُدَّس من قبل، كان ذلك في عام 1989 في حي يوئيدو، كان أمرًا يدعو للفخر حقًّا".

"أنا أيضًا كنت هناك في ذلك اليوم!".

شعرت المرأة بسعادةِ مَن التقى بشخص يعرفه. جلست المرأة بجوار العجوز على المقعد الخشبي وقد تشاركتا ذكرياتهما حول الخريف الساطع لعام 89. اقترحت العجوز أن تتناولا طعام الإفطار سويًّا احتفالًا بلقاء أختين من أحبَّاء المسيح، فخرجتا لإحدى المطاعم المجاورة التي كانت تقدِّم طبق حساء براعم فول الصويا مع الأرز.

أكلت المرأة الحساء الساخن الذي أُضيف إليه حساء القريدس المالح مع الفلفل الأحمر الحار، بعد أن أضافت إليه حساء كيمتشي الفجل، فشعرت بعد تناوله بدفء يسري في باطنها، أحسَّت من بعده بأنها بدأت تفيق بشكل فعليٍّ. أكلت كل منهما طبقها على عَجَل، لدرجة أنهما نسيتا أن تسألا بعضهما البعض عن سبب مبيتهما في صالة الساونا، أو حتى تبادُل أسمائهما، ولم يكن ذلك إلّا حين أنهيا نصف طبقيهما. وحينما شعرت المرأة بامتلاء معدتها إلى حدٍّ ما بدأت تسأل السيدة العجوز:

"ولكن لماذا بتِّ في الساونا بالأمس يا جدتي؟".

"عزيزتي، في حقيقة الأمر... ليس لي أصدقاء على الإطلاق. لم يكن لديَّ الكثير من البداية على أي حال بسبب شخصيتي غير الودودة، ثم بدأ الذين أعرفهم يموتون واحدًا تلو الآخر بمرور السنين، ولم يبقَ منهم إلا القليل".

أكملت العجوز كلامها بعد أن أخذت رشفةً من حسائها بعد أن نفَثَت فيها أوّلًا:



"لم يبـق لي مـن الأصدقـاء ممَـن أعتـزُّ بهـم سـوى واحـدة فقـط. التقينـا بعـد أن أتممنـا عامنـا الستيْن بعـدَّة سـنوات، وهـي مختلفـة عنِّـي كلِّيًـا. أنا الشـخصية المتذمِّـرة حـادَّة المـزاج، وهـي الشـخصية اليسـيرة الليّنـة. ومهـما حـدث لهـا تجدينهـا تضحـك وتتخطـى الأمـر، روحهـا جميلـة بالفعـل. ولا تعيـب في أحـد مطلَقًـا. التقيـت بهـا في سـاحة الألعـاب عنـد حفيـدتي، بعـد وقـت قليـل مـن انتقـالي للحـيِّ. كلتانـا تُـربِّي حفيدتهـا، وكلتاهـما مـن نفـس العمـر. وتبـيَّن لاحقًـا أننـا كنـا نرتـاد الكنيسـة نفسـها؛ وهـذا مـا قرَّبنـا لبعضنـا البعـض أكـثر. كلتانـا فقـدت زوجهـا وتعيـش الآن مـع أبنائهـا. كنـا نلتقـي كل يـوم، ونحـكي عـن حياتنـا ومـا يزعجنـا. أتعلمـين؟ كانـت تنصـت لحكايـاتي وتشـاركني البـكاء. لم ألتـقِ بأحـد مثلهـا قـطُّ. انتقلـت أسرة ابنـي للسـكن في سـيؤول، ولكنـي بقيـت في ذلـك الحـيِّ وعِشـتُ بمفـردي. وقـد أصبَحَـت بمثابـة أخـت لي. كانـت تُحـضر حفيدتهـا معهـا أينـما ذهبـت؛ لأن ابنتهـا وصهرهـا كان كلاهـما يعمـل. ليتـك تعلمـين كـم كانـت حريصـة عـلى حفيدتهـا الوحيـدة، وكـم تفانـت في رعايتهـا، وكم كانـت الفتـاة لطيفـة تمامًـا مثـل جدَّتهـا. وحينـما كانـت تـراني الطفلـة في سـاحة الكنيسـة كانـت تحيينـي ببِـشرٍ بالـغ وتـدسُّ الكعـك في راحـة يـدي، وتسـألني إن كنـت أتنـاول وجبـاتي جيـدًا، كانـت طفلـة ذات لطـف بالـغ...".

توقَّفَـت العجـوز عـن الـكلام، وبـدأت في النحيـب كطفـل صغـير. وقـد تناثَـرَت بعـض حبـات الأرز مـن فمهـا، وبـدأ النـاس ينظـرون تجاهنـا، ممَّـن جلسـوا في المطعـم، متعجِّبـين في صمـتٍ مـن تلـك العجـوز التـي كانـت تنتحـب كالأطفـال في ذلـك الصبـاح الباكـر في محـل الحسـاء الخـاص بوجبـاتٍ يتـمُّ تناولهـا صباحًـا لمعالجـة أثـر الخمـر مـن الليلـة الماضيـة. أخـذت العجـوز تنتحـب هكـذا لبعـض الوقـت، ثـم جفَّفَـت دموعهـا، وتمخَّطَـت، ثـم شربـت بعـض المـاء.

"ظننـت بـأن دموعـي قـد نفـدت بالفعـل بعدمـا تعـدّى عمـري الثمانـين، ولكنـي أخطـأت. لم يكـن كذلـك. صديقتـي الحبيبـة، جُـنَّ جنونها، وهـي تحـاول أن تنـزع قلبهـا، ولكـن لم يكـن بيـدي مـا أفعلـه لهـا. فقَـدَت حفيدتهـا في لحظـة، وهـي التـي كانـت في أتـم صحـة وعافيـة، كيـف يمكـن لأي شـخص أن يتحمَّـل ذلـك؟ وبعـد أن شـاهدت الأم اللحظـات الأخـيرة لابنتهـا تركـت وظيفتهـا وبـدأت تركـض في كل مـكان. كان عليهـا أن تعـرف لمـاذا ماتـت ابنتهـا، أليـس هـذا مـن حقهـا؟ انضمَّـت صديقتـي لابنتهـا وذهبتـا لميـدان كوانـج هـوا مـون، ثـم مبنـى البلديـة ثـم يوئيـدو. أعجـز عـن التواصـل معهـا. ذهبـت بالأمـس لميـدان كوانـج هـوا مـون مـرة أخـرى لأبحـث عنهـا، ولكـن وبسـبب توقُّـف سـاعات عمـل الحافـلات؛ ذهبـت للمبيـت في السـاونا".

حينما اختتمت العجوز كلامها وَجَدت المرأة تبكي معها.

"سأذهب للبحث عنها اليوم أيضًا".

5

كان هاتـف والدتهـا لا يـزال مُغلَقًـا. صعـدت ميكائيـلا الحافلـة المتَّجِهـة إلى جوانـج هـوا مـون، وتذكَّـرَت شـكل المـرأة التـي شـاهدتها منـذ قليـل عـلى شاشـة التلفـاز. كانـت المـرأة ترتـدي سروالًا كحـليَّ اللـون، وقميصًـا زهريًـا مُلوَّنًـا، كان مثـل الـذي أهدتـه ميكائيـلا لأمهـا في عيـد ميلادهـا المـاضي. لم يكـن لديهـا الكثـير مـن الشَّـعر في رأسـها، وقـد صبغتـه باللـون البنـي، كل ذلـك كان يؤكـد علـى أن تلـك المـرأة التـي ظهـرت عـلى شاشـة التلفـاز هـي والدتهـا بـلا شـك. بـدأت تتسـاءل عـمَّا كانـت تفعلـه أمهـا هنـاك. وقفـت ميكائيـلا عاجـزة عـن الـكلام أمـام فضـول أمهـا الـذي لا ينتهـي.

نزلـت في محطـة جوانـج هوا مـون وأرادت أن تعـبر ممرَّ المشـاة، ولكنها لمحـت بعـض الأشـخاص الذيـن علّقـوا لافتـات عـلى أعناقهـم كُتِـبَ عليهـا "شـارك في حملـة الإضراب عـن الطعـام ليـوم واحـد". كان هنـاك رجـل في الأربعـين مـن عمـره ومعـه فتاتـان بَدَوَتـا في أوائـل العشريـن مـن عمرهـما. كان الرجـل يعلّـق لافتـة تدعـو للتحقيـق في حقيقـة كارثـة العبـارة سـيه وول وهـو يتابـع المـارّة. بينـما كانـت الفتاتـان توزعـان المنشـورات عليهـم، و لكـن ميكائيـلا لم تلتفـت لهـم وعـبرت ممـر المشـاة.

تواجـد الكثـير مـن النـاس في السـاحة للمشـاركة في حملـة جمـع التوقيعـات. شـاركت ميكائيـلا بتوقيعهـا قبـل عـدّة أشـهر عندمـا كانـت في طريقهـا إلى مركـز كيـو- بـو للكُتـب، ورغـم مـرور أربعـة أشـهر عـلى الحـادث إلّا أنـه لم يتـم الكشـف عـن حقيقـة مـا حـدث في ذلـك اليـوم. كانـت أُسَر الضحايا تطالـب بسَـنِّ قانـون خـاص يضمـن الحـق في التحقيـق وتوجيـه الاتهامـات والمحاكمـة. وكانـت ميكائيـلا تتابـع التلفـاز حينـما أعلـن نـوابٌ معارضـون عـن اتفـاق مـع الحـزب الحاكـم يسـتثني متطلّبات العائـلات الثـكلى، فأطفـأت التلفـاز حينهـا.

كان الوضـع كالآتي: يشـارك النـاس في حملـة التوقيعـات، ثـم ينزلـون الشـوارع لتحريـك المظاهـرات؛ ولكـن تلـك الأصـوات بـدأت تتـلاشى، وأصبـح قِلّـةٌ مـن النـاس فقـط هـم مَـن يقومـون بالحملـة ويشـاركون في المظاهـرات، وكأن العـالم قـد نـسي سريعًـا مـا حـدث، كأن شـيئًا لم يكـن.

وفي وقـت الغـداء أخـذ أحدهـم يتحـدث عـن ضرورة وضـع ذلـك القانـون الخـاص بشـكل جـدِّيٍّ، قبـل أن يغلـق فمـه بعـد أن لامـه أحدهـم قائـلًا: "ألم تملُّـوا؟!". سـمعت ميكائيـلا ذلـك الـكلام وعضّـت عـلى شـفتيها غيظًـا. كان عمرهـا واحـدًا و ثلاثـين عامًـا، ورغـم أن أقرانهـا اتّحـدوا سـويًّا إلا أنهـم فشـلوا في تغيـير الوضـع ولـو بقـدر أنملـة. بـدا العـالم عديـم الإحسـاس، فحتـى لـو ألقـت بجسـدها كلـه فلـن يتحـرك أحـدًا خطـوة

واحـدة. علَّمتهـا فـترة العشرينـات مـن عمرهـا أن الوعـي بالمشـكلة لا يعنـي بالـضرورة القُـدرة عـلى حلِّهـا.

ذكـر والدهـا مـن قبـل أن عـدم اكـتراث معظـم النـاس الصالحـين بمـا يحـدث في العـالم هـو مـا سـوف يدمِّـره. كانـت تـدرك أن كلامـه صحيحًـا، ولكنهـا لم ترغـب في الدخـول في معركـة مـع مثـل ذلـك العـالم. لم تكـن تريـد أن تصعـد تلـك الحلبـة التـي كان مـن الواضـح مَـن سـيكون الرابـح فيهـا ومَـن المهـزوم. كان العـالم بالنسـبة لهـا هـو ذلـك المـكان الـذي يجـب علينـا أن ندخلـه ونخضـع لـه، شـئنا أم أبينـا، ذلـك المـكان الـذي عليهـا أن تهمِّـش وتعـدِّل مـن نفسـها وتحـاول أن تتأقلـم فيـه لتعيـش. كانـت تريـد أن تنتمـي إلى ذلـك العـالم بـدلًا مـن أن تصطـدم فيـه مـع الآخريـن وتدخـل في معـارك. كانـت تريـد أن يرحـب بهـا العـالم و يفتـح لهـا ذراعيـه لتنضـمَّ إليـه.

كانـت عـادة مـا تُـسرع بخطواتهـا قـدر الإمـكان حينـما تمـرُّ بجوانـج هـوا مـون، ولكنهـا لم تسـتطع في ذلـك اليـوم. أخـذت تسـير ببـطء في الميـدان بينـما تنظـر حولهـا بحثًـا عـن تلـك الخيمـة التـي شـاهدتها في التلفـاز. كان مـن بـين الذيـن نفَّـذوا حملـة جمـع التوقيعـات وتوزيـع المنشـورات أشـخاص مـن الشـباب أكـثر مـمَّا توقَّعـت. لم تجـد بُـدًّا مـن أخـذ المنشـور، ولكنهـا قالـت إنهـا سـبق وقـد وقَّعَـت مـن قبـل بالفعـل.

وفجـأة أخـذت تتسـاءل إلى متـى سـيظل ذلـك الـصراع مسـتمرًّا، وخاصة بعـد أن أصبـح الـرأي العـام أكـثر بـرودًا يومًـا بعـد يـوم. وفي حـال تمـادى الـصراع أكـثر وهـو عـلى ذلـك الوضـع، فسـيتحول الجانـب الفاسـد في القضيـة للضحيـة، بينـما سـيتم اتهـام الجانـب الآخـر بعـدم امتثالهـم للدولـة، عـلاوة عـلى توجيـه اتهامـات لهـم بالإسـاءة اللفظيـة في حملاتهـم. أليـس هـذا مـا قالتـه رئيسـة الجمهوريـة مـن قبـل؟ أن علينـا أن ننـسى

الماضي ونتجه نحو المستقبل. كانت أشعَّة الشمس حامية، بحيث لم تستطع أن تفتح عينيها.

كانت المرأة التي ترتدي السروال الكحلي والقميص الزهري تقف أمام الخيمة. نادتها وهي تضع يدها على كتفها.

"أمي!".

التفتت السيدة وراءها لتتحقَّق ممَّن يناديها، ولكنها لم تكن أمها. فسألتها ميكائيلا "مَن أنتِ؟".

أجابتها قائلة: "ابنتي أيضًا كانت على متن العَبَّارة في ذلك اليوم يا آنسة". كان وجه المرأة مختلفًا عن أمها فحسب، ولكنها كانت تشبهها في كل شيء آخر من جميع الجوانب. كان ذلك السروال الكحلي والقميص الزهري من نفس الماركة والتصميم. حتى حذاؤها البيج الذي ارتدته، وحتى حقيبة كرة السلة التي وضعتها بجانبها، كانت تشبهها في كل شيء وكأنها أمها. حتى الخاتم الذي ارتدته في إبهامها في يدها اليمنى، وسوارها الذي وضعته حول معصم يدها اليسرى؛ كان مطابِقًا للذي تضعه أمها، وحتى الشامات التي نُقِشَت على عنق أمها على شكل مجموعة نجوم كوكبة الدب الأكبر، وحتى الندبة التي تعلو جبهتها، ونغمة صوتها الناعمة اللطيفة كانت نفس صوت أمها.

"لا تنسوا ابنتي، إيَّاكم أن تنسوها".

قالت المرأة ذلك الكلام ثم اتجهت نحو الساحة وانتقلت تجاه أناس آخرين ممَّن مرُّوا بالمكان.

تسمَّرَت ميكائيلا في مكانها كمن تعرَّض للصعق. كانت هناك مجموعة من السائحين يتبعون مرشدهم السياحي إلى تمثال القائد لي سون شين. كانت تسمع أصوات ضحكاتهم العالية، ثم بدأت تبحث عن تلك المرأة التي ذابت وسط الجمع الغفير.

"ابنتي أيضًا كانت على متن العَبّارة في ذلك اليوم". كان ذلك الصوت هو صوت أمها بالتأكيد. صوتٌ أحدَثَ قطعًا عميقًا في قلبها.

6

صعدت المرأة مع السيدة العجوز لتستقل الحافلة المتجهة إلى جوانج هوا مون. كان منظر سيؤول من خارج النافذة جميلًا للغاية. منظر الأزواج الشباب وأبنائهم وقد خرجوا للنزهة يوم الأحد، والشابات اللاتي أظهرن أرجلهن البيضاء الناعمة، بدت هيئتهم جميلة ومُنعِشة. الكثير من أصحاب الوجوه الجميلة والوسيمة، كأنهم خرجوا للتو من شاشة التلفاز، انتشروا في كل مكان. حينها تذكرت ابنتها ميكائيلا، التي كانت بالنسبة لها أجملَ من أي أحد تعرفه. كانت تحاول بأي طريقة أن ترى ميكائيلا ولو لمرة واحدة قبل أن تعود لقريتها، ولكن ساورها شعور بأنها لن تتمكَّن من لقائها هذه المرة.

كانت المرأة أحيانًا تبكي خلسةً دون أن يشعر بها أحد بعد حادثة العَبّارة سيه وول. تبكي وهي تتحدث مع الزبائن في محلها، أو وهي تشتري احتياجاتها من السوق. كانت تبكي في صمت كلَّما تذكَّرَت ابنتها التي تعيش في سيؤول، وقلبها يتألم وكأنه كُوي بالنار. كانت تفكر في الوقت الذي كان من الممكن أن يعيشه أولئك الأولاد. رغم أن إنقاذ أرواحهم كان بالأمر الممكن، مع تَوفر الوقت الكافي لعملية الإنقاذ، وكان من الممكن أن ينجو الجميع، إلَّا أن أرواحهم أُزهِقَت أمام أعين الجميع كالكذبة.

شعرت بندم عميق. شعور الأسف والشفقة حيالهم كانت يعذِّبها؛ لأنها لم ترغب في التَّخلُّص من شعورها العميق المنكوب بتأنيب الضمير بمجرد الشفقة على حالهم. حلَّ عيد الفصح بعد فترة وجيزة من وقوع الحادثة، ورغم أنها العطلة المفضَّلة لديها في السنة ولكنها لم تستطع أن تستمتع بأسبوع عيد الفصح مثل سابق عهدها. رسالة

العيد السعيدة عن بعث المسيح من جديد لم تلامس قلبها مثل كل مرة، وقد بدت لها وكأنها رسالة صعبة المنال يصعب التَّأثُّر بها. وحتى كلمات التهاني مثل "ابتهجي يا أختاه، إنه عيد الفصح" كانت تمثِّل لها شعورًا عنيفًا يريد أن يصدَّها عن شعورها بالحزن والأسف والتوقف عن الحِداد على تلك الأرواح؛ لذلك ولأول مرة لم تحضر قُدَّاس عيد الفصح ذلك العام.

وكالعادة مرَّ الوقت، وبدأ ألم القلب يخفت تدريجيًّا، وتوقَّف الزبائن عن ذِكر ذلك الموضوع بعد أن كانوا يبكون ويثورون لمجرد ذِكره، والأدهى أنهم أصبحوا يشتكون من أولئك الذين لم يتمكنوا من نسيان ذلك الحادث بالسرعة الكافية. كانت مشاعر الألم تتجدد في كل مرة تسمع فيها حديثهم، فتغلق فمها ولا تتكلم، وتكتفي بلفِّ وقَصِّ خصلات شعورهن، وتقدِّم لهنَّ القهوة. حاولت جاهدة ألّا تكره أو تحتقر أي أحد.

جلست تنظر إلى العجوز التي كانت تنعس بجوارها. بينما تتساءل كم مرة فقدت تلك العجوز أحبَّاءها؟ كان لديها تقدير واحترام من نوع خاص للمُسِنِّين الذين تقابلهم. فأن تعيش لعمر طويل، يعني أن تودِّع مَن تحبهم أوَّلًا ثم تبقى وحيدًا لزمن طويل؛ أن تعاني من ذلك البلاء ثم تنهض من جديد وتأكل وتتابع طريقك بمفردك.

جزء منها قد مات بالفعل بوفاة والديها وزوجها، وذلك الجزء الذي مات واختفى من قلبها، قد رحل مع مَن رحلوا. وبعدها عجزت لفترة طويلة عن التنفس بشكل سليم، أو النوم، أو تناول الطعام. بعد أن بقيت مستيقظة تبكي الراحلين لمدة ليالٍ طوال، أولئك الذين رحلوا عنها ولم يُبقوا لها سوى ذلك العالم لتعيش فيه وحيدةً بدونهم. كانوا الأقرب لقلبها، وقد أرادت أن تظهر لهم عالمًا أفضل لأولئك الذين لا يزالون يعيشون بداخلها، وتظهر لهم ذاتها

التي أصبحت أفضل من ذي قبل. أرادت لقلبها، الذي طهّره الحزن، أن يكون مرآة تعكس لهم كل ما هو جميل.

أيقظت المرأة السيدة العجوز التي كانت مستندةً إلى كتفها وهي نائمة، ثم نزلتا من الحافلة. كانت مجموعة من السياح الصينيين يسيرون في ميدان جوانج هوا مون، وعُلقت شرائط صفراء على أغصان الأشجار وقد أخذت تتطاير مع الرياح، كما كان هناك عدد من الشباب يقومون بحملة تجميع التوقيعات. كان الجو حارًا، فأخرَجَت المرأة زجاجة مياه من حقيبة كرة السلة التي بحوزتها وناولتها للسيدة العجوز لتشرب، ثم شربت بعدها. كانت السيدة العجوز ذات ظهر منحنٍ تمشي خمس خطوات ثم تتوقّف لتستريح لبعض الوقت، ثم تكمل خمس خطوات أخرى، ثم تتوقف لتستريح بعدها، فبدأت المرأة تشعر بالقلق عليها.

"أنا آسفة يا ابنتي، أنا أمشي جيّدًا في العادة، ولكن هذا حالي اليوم".

"امشي ببطءٍ على راحتك، لسنا في سباق".

"أتيتِ لزيارة سيؤول، ولكنك تعانين الآن بسببي يا ابنتي".

كان هناك فتاتان تقفان أمام ممرٍّ المشاة وقد علّقتا لافتة كُتب عليها "حملة توقيع لتشريع قانون سيه وول الخاص". كانت إحداهما تحمل المنشورات، بينما حملت الأخرى ملفًا يضم أوراق التوقيع وقلمًا، وقد احمرَّ وجهاهما من حرارة الشمس. ساعدت الفتاتان السيدة العجوز في عبور ممر المشاة.

قالت لهما السيدة العجوز بعد أن عبروا جميعًا: "شكرًا لكما".

"اقرآ هذا المنشور فضلًا، هل سبق لكما التوقيع؟".

أومأت السيدة العجوز بالإيجاب، بينما وقّعت المرأة على الورقة التي ناولتها الشابة إياها.

قالت المرأة: "نحن نبحث عن شخصٍ ما. اسمها الجدّة كيم إبَ-بون، هي صديقة هذه السيدة"، ثم نظرت للسيدة العجوز وسألتها: "ما اسم ابنتها؟".

أجابتها السيدة العجوز قائلةً: "اسمها لي ميونج سون، لي ميونج سون ماريا".

قالت المرأة: "اسمها لي ميونج سون، هي مَن تبقّى لها من عائلتها".

"لن أتمكّن من معرفتها من مجرد اسمها. هل كانت الضحية من الطلاب؟".

"نعم".

"إذاً هلّا أخبرتِني باسم الطالبة. عادة ما نلجأ لتحديد اسم الطالب أولًا ثم ننادي على والديه باسمه، كأن نقول يا أم كذا... يا أبا كذا...".

أغلقت السيدة العجوز عينيها في هدوء ثم فتحت فمها.

"لا أذكر اسم الطفلة جيّدًا؛ فقد كنتُ أناديها باسم ميكائيلا منذ صِغَرِها. لم يسبق لي أن ناديتها باسمها الحقيقي منذ أن كانت طفلةً صغيرة. وحتى جدّتها كانت تناديها بنفس الاسم. حتى عندما تجلس وحدها في هدوء وتُحدِّث نفسها، كانت تنادي وتقول ميكائيلا".

راقبت المرأة شفتيْ السيدة العجوز وهي تنطق اسم ميكائيلا. كان اسم ميكائيلا اسمًا معموديًّا شائعًا للفتيات.

حملت المرأة بابنتها الحالية بعد ثلاث محاولات سابقة انتهت جميعها بالإجهاض.

"سأصلّي للملاك ميكائيل من أجلك".

هكذا قالت لها إحدي زبائن محلها لتصفيف الشَّعر التي لا تتذكر حتى شكلها. وقالت لها إن الملاك ميكائيل حارب كل الظلام في العالم،

وحتمًا سيحمي تلك الروح الصغيرة المتجذِّرة بداخلها. وجاءت الطفلة سالمة إلى الحياة بعد ثمانية أشهر، وأطلقت عليها اسم ميكائيلا. كانت تفكر في اسم سو جين أيضًا، ولكن، ولسبب ما، كانت تفضِّل أن تناديها باسم ميكائيلا؛ فقد كانت تؤمن بأن هذا الاسم سوف يحمي طفلتها.

وبعد ولادة ابنتها دخل النور لقلب أمها المُظلم، حتى أثلج زاويا قلبها، فهدأت ثم غشيها الدفء حينما خَطَت ابنتها بقدميها. وتلك الأسوار التي بذلت فيها جهدًا لبنائها، انهارت جميعها بلمسةٍ من يد طفلتها. كان صوت ضحكتها كغيث يجري في مجارٍ نهرية جافة.

كان قلبها دافئًا فحسب ورغم أنها منحت ابنتها كل ما كان ولم يكن بقلبها، فهي لم تخشَ يومًا؛ إذ ربما لا تجد مقابلًا لتلك المحبَّه. وكانت الطفلة تحمي أمها بأنفاسها، وبإشراقتها. كانت تحميها من وساوس ظلام العالم. كانت تعتقد أن كل الأطفال ملائكة تحفظ أرواح آبائهم وأمهاتهم. ولا يحقُّ لأي أحد أن يسرق أولئك الملائكة من أحضان ذويهم. أيًّا مَن كان.

قامت المرأة بمساعدة السيدة العجوز لعبور ميدان جوانج هوا مون، ثم تابعتا السير بحثًا عن والدة ميكائيلا وجدَّتها. تمنَّوا ألَّا يكون طريق البحث عنهما طويلًا أو صعبًا، وأن لا يستأسد عليهما العالم، الذي هدأ بعد أن داس بوحشية على قلوبهم الجريحة، مُسبِّبًا لهم المزيد من الأذى.

"أمي!" نادت ميكائيلا على المرأة، ثم مسحت المرأة دموعها المنهمرة، ونادت على ابنتها بقلبها.

ميكائيلا...

السّر

1

أخذت مالجا تقرأ اسم لافتات المتاجر بصوت عالٍ في رأسها. محل نظارات ألفان واثنان، مطعم الأخطبوط المشوي الشهير، مطعم أو-داري، عيادة لي ئن مي للطب الصيني، مؤسسة ديه سونج الثقافية... رغم أنها كانت تمرُّ من هذا الشارع على الأقل مرة كل ستة أشهر إلّا أنه كان يبدو مختلفًا في كل مرة. كان ذلك العام الثامن لتردُّدها على ذلك الشارع بسيارة ابنتها. كانت تضحك في أيام، وتبكي في أيام أخرى، وفي أيام أخرى تختنق الكلمات في جوفها. وفي كل تلك الأوقات كانت مالجا تقرأ أسماء لافتات المتاجر في الشارع التي تراها من نافذة السيارة.

بناءً على كلام طبيبها فكان من المفترض أن تواجه مصير الموت قبل سبع سنوات مضت. كان الطبيب قد أخبرها أن لديها ستة أشهر على

أقل تقدير، وحوالي سنة أو سنة نصف على أقصى تقدير. كانت ردَّة فِعلها تتأرجح بين العويل وهي غير مستوعبة للمصير الذي ستؤول إليه، وبين الشعور بالحسد تجاه جميع الأصحّاء. ولحسن الحظ نجحت عمليتها وبرنامج العلاج الكيمائي. التزمت بكل توصيات الطبيب. كانت تنهض في السادسة صباحًا وتتناول طبق الأرز البُنّيّ مع الخضروات، ثم تمشي لمدة ساعتين. إضافة لشرب منقوع فطر الشيتاكيه[1] وتناول البطاطا الحلوة المطهوّة على البخار بقشرتها يوميًا. كانت تُرغِم نفسها على الأكل حتى ولو كان ذلك سيدفعها للتقيؤ وهي تُقنع نفسها بأنها قد تموت جوعًا. كانت شديدة الحرص على نظامها الذي اشتمل على الاستيقاظ، ثم تناول الطعام، وممارسة الرياضة.

وبعد مرور خمس سنوات، كانت قد شُفيت تمامًا من السرطان، وكان أكثر الناس سعادة بهذا الخبر حفيدتها جي مين، التي دفست رأسها في تنُّورة جدتها وأخذت تبكي كما كانت تفعل وهي رضيعة. جي مين لم تذرف ولو دمعة واحدة أثناء خضوع جدَّتها لجلسات العلاج الكيمائي، وحين بكت مي جين أدركت مالجا كمَّ الألم الذي كانت تكتمه حفيدتها، وبعد مرور ستة أشهر بدأت الخلايا السرطانية تنتقل لجزء آخر من جسدها، وبدأ الوضع يزداد سوءًا من بعدها، ومرة أخرى، سمعت من الطبيب في نفس اليوم نتائج تُنذِر بالشؤم حول وضعها الصحي .

كانت قَلِقَة على ابنتها يونج سوك، التي بدت شاحبة وهي تقود السيارة. أرادت أن تسألها: "هل أنت مريضة؟"، ولكنها أبقت السؤال لنفسها؛ عِلمًا منها أن ابنتها ستجيبها قائلة: "هل تسألينني حقًّا هذا السؤال الآن؟". أخذت يونج سوك تمسح الدموع التي انهمرت على خديها بظهر كفِّها وهي تقود سيارتها. كانت مالجا تعرف أن أفضل

(1) نوع من أنواع الفطر القابلة للأكل.

شيء في هذه المواقف هو ألّا نقول أي شيء. كانت تتذكر المعاناة التي تكبّدتها ابنتها معها طوال تلك السنوات الثماني الماضية، وكانت تشعر بالعجز بسبب عدم قدرتها على تعويض ابنتها عن كل تلك السنوات. كانت مالجا تفقد الكلام أمام ابنتها يونج سوك التي عانت معها بشتَّى أنواع المعاناة منذُ وُلِدَت كابنتها.

بدا أن يونج سوك قد تحوّلَت لشخص آخر كليًّا على مدار العام والنصف الماضية، حيث خسرت الكثير من وزنها بشكل ملحوظ، كما أن كلامها كان مُشوَّشًا خلال مكالماتها الهاتفية. بدأت تتصل بشكل مستمر لتشتكي من زوجها، وزملاء العمل والعملاء، وهي التي كانت من قبل لا تتصل إلا مرة واحدة على الأكثر. كانت مالجا قَلِقةً بشأن ابنتها يونج سوك، التي بَدَت غريبة وهي تقذف بأبشع السباب والعبارات السامة. وفي بعض الأحيان، كانت يونج سوك تتصل بأمها ليلًا وهي في حالة سُكر ومنهارة في البكاء، تصيح: "أمي! أمي!"، فتصيح مالجا باسمها قائلة "يونج سوك! يونج سوك!" فحسب، وهي لا تدري ما عساها تقول غير ذلك. كانت مالجا تتخيَّل وضع ابنتها بعد تلك المكالمات، فتشعر بتقلُّص في بطنها مع تعَرُّق جبهتها. وحينما تسألها في اليوم التالي "لماذا كان كل هذا البكاء؟" فتجيبها يونج سوك بعُذرٍ مشكوك فيه قائلة: "أمي، لا أذكر أي شيء، يبدو أنني أعاني من أعراض انقطاع الطمث".

وحينما تفكر في الأمر تتذكَّر أنه قد مرَّ عامٌ ونصف منذ سفر جي مين للصين.

كانت مالجا تسكن على بُعد ساعتين ونصف، بالحافلات التي تنتقل عبر المقاطعات، من منزل ابنتها. كانت في بداية الأمر تسكن مع عائلة ابنتها، ولكنها انتقلت لبيتها حينما حصل صهرها والد جي مين على وظيفة بسيؤول. وكانت جي مين حينها بالصف الثالث من

المرحلة المتوسطة ولم تَعُد بحاجة لرعاية من جدتها. كانت مالجا ترعى حفيدتها بناءً على طلب من ابنتها وصهرها اللّذين عملا خارج المنزل. الافتراق عن جي مين، التي كانت ملتصقة بها منذ أن كانت رضيعة، كان أمرًا صعبًا بالنسبة لها كقَطْع جزء من لحمها، ولكنها لم تشأ في أن تكون عبئًا على أسرة ابنتها التي قرَّرَت تقليص حجم أغراضها بغرض الانتقال لشقة أصغر حجمًا في سيؤول.

وفي صباح اليوم الذي كانت ستنتقل فيه جي مين لسيؤول أحضرت كرسيًّا وورقة جرائد وجلست في مواجهة جدتها، حيث بدأت الجدة تقلِّم أظافرها. كانت تُقلِّم أظافر جي مين هذه المرة بعناية بالغة أكثر من أي مرة سابقة.

"أصابعك رشيقة ونحيلة؛ ممَّا يعني أنك ستعيشين حياة طيبة، ولن تتكبَّدي العناء مثل جدَّتِك".

"تخبرينني بهذا كل يوم".

"ستصبحين مُعلِّمةً يا جي مين، وستُعلِّمين الطلاب".

أرادت أن تستكمل كلامها، ولكن دموعها التي بدأت تنزل ألجمتها، فأحسَّت بأن الكلام قد علق في حلقها. كان من الصعب عليها رؤية أصابع جي مين الجميلة بسبب دموعها التي جعلت رؤيتها ضبابية. بدأت جي مين تبكي هي الأخرى تأثُّرًا بجدَّتها. صحيح أنها ذكرى مُحزنة، ولكنها تشعر بالسعادة حين تسترجعها. ثم بدأت مالجا تفتقد جي مين يوميًّا بداية من ذلك اليوم. كانت تنطق اسمها وهي نائمة، كانت تبحث عنها بين أقرانها الذين كانوا يغدون ويروحون في زيهم المدرسي. ولم يغمض لها جفن في الليلة التي تسبق موعدها مع جي مين.

كانت تُفرط في تدليل جي مين؛ تُعدُّ لها طعام الأطفال الرُّضَّع بنفسها من اللحم المفروم، وتشتري لها أجمل الأقمشة لتحيك فساتين لا يملكها غيرها. صبَّت عليها الحب صبًّا خشيةَ أن تشعر الطفلة

بالوحـدة كونهـا وحيـدة والديهـا اللذيـن يعمـلان كلاهـما خـارج المنـزل. بالأحـرى، وهبتهـا مـا لم تَهَبْـه لابنتهـا يونـج سـوك.

تُـوفي والـد يونـج سـوك وهـي ابنـة الخامسـة. تركـت مالجـا ابنتهـا الجميلـة التـي كانـت تـصرخ عليهـا "أمـي! أمـي!" في منـزل أخـت زوجهـا لتعمـل في أحـد المطاعـم. كان أشـدُّ مـا يؤلمهـا أن تـرى صغيرتهـا وقـد بـدأت تنضـج قبـل أوانهـا، لتـمارس دور البالغـين عـلى الـدوام. ولهـذا السـبب أرادت مالجـا أن تـربي جـي مـين عـلى أن تصبـح طفلـة طائشـة مُدلَّلـةً. أرادتهـا طفلـةً صعبـةَ الإرضـاء لا تجيـد حتـى تقليـم أظافرهـا.

بـدأت جـي مـين سـنواتها الدراسـية الأولى حيـث تعلَّمَـت أن تكتـب اسـمها بالأبجديـة الكوريـة (الهانجـول)، والمقاطـع الصينيـة، وكذلـك الأرقام؛ واحـد واثنـين وثلاثـة وأربعـة وخمسـة. كانـت مالجـا تشـحذ أقـلام حفيدتهـا بدقَّـةٍ، وكانـت الصغـيرة قـد بـدأت تتـدرب عـلى كتابـة الحـروف في دفـتر مخصَّـص للتدريـب عـلى الكتابـة. وبمجـرد أن أتقنـت كتابـة الهانجـول، حتـى بـدأت تقـرأ كل مـا تقـع عليـه عيناهـا. عـمارات سـام هـو! حضانـة تشـونج آنـج! شـارع اتجـاه واحـد! مطلـوب عـمَّال! كانـت سـعادتها فائقـة وهـي تسـمع حفيدتهـا تغـرد وهـي مسـتمتعة بالقـراءة.

يـومَ حصلـت جـي مـين عـلى المعـدلات النهائيـة في امتحـان الإمـلاء لأول مـرة، أمسـكت مالجـا بورقـة اختبارهـا في إحـدى يديهـا. وفي الأخرى أمسـكت بيـد جـي مـين، وبـدأت عاصفـة مـن التَّباهـي بهـا في كل أرجـاء السـوق.

"انظروا لهذا، هذه حفيدتي، انظروا لورقة اختبارها".

"مبارك عليكِ هذه الحفيدة النجيبة".

"هي كذلك، لديها نباهة فطرية. ولا أقول ذلك لأنها حفيدتي".

تباهـت مالجـا بورقـة حفيدتهـا أمـام كل مَـن في السـوق. مـرَّت عـلى جميـع المتاجـر بالترتيـب؛ متجـر الخـضروات والفاكهـة، ومتجـر الأسـماك،

ثـم متجـر الأسـماك المجفَّفـة، ولم تسـتثنِ متجـر الأحذيـة مـن الأمـر؛ توقَّفَـت عنـده لتشـتري لجـي مـين زوجًـا مـن الأحذيـة الرياضيـة، ولكـنَّ تباهيهـا بمعـدلات حفيدتهـا انتهـى بمشـاجرة كانـت في غِنـى عنهـا مـع صاحبـة المتجـر.

"مـا كل هـذه الضجـة حـول الأمـر يـا سـيدة تشـو؟ الاختبـار لم يكـن اختبـارًا رسـميًا حتـى! لا تلومـي إلّا نفسـك لـو سبَّكِ النـاس عـلى كل هـذا التباهـي لمجـرد أنهـا حصلـت عـلى المعـدلات النهائيـة في اختبـار إمـلاء بسـيط".

"لو لم يكن اختبارًا حقيقيًا، فماذا هو إذن؟".

"حسنًا، حسنًا. ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لك لأنك السيدة تشو".

"ماذا تقصدين يا سيدة كيم؟ ماذا تقصدين بكلمة 'لأنني السيدة تشو'؟".

"لأنـك تجهلـين القـراءة والكتابـة؛ لـذا تحسـبين أن الأمـر عظيـم. ولكـن مـا المدهـش حـول الإمـلاء؟".

"هل قلتِ كلَّ ما عندك يا سيدة كيم؟".

بعـد جولـة حاميـة مـن الرشـقات الكلاميـة أمسـكت مالجـا بيـد جـي مـين وسـحبتها خـارج المتجـر، ثـم انطلقـت خـارج السـوق. السـيدة التـي وقفـت في محـل الأحذيـة كان لديهـا القـدرة عـلى قلـب بواطـن الزبائـن رأسًـا عـلى عقـب في غـير اكـتراث مـن جانبهـا وكأنهـا لم تقـترف أي خطـأ. كانـت كثـيرًا مـا تسـتخرج صورتهـا وهـي ترتـدي قميصًـا أبيـض وتنُّـورةً سـوداء، وتقـول في فخـر بأنهـا تخرَّجَـت مـن المدرسـة الثانويـة يومًـا مـا في المـاضي. تظاهَـرَت مالجـا بالهـدوء، ولكـن في قـرارة نفسـها كانـت تشـعر بغـيرة مريـرة لأنهـا لم تَخْـطُ عتبـة المدرسـة قـطُّ. كانـت تشـعر بالعُزلـة حين تبـدأ نسـاء الحـيِّ في التحـدث عـن ذكرياتهـن مـن فـترة الدراسـة، وكأنـه يتـمُّ إقصاؤهـا بشـكل مُتعمَّـد، بـل والأكـثر مـن ذلـك تصديـر إحسـاس غـير

مرغوب فيه بالدونية. سبق لها أن سمعت عن وجود مدراس إلزامية للكبار لتعليمهم الهانجول ولكنها متاحة في المُدن الكبيرة فقط، أمّا بالنسبة لواحدة مثلها تقطن في قرية صغيرة كانت تلك المدراس كمن يقدّم لوحة مرسومة لكعك الأرز لمن يتضوَّر جوعًا.

في تلك الليلة، عرضت جي مين على جدتها الصفحة الأخيرة من دفترها.

"انظري لهذه يا جدتي".

"ما هذه؟".

"لو تمكّنتِ من قراءة هذه الصفحة لأصبح بإمكانك القراءة مثلي".

"حقًّا؟".

حدّقت مالجا في الورقة التي أمسكتها جي مين. بدت لها كمجموعة من الصور المبعثرة المُربكة.

"تدرَّبي معي لمدة عشر ليالٍ فقط يا جدتي".

أشارت جي مين بإصبعها الصغير تجاه أحد الحروف وقالت لها.

"هذا حرف الـ ' ㅏ '، كرِّري من خلفي يا جدتي. آه".

كانت مالجا تتبع جي مين في النطق، فتُردِّد خلفها قائلة 'إي'، ثم تُردِّد قائلة 'أوه' حينما تقول جي مين 'أوه'. كانت تعتبر الأمر غريبًا حتى وهي تسترجعه الآن. فتاة في الثامنة من عمرها تجلس مع جدتها لتُعلِّمها 'كا، نا، دا، را'. كانت مالجا تفهم على الفور من جي مين بفضل شرحها الممتاز. لم تكن تُحرج جدتها حين تُخطئ أو تتعجَّلها بالفهم حينما تعجز عن الفهم على الفور. كانت جي مين تدوِّن النقاط التي تعثَّرت فيها جدتها ثم تسألها عنها في مرة لاحقة، ولم تنسَ أن تمدحها حين تُصيب في إجابتها. وتمامًا كما وعدتها جي مين، كان باستطاعة مالجا أن تقرأ الحروف الأبجدية التي كُتِبَت على غلاف الدفتر الخلفي في ظرف عشر ليال فقط، ثم تمكّنت، مع مرور

بعض الوقت، من قراءة الجرائد والإعلانات، وإن لم يَخلُ الأمر من التعثر. الهاتف اللاسلكي الحقيقي يجب أن يكون قابلًا للطَّيِّ! ماكسون للإلكترونيات! متجر ثيرتي هاوس، مفتوح أربعًا وعشرين ساعة! إعلان للبحث عن شركاء للحصول على توكيلات حق الامتياز!

كان العالم كله مليئًا بالأحرف. الصور التي لم تكن ذات معنى في يوم من الأيام أصبحت الآن كلمات تتحدَّث إليها. كانت تقرأ الرسائل الإخبارية الخاصة بالمدرسة وتتأكَّد من مواعيد الرحلات المدرسية، وهي تشعر بكل الفخر والسعادة حيال نفسها وهي تفعل ذلك. كتبت اسمها "تشو مالجا" في دفتر مُثبَّت بسلك معدني من أحد أطرافه، ثم بدأت تحلُّ واجبها مع جي مين. كانت عاجزة عن شكرها.

لا زالت تذكر كم تمنَّت لو كان باستطاعتها الذهاب للمدرسة وهي بعمر حفيدتها. ولا زالت تذكر يوم ألحَّت على أخيها ليصحبها معه إلى الفصل، وبالفعل نجح في تسريبها داخل فصله، وحين رأتها معلِّمتُه سحبت لها كرسيًّا. "ما اسمك؟" كان صوتها المستفهم حانيًا ونظرتها طيبة. "تشو مالجا"، أجابتها وقد أخفضت رأسها في خجل. ناولتها المعلمة قلمًا وورقة جرائد وطلبت منها أن ترسم. كانت رائحة المعلمة جميلة، أجمل من أي رائحة قد شمَّتها من قبل. ربما كانت إحدى جِنِّيَّات السماء كما في القصص. وحتى الآن لا زالت مالجا، التي بلغت السبعين من عمرها، تذكر تلك المُعلِّمة، ببشرتها الصافية، وملابسها الجميلة، وهي تلعب على آلة الأرغن الحمراء. ولا زالت تذكر إحساسها في تلك اللحظة، بأن جسدها أصبح خفيفًا وكأنها تمتطي سحابة، ولا زالت تذكر الجرو وشجرة الجوز، والبيت، والسور تلك الأشياء رسمتها على ورقة الجرائد.

أمُّ مالجا صفعتها لحظة دخولها للمنزل؛ لأنها نسيت أنها فتاة وتجرَّأت على الذهاب لإلقاء نظرة على المدرسة. كانت شمس شهر

مايو قائظة. جلست مالجا القرفصاء في أحد حقول الملفوف الشاسعة تنتحب، ثم سحبت دموعها، ولم تقرب أي مدرسة بعد ذلك اليوم أبدًا، ولو تَصادَف أنَّ عليها المرور بجانب مدرسة ما، كانت تتَّخذ الطريق الأطول تفاديًا لذلك، ولكنها لم تستطع أن تخبر جي مين بتلك الذكرى، لم تستطع أن تخبرها أنها كانت مُعلِّمَتَها الأولى، وأنها كانت أول مَن مدحها بلُطفٍ.

2

فرشت ابنتها بطانية فوق أرضية غرفة المعيشة وغفت في سُباتٍ عميق بمجرد أن لمست رأسها البطانية. حدَّقَت مالجا في هدوء في وجه ابنتها يونج سوك النائمة. غزت الكثير من الشعيرات البيضاء غير المصبوغة وسط شعرها، ولاحظت وجود بقعة مُقلقة تشي ببداية الصَّلع قد نَمَت في منتصف رأسها. كانت قبل زواجها كثيفةَ الشَّعر بحيث لا تحتاج لأكثر من لفَّتين لربط شعرها برباط الشَّعر المطاطي. بدأت يونج سوك تعاني من آلام تعتري كل جزء من جسدها بعدما أتمَّت عامها الثلاثين؛ نظرًا لأنها مرَّت بالكثير من الصعاب في مرحلة الشباب، كما أنها اضطرَّت للعودة لدَوام عملها على الفور دون الحصول على الراحة الكافية التي تلزمها بعد الولادة.

صهرها بارك كان الابنَ الأكبر لأسرة مكوَّنة من ثلاثة أبناء من الذكور. أثارت أمُّه زوبعةً عظيمة حينما عجزت يونج سوك على تكرار تجربة الحمل بعد إنجاب جي مين. كانت تزعج يونج سوك المسكينة بمكالماتها المتكررة، وتتصيَّد لها كمن يتصيَّد لفأر. لم تعتقد مالجا أنه كان من الملائم أن تبدأ في شجار مع حماة ابنتها كونها تسكن في بيت صهرها. ولو كان الوضع مختلفًا لأظهرت مالجا شخصيتها النارية، ولسدَّدَت لتلك المرأة لكمة في أنفها لتُحوِّله لأنف مسطح، إلَّا أن هذا الخيار لم يكن مُمكِنًا. وفي أحيان أخرى حينما كانت تدفعها حماة

ابنتها للجنون والغليان الداخلي بملاحظاتها المستفزة الساخرة، كان عليها أن تمتصّ غضبها وهي تجيبها بإجابة وحيدة؛ هي: نعم، نعم سيدة بارك.

خضعت يونج سوك لعملية إزالة الرحم بعمرالثانية والثلاثين.

"قطعتِ نَسْلَ أسرتنا".

كانت يونج سوك راقدة في المشفى بعد عمليتها الدقيقة، حينما هاجمتها حماتها بتلك الكلمات، دون أدنى اعتبار لما هو مقبول وغير مقبول من الكلام.

"كِنَّات باقي الأُسَر ينجبن ولدين وثلاثة بلا أدنى مشكلة، ولسوء حظنا بُلينا بانضمامك لأسرتنا".

لو كانت الأمور تسير كما ترغب لدخَلَت معها في عراكٍ لتُوسِعها ضربًا مُبرحًا، ولتَمُتْ في هذا العراك، ولكن مالجا لم تَقُل أي شيء. كانت تعرف أنها كأم الكِنَّة فعليها تحمُّل حماة ابنتها، وكل ذلك من أجل يونج سوك، ومن أجل استقرار زواجها. مشت مالجا تجاه حماة يونج سوك لتهدئتها فوجدت جي مين بجانبها وقد جلست القرفصاء.

"منذ متى وأنتِ هنا؟".

لم تنتظر جي مين لجدتها.

"صغيرتي، منذ متى وأنتِ هنا؟".

كانت جي مين تبكي وقد أحنت رأسها. استشاطت مالجا غضبًا من المرأة التي قالت مثل ذلك الكلام، الذي لا يختلف عن القمامة في شيء، في حضور الطفلة، وأحسَّت أن رأسها يوشك على الانفجار غيظًا. لم تقف مالجا قبل هذه اللحظة في صفِّ ابنتها في أي مرَّةٍ في مواجهة حماتها، وكانت توصيها بالإحسان إليها على الدوام، كانت تظن أن هذه حكمةٌ مطلوبة من أم زوجة الابن، ولكن هل كان من

الحكمة التزام الصمت بينما تتلقّى ابنتها وابلًا من الإهانات؟ ألم يكن عجزها عن حمايتها السبب في أن تُجرح حفيدتها الغالية هي الأخرى؟

"سيدة بارك، عليكِ أن تتوقّفي على الفور. ألا ترين أن الطفلة قد سمعت كلامك وها هي تبكي؟".

رغم أنها حاولت الحفاظ على اللياقة في حديثها، إلّا أنها لم تستطع إخفاء التذبذب في صوتها.

"قَطعُ نَسْلِ أُسرَتِكِ؟ وهل تظنين أن حفيدتك هذه قد سقطت من السماء؟ حفيدتي لا تُعوَّض ولو بعشرة من الأحفاد. سيدة بارك".

"ألا تخجلين من رفع صوتك أمامي؟".

"ما ذنبها لو اضُطرَّت لإزالة رحمها بسبب مرضها؟ ليس من الصحيح أن نتفوّه بمثل ذلك الكلام أمام شخص مريض. هذا ما تربّينا عليه، حتى امرأة جاهلة مثلي تعرف هذا".

أرادت أن تقول المزيد، لكنّ لسانها تحجّر في مكانه. كيف تجرّأت تلك المرأة على جرح قلب ابنتها والتّفوُّه بمثل تلك القاذورات على مسمع حفيدتها. كانت غير متأكّدةٍ ممّا قد يخرج من فمها لو بَقِيَت أكثر من ذلك في الغرفة، فأمكست بمعصم جي مين وسحبتها لردهة المشفى. كانت كفُّ حفيدتها الصغير باردة ونديّة. لم تتمالك مالجا نفسها لتنظر في وجه حفيدتها، واصطحبتها معها لمكان بيع السلع الغذائية في الطابق الأول.

"هل تريدين تناول شيء؟ اطلُبي ما تشائين؛ جدّتُكِ ستشتري لك كل ما تطلبين. هل تريدين عصير بونج بونج أم عصير ساك ساك؟".

خرجت مالجا من المشفى واصطحبت جي مين في يدها. كانت تصحبها في تمشية وهي رضيعة كلّما بدأت في البكاء. كانت تعرف أنها لو فعلت ذلك فسوف يخمد الحزن في قلبها لو غيَّرَت المكان ورأت

منظرًا مُختلفًا. تمنّت مالجا لو عاشت جي مين دون أن تعرف طريقًا للحزن، وتمنَّت لو أنه لم يكن عليها أن تذرف دموعًا في غير محلّها، وألّا تتجرّع الألم الذي لم تكن مضطرّةً له. تمنّت لو أنها لم تتعرّض للانتهاك والتّنمُّر الذي تبلونا به الحياة من وقت لآخر. أرادت لها أن تكون شخصًا مستمتعًا بالحياة مُقبِلًا عليها، لا شخصًا عليه أن يتحملها.

"عزيزتي جي مين. لا تلقي لذلك الكلام بالًا".

جي مين، التي توقّفَت عن البكاء، اتّكأت على ذراع جدتها.

"بحلول الوقت الذي ستكبرين فيه لن يعني الأمر كونك رجلًا أو امرأة. ولو قال لك أحدهم إنه لا يمكنك فعل هذا لأنك امرأة امسحي ذلك الكلام كلّيًّا، ولا تُعيري لتلك السخافات الجاهلة أي اهتمام واسخري منهم في وجههم. لك أن تكوني ما شئت، ولك أن تفعلي ما شئت. في جيلك، مَن كان يملك قلبًا على صواب هو وحده مَن سيحيا حياة طيبة، سواء كان رجلًا أو امرأة".

كانت حماة يونج سوك قد رحلت عندما عادت مالجا لغرفة ابنتها. اقتربت مالجا من ابنتها التي رقدت على فراشها بوجه منتفخ. وحينما رأت أمها ابتسمت لها بحاجبين عابسين. مسحت مالجا على رأس ابنتها مرارًا وتكرارًا حتى استسلمت للنوم. جلست جي مين على السرير المشفى وهي تراقب أمها وجدتها في صمت.

3

ذهَبَت مالجا لغرفة جي مين بينما كانت يونج سوك نائمة.

بقيت الغرفة كما هي منذ سفر جي مين للصين. كان كل شيء نظيفًا ولامعًا بفضل صهرها السيد بارك الذي حرص على تنظيفها يوميًّا. كان الرّفُّ المكوّن من خمسة مستويات مكتظًّا بالكتب، بينما بقيت الكتب التي كانت تدرس منها جي مين استعدادًا لامتحاناتها كما

هـي عـلى مكتبهـا. جلسـت عـلى مقعـد مكتـب جـي مـين وبـدأت تنظـر للقصاصـات والصـور التـي ألصقتهـا عـلى الحائـط. "أكـثر الأوقـات حُلكـةً هـو الوقـت الـذي يسـبق بـزوغ الشـمس"، "ليسـت هنـاك مكتسـبات إن لم أُجـنَّ"، "اجمعـي زمـام أمـرك يـا جـي مـين"... قصاصاتهـا المكتوبـة بخـطّ يدهـا بهتـت بسـبب أشـعة الشـمس. كانـت هنـاك أيضًـا صـورة لجـي مـين مـع طلابهـا أثنـاء فـترة تدريبهـا العمـلي للتدريـس. كانـت تقـف خلـف منصـة ويحيطهـا الأطفـال الذيـن رسـموا شـكل قلـب بأيديهـم. كانـت ابتسـامتها واسـعةً لدرجـةٍ جعلـت مـن الصعـب رؤيـة عينيهـا الصغيرتـين.

قالـت جـي مـين في إحـدى المـرات إنهـا فكَّـرَت في العمـل لـدى إحـدى الـشركات الكـبرى، ولكنهـا عدَلَـت عـن رأيهـا وقـرَّرَت العمـل كمعلمـة بعـد أن أنهـت تدريبهـا العمـليّ. "جـدتي، أحـب الأطفـال؛ فهـم يمنحوننـي الحيـاة". تذكَّـرَت مالجـا وجـه جـي مـين والبريـق الـذي رأتـه في عينيهـا وهـي تقـول ذلـك الـكلام. وفي الصـورة المقابلـة كانـت أيضًـا صورتهـا مـع طلابهـا في أول مدرسـة عملـت بهـا. كانـت تقـف مبتسـمة وقـد رسـمت علامـة النـصر بأصابعهـا وبصحبتهـا الأطفـال الذيـن وقفـوا أمـام شـجرة السـاكورا، كان الأطفـال سـعداء كذلـك وقـد عقـدوا أذرعهـم مـع ذراعـي جـي مـين.

تفقَّـدَت مالجـا الصـور المضغوطـة تحـت الإطـار الزجاجـي للمكتـب. كانـت معظمهـا صـورًا التقطـت في المدرسـة مـع الطـلاب. وكان هنـاك أيضًـا خطـابٌ صُنـع مـن ورق الرسـم بلـون زهـريٍّ، موقَّـع مـن قبـل العديـد مـن الطـلاب. كتبـوا لهـا "أسـتاذة جـي مـين، أنـتِ أسـتاذتي المُفضَّلـة"، "أنـتِ مَرِحـة للغايـة يـا أسـتاذة جـي مـين. أنـام في باقـي الحصـص، ولكـن ليـس في حصَّتـكِ. لا تنـسي أن تشـجِّعيني يـا أسـتاذتي"، "أسـتاذة جـي مـين، شـكرًا لأنـك اشـتريتِ لي المعجَّنـات مـن المتجـر في المـرَّة السـابقة. سأشـحن

طاقتي وأجيب عن كل أسئلة الاختبار القادم"، "نحبك يا أستاذة جي مين، المشهورة بهو بانج مان[1]. هاهاها".

رسم الطلاب وجه جي مين بطريقة كرتونية. في مرة سابقة حينما سألت مالجا جي مين "مَن يكون هو بانج مان هذا؟"، فقامت جي مين بالبحث عن صورة الشخصية الكرتونية على هاتفها وعرضتها عليها وهي تضحك. رجل بوجه قُرص خبز يرتدي عباءة ويطير في السماء. "يا إلهي، أين وجه الشبه بينك وبين هذا الأصلع؟" كانت مالجا تسأل وهي غاضبة، بينما انفجَرَت جي مين في الضحك. كانت مالجا تفتقد بشدة لتلك الأيام التي قضتها مع حفيدتها تتحدَّثان سويًّا عن مثل تلك الأمور في نفس غرفتها هذه.

كانت هناك أيضًا صور لمالجا مع جي مين. صورة التُقِطَت أمام حضانة جي مين في أول يوم دراسي لها. وهي ترتدي معطفًا صوفيًّا جديدًا وجوربًا أبيض طويلًا، وتضع يدها في أنفها. بدا وكأن مالجا كانت تقول لها شيئًا، في الغالب كانت تخبرها التالي: "توقَّفي وإلَّا نَزَفتِ من أنفك إذا ما استمررت في إدخال إصبعك ". مرَّ زمنٌ طويل منذ تلك الحظة، والآن قد بلغت مالجا السبعين من عمرها، بينما بلغت جي مين السابعة والعشرين. جي مين لم تتواصل ولو لمرة واحدة بعد أن سافرت لأرضٍ بعيدة وهي التي كانت ملتصقة بجسدها يوميًّا في السابق.

رغم أن الزمن قد غيَّر كل شيء إلا أنها شعرت أن بامكانها أن تمدَّ يدها داخل الصورة لتلمس ذلك المنظر. كانت تُحمِّم الطفلة، ثم تُلبِسها ملابسها الداخلية، وتُمشِّط شَعرها، وترفع جواربها لتغطي قدميها الصغيرتين، وتركض خلفها لتلحقها قبل أن تسقط الصغيرة وتجرح ركبتيها مرة أخرى، وتضع الطفلة الصغيرة في مهدها، وقد

(1) شخصية كرتونية يابانية ولها شهرة في كوريا كذلك.

بـدأت في نوبـة مـن البـكاء لأنهـا مُتعَبـةً وتريـد النـوم، ثـم تربَّـت عـلى ظهرهـا حتـى تنـام فتجـد نفسـها وقـد نامـت بجوارهـا في نهايـة الأمـر وهـي لم تنتبـه لذلـك، وكأن الأمـر كلـه كان بالأمـس فقـط.

كانـت هنـاك صـورة أخـرى التُقِطَـت قبـل سـنتين في فصـل الخريـف في رحلـة لجزيـرة جيجـو. ذهبـت مالجـا ويونـج سـوك وجـي مـين ثلاثتهـم إلى الجزيـرة لمـدة أربعـة أيـام وثـلاث ليـالٍ؛ احتفـالًا بشـفاء مالجـا مـن السرطـان. ركبـوا الحصـان، وزاروا متحـف الدببـة الشـهير، وزاروا شـلالات الجزيـرة أكـثر مـن مـرة، كـما تناولـوا لحـم الخنزيـر الـبري المشـوي والمثلجـات بنكهـة الفـول السـوداني، وكعكـة أوميجـي المصنوعـة مـن الأرز. تولَّـت يونـج سـوك مَهمَّـة قيـادة السـيارة، بينـما تولَّـت مـي جـين مَهمَّـة البحـث عـن المطاعـم والأماكـن السـياحية التـي سـيزورونها وحجـز أماكـن المبيـت، أمـا مالجـا فـكان عليهـا أن تتبعهـم فحسـب.

التُقطـت الصـورة عنـد شـاطئ الرمـال الأبيـض بجزيـرة أودوو. وكانـت تلـك المـرة الأولى التـي تـرى فيهـا شـاطئًا برمـال بيضاء وميـاه بلون السـماء. قالـت جـي مـين إن رمـال الشـاطئ البيضـاء تكوَّنَـت إثـر تهشُّـم الشـعاب المرجانيـة. قالـت مالجـا إنهـا تريـد غمـر قدميهـا في البحـر، فأسرعـت جـي مـين بخلـع جوربيهـا وسـبقتها بالدخـول للـماء. وضعـت كلتاهـما قدميهـا في المـاء وهُـما يتضاحـكان حتـى ابتـلَّ كاحلاهـما، حينهـا أخـذت يونـج سـوك صـورة لهـما.

أحسَّـت مالجـا بانقبـاض في صدرهـا حينـما رأت صورتهـا مـع مـي جـين وهـي تثرثـر معهـا وقـد تشـابَكَت أذرعهـما سـويًا. حدَّقَـت في وجـه جـي مـين طويـلًا ثـم قالـت لهـا وهـما عـلى مـتن العبّـارة التـي أقلَّتهـم مـن جزيـرة أودوو وحتـى مينـاء سـونج سـان.

"جي مين!".

"نعم؟".

"هذه هي المرة الأخيرة".

"المرة الأخيرة لماذا؟".

"المرة الأخيرة التي تصحبينني فيها لمكان".

"ماذا تقولين يا جدتي؟".

"افعلي ما يحلو لك لو توفَّر معك النقود والوقت الكافيَان".

"جدتي".

"نعم".

"لو أصبحتُ مُعلِّمةً حقيقيةً، سأصحبك في رحلة أفضل من هذه بكثير".

"لو لم تكوني معلِّمةً حقيقية بالفعل، فماذا تكونين؟ وهل يوجد معلِّمون غير حقيقيين في هذا العالم؟".

"لا زلتُ مُعلِّمةً تحت الاختبار".

"وماذا يعني معلمة تحت الاختبار؟".

كتبت جي مين بالقلم جملة "معلِّمة تحت الاختبار" فوق ورقة منديل.

"لم أنجح بعد في الامتحان الذي يؤهِّلني لأصبح معلِّمة".

حدَّقت مالجا كثيراً في جملة "معلِّمة تحت الاختبار"، ولم يكن باستطاعتها فهم الجملة مهما حاولَت، ورغم ذلك أخذت تحرك رأسها متظاهرةً بالفهم. فالمعلمة معلِّمة فحسب؛ فما الداعي لتلك التعقيدات باستخدام جُمَلٍ مثل "مُعلِّمة تحت الاختبار".

بدأت تسترجع مالجا، وهي جالسة على كرسي مكتب جي مين، من جديدٍ المنظر فوق العَبَّارة التي أقلَّتهم لميناء سونج سان. تذكَّرَت شَعر جي مين الطويل الذي تطاير مع الرياح القوية، وكفَّيها الصغيرتين المثلثتين تُبعدان خصلات شعرها من على وجهها. رغم أن

جـي مـين كانـت تطلـق عـلى نفسـها "بالغـةً"، إلا أنهـا كانـت لا تـزال طفلـة صغـيرة في عـين مالجـا وقـد تُرِكَـت بالقـرب مـن المـاء الخَطِـر دون رفقـة البالغـين. يومًـا مـا سـأضطرُّ لأن أرحـل وأتـركك، ولكنـي لسـت قَلِقـةً مـن ذلـك، هـذا مـا كانـت تفكـر فيـه مالجـا وهـي واقفـة فـوق ظهـر العَبَّـارة. سـيكون هنـاك صعـاب بـلا شـك، ولكنـي واثقـة مـن أنـك سـتنتصرين عليهـا، وتصبحـين شـخصًا يسـتمتع بنصيبـه مـن السـعادة. هـذا مـا كانـت تؤمـن بـه مالجـا حينهـا. هـذا مـا كانـت تؤمـن بـه مالجـا حقًّـا وهـي تـرى أمامهـا وجـه مـي جـين النقـي الضاحـك في صفـاء.

4

لاحظـت مالجـا وجـه صهرهـا الـذي بـدا أنحـف منـذ آخـر مـرة رأتـه فيهـا، وقـد لمحـت محـلَّ بعـض الضـروس فارغًـا في فمـه حـين كان يتثـاءب.

"صهري، هل ما رأيته كان صحيحًا؟ هل فقدتَ بعض الضروس؟".

لم يعلِّق صهرها السيد بارك على الأمر، بينما بادرت يونج سوك قائلة:

"أعراض تَقدُّم العمر".

"صهري السيد بارك...".

"حـماتي، هـل تظنـين أنـه الوقـت المناسـب لتقلقـي بشـأني؟ رجَوتُـكِ أن تلتفتـي لوضعـك الصحـي".

عـدم السـيطرة عـلى الانفعـالات كانـت إحـدى عـادات السـيد بـارك. فقـدان الأعصـاب يتزامـن في العـادة مـع الشـعور بالغضـب، ولكـن بالنسـبة لـه كان يفقـد أعصابـه كلـما شـعر بالإحـراج أو السـعادة أو المفاجـأة. في بدايـة الأمـر، حينـما كانـت تعيـش معهـم كانـت تُفاجـأ بـين الحـين والآخـر مـن انفعالاتـه المتكـررة، إلا أنهـا اعتـادت الأمـر، وأصبحـت لا تبـالي. كان يـصرخ بـلا مناسـبة، ثـم يخـرج ليدخِّـن، يعـود مـن بعدهـا ليتفـرَّس خلسـة في وجـوه النسـاء الثلاثـة، في محاولـة منـه لاسـتنباط مشـاعرهم. كان

طويل القامة، بجسد ضخم، وهيئة مخيفة؛ مما أعطى للناس انطباعًا خاطئًا عنه.

كان منظره وهو يلملم سجائره ويخرج مختلفًا عن منظره في السابق، فقد تقلّص حجم خصره وفخذيه بحيث بدا سرواله ضخمًا عليه، وكأنّما تضاءل حجمه الكُلِّيُّ بشكل كبير. آلمها ما لاحظته على زوج ابنتها الذي تدهور جسده على هذا النحو في فترة قصيرة.

في إحدى المرات، وبينما كانت مالجا نائمة في غرفة جي مين بعد زيارة للمشفى، سمعت صوت فتح الباب، ثم أعقبه دويُّ صوت لشيء قد سقط على الأرض. نهضت مفزوعة، ثم خرجت تتحقَّق من الأمر، فوجدت صهرها السيد بارك مُلقى على أرض الرَّدهة في حالة سُكرٍ شديد، ولم يكن قد خلع حذاءه حتى. لم يسبق لها أن رأته على تلك الحالة من قبل. حاولت تمالك نفسها وهي تشاهد صهرها مُلقًى على الأرض عاجزًا عن التحكم في أطرافه.

"يونج سوك! يونج سوك!" صرخ مناديًا عليها، ثم بدأ ينتحب في صمت.

"عزيزي، إن كنت ستبكي فأطلق صوتك في البكاء. وابكِ أمامي ما شئت. لِمَ عليك أن تحسب حسابًا للغير حتى وأنت معي؟".

أخذت يونج سوك تربِّت على ظهر زوجها عدة مرات، ثم دخلت مالجا لغرفتها يعتريها الخجل كونها قد تدخَّلَت في تلك اللحظة في المساحة الخاصة بين الزوجين. كانت مالجا مستلقيةً على فراشها حينما سمعت يونج سوك وزوجها يدخلان غرفتهما، ولكنها لم تستطع النوم.

"جي مين سافرت إلى الصين. تقول بأنها ستعمل كمعلِّمة في إحدى القرى الصينية". وجه صهرها السيد بارك الأحمر وهو يقول هذه الجملة كان يظهر أمام عينيها وهي مستلقية على الفراش.

أعـدَّت مالجـا طبـق التشـاب تشـيه يـوم ميـلاد جـي مـين وأخذتـه معهـا لمنـزل ابنتهـا. كان عـلى المائـدة حسـاء الطحالـب المعَـدُّ بمرقـة اللحم البقـري، التشـاب تشـيه، طبـق سـلطة القواقـع الحـارة، سـلطة الفجـل المبشـورة، إضافـة لعـدد مـن الأطبـاق التـي تحبهـا جـي مـين جميعهـا كانـت حـاضرة عـلى مائـدة الطعـام. في العـام السـابق، في يـوم ميـلاد جـي مـين قالـت بأنهـا سـتذهب في رحلـة لمـكان مـا. قالـت يونـج سـوك بأنهـما قـد قـرَّرَا إعـداد مائـدة احتفاليـة متواضعـة نظـرًا لأن صاحبـة الاحتفـال ليسـت موجـودة عـلى أي حـال.

تجمَّـع ثلاثتهـم حـول طاولـة الاحتفـال، بـدا كل شيء بـلا داعٍ. لم ينطـق أي منهـم بكلمـة وكأنـه اتفـاق مسـبق بينهـم. تنـاول صهرهـا بضـع ملاعـق مـن الحسـاء ثـم انسـحب ودخـل غرفتـه. نظـرت مالجـا ليونـج سـوك فوجدتهـا قـد مزجـت الأرز في حسـائها وأخـذت تدفسـه في فمهـا دفسًـا.

"أترغبين في المزيد من الحساء؟ هل حُشر الطعام في حلقك؟".

اسـتمرت يونـج سـوك في تنـاول حسـائها دون أن ترفـع رأسـها، ثـم أحسَّـت بالاختنـاق فسـعَلَت وتطايـرَ بعـض حبَّـات الطعـام عـلى المائـدة.

"آسفة يا أمي".

اعتـذرت يونـج سـوك وهـي تنظـف في ارتبـاك حبَّـات الأرز المتناثـرة عـلى الطاولـة. آسـفة آسـفة يـا أمـي.

عـلام كل هـذا الاعتـذار؟ شـعرت مالجـا بالغيـظ مـن ابنتهـا التـي كانـت تتأسَّـف عـلى كل شيء، حتـى عـلى أتفـه الأسـباب. أرادت أن تخبرهـا أن عليهـا التَّمهُـل، وأن تمضـغ الطعـام جيـدًا، ولكـن الـكلام لم يخـرج مـن فمهـا. أرادت أن تنـادي اسـمها "يونـج سـوك"، ولكـن ذلـك لم يفلـح أيضًـا. بـدلًا مـن ذلـك قامـت بتزويدهـا ببعـض الحسـاء. بـدأت يونـج سـوك تتنـاول حسـاءها عـلى مهـل وهـي تنفـث فيـه هـذه المـرة، كـما بـدأت مالجـا تختـار أعـواد الطحالـب الطريـة قبـل مضغهـا جيـدًا.

وبعـد أن أنهـت يونـج سـوك طعامهـا، قالـت بأنهـا سـتخرج لـشراء بعـض المخبـوزات. غسـلت الصحـون، وطـوت الملابـس المغسـولة، ونظَّفـت بالمكنسـة، لكـن يونـج سـوك لم تكـن قـد عـادت للمنـزل بعـدُ. جلَسَـت مالجـا عـلى الأريكـة تتابـع التلفـاز لمـدة سـاعة، ثـم عـادت لمنزلهـا. كانـت أمطـار الخريـف بـاردة، وقـد نزلـت بـلا اسـتحياء في يـوم ميـلاد جـي مـين. كانـت خطـوات مالجـا ثقيلـة وهـي في محطـة الحافـلات، وقـد أقلقهـا هاجـس إذ ربمـا تكـون ابنتهـا تتمـشى في هـذه الأمطـار البـاردة. اتَّصلَـت بهـا حينـما وصلـت لمنزلهـا، لكـن يونـج سـوك لم تجـب اتصالهـا.

مـرَّ نصـف عـام منـذ سـافرت جـي مـين للصـين ولم تصـل منهـا أي أخبـار، ويبـدو أنهـا كانـت عـلى عجلـة مـن أمرهـا، حتـى إنهـا لم تـودِّع جدَّتهـا قبـل سـفرها، ثـم اتصلـت يونـج سـوك بحلـول ذلـك الوقـت لتُطلِعَهـا عـلى أخبـار جـي مـين. قالـت إنهـا اسـتطاعت بالـكاد أن تتواصـل معهـا هاتفيًّـا.

"أمـي، جـي مـين تقـول بأنهـا تسـكن بمنطقـة في وادٍ جبـلي؛ لـذا فمـن الصعـب عليهـا أن تتصـل هاتفيًّـا أو أن تبعـث لنـا بالرسـائل".

كانت مالجا صامتة.

"الصـين شاسـعة يـا أمـي، لدرجـة أن هنـاك مناطـق في الريـف لا يصلهـا سـاعي البريد".

"نعم، الصين كبيرة".

"ويبـدو أنهـا مشـغولة بالأعـمال المدرسـية كذلـك. تقـول إنـه لا توجـد إجـازة مدرسـية".

"فعلًا؟".

"لذا أوصتني أن أخبرك ألَّا تقلقي، وأنها بخير...".

"أنا واثقة أنها ستكون بخير".

"أنا واثقة من أن جي مين ستكون بخير".

5

فتحت مالجا خزانة جي مين، فوجدت معطفًا شتويًّا، ومعطفًا لفصلَيْ الربيع والخريف، وعدة سُترات رسمية ترتديها للعمل، وسترة صوفية، وتنُّورة تخصُّ البذلة، إضافة لبعض الفساتين الصيفية. كانت الخزانة الصغيرة مكتظَّة بالملابس، وحين حاولت أن تُخرج السُّترة الصوفية وجدت فستانَيْن صيفيَّيْن قد انزلقا من أعلى شماعتهما. كانت السترة باللون الرمادي الداكن، وبها ثلاثة أزرار من الوجه الأمامي. وكانت جي مين ترتدي تلك السترة على الدوام، رغم أن قماشها لم يساعدها على تدفئة جسدها، كما كانت ذات زغب كثيف. مالجا قد سبق وأخبرتها عدة مرات أن تتخلص من هذه السترة، ولكنها لم تكن تسمع لها.

كان هناك من بين قطع ملابسها قطعة ثقيلة وقديمة قد صُنِعَت من خامات رخيصة. أخرجت مالجا هذه القطعة وفتحت ذراعيها لتضمها وكأنها تضمُّ إنسانًا. كانت تلك فرصة ممتازة للتَّخلُّص من تلك القطع، ولكنها لم تقدر على فعل ذلك؛ لأن جي مين ستعود حتمًا يومًا ما وتبدأ في السؤال عن مكان تلك القطع. كانت مالجا تجرِّب الملابس التي تحبها جي مين حين يخلد كلٌّ من يونج سوك وزوجها للنوم في غرفتهما. كانت تجرِّبهم بداخل الغرفة فحسب، ولكن حينما تشعر بالرغبة في ذلك كانت ترتديهم في الخارج بل وتأخذ بعضًا منها لتضمها وهي نائمة.

نظرت مالجا لنفسها في المرآة وهي ترتدي سترة جي مين. ما رأته في المرآة كان انعكاسَ لامرأة عجوز نحيفة مثل السيخ، تقف أمامها

مُحدَّبـة. عيناهـا الغائرتـان مـع قِلّـة الشَّـعر في حاجبيهـا أعطتهـا نظـرة ماكـرة عـلى وجههـا، رغـم أنهـا لم تكـن تفعـل شـيئًا سـوى التحديـق في المـرآة. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي تـرى فيهـا نفسـها في المـرآة منـذ مـدة. حيـث كانـت تتحـاشى النظـر في المـرآة منـذ بـدأت تفقـد وزنهـا؛ خشـية رؤيـة وجههـا النحيـل. اسـتخرجت وشـاح جـي مـين البيـج ولفَّتـه حـول عنقهـا. رغـم أنهـا لم تفعـل شـيئ سـوى أنهـا ارتـدت ملابـس جـي مـين ووشـاحها، إلَّا أنهـا أحسَّـت أن قواهـا قـد خـارت بالفعـل، بينـما بـدأت ترتعـش قدماهـا. فاسـتلقت عـلى فـراش جـي مـين عـلى الفـور.

أخبرهـا الطبيـب بحـذر أنـه لا أمـل حتـى مـع إجـراء العمليـة. مثـل تلـك الكلـمات كانـت لتحطِّمهـا في يـوم مـن الأيـام، لكنهـا الآن تشـعر بالسـكينة. كانـت قـد ملَّـت مـن الخضـوع للعمليـات والعـلاج الكيميـائي. لم يكـن هنـاك مـا يسـتدعي أن تطيـل عمرهـا لأجلـه، ولم يكـن هنـاك مـا تنـدم عليـه. بـل إنهـا فكـرت إذ ربمـا يكـون هـذا هـو الحـل الأفضـل. ليـس معنـى ذلـك أنهـا لم تخـشَ المـوت، ولكـن البقـاء عـلى قيـد الحيـاة كان مخيفًـا بالقَـدْر نفسـه، وهنـا يتسـاوى الطرفـان. لم تَـدرِ كيـف تظهـر ملامحهـا أمـام يونـج سـوك ابنتهـا وهـي تخفـي هـذه المشـاعر بداخلهـا. أخـذت تتقلَّـب في الفـراش عاجـزة عـن النـوم.

جدتي.

كانـت مالجـا تسـمع صـوت جـي مـين في رأسـها عـدة مـرات منـذ أن رحلـت. كانـت تسـمعها تقـول "جـدتي" لا أكـثر مـن ذلـك. ذلـك الصـوت وتلـك الكلمـة التـي كانـت تتـوق لسـماعهما أكـثر مـن أي شيء في العـالم. ولكـن بمـرور الوقـت لم تسـتطع سـماع صـوت جـي مـين مـرة أخـرى. بـل إنهـا لم تَعُـد تتذكـر صوتهـا عـلى وجـه التحديـد. كيف لهـا أن تنـسى صوتهـا؟ أحسَّـت وكأنـه عقـاب لهـا؛ لـذا، وكلَّـما أحسَّـت بـأن صوتهـا يتـلاشى، أو أن الطفلـة كانـت تنجـرف بعيـدًا؛ كانـت تشـحذ قلـمًا بـكل دقَّـةٍ وتكتـب رسـالة لهـا.

نهضت مالجا وتحرّكت نحو مكتب جي مين.

عزيزتي جي مين،

هـل أمـورك عـلى مـا يـرام هنـاك؟ هـل تُعلِّمـين الأطفـال جيِّدًا عنـدك أيضًـا؟ لا تقلقـي بشـأننا. جميعنـا بخـير.

كنـتِ طفلـةً كثيرة البـكاء. لم أرَ طفلـة كثيرة البـكاء مثلـك في حيـاتي. في بدايـة الأمـر شـعرت بالظلـم أن عـليَّ أن أرعـى ابنـة ابنتـي مـع كِـبَر سِـنِّي هـذا. كنـتِ كلَّـما بكيـتِ أفكِّـر: أيَّ ذنـب اقترفـتُ حتـى أُبتـلَى بـكِ. كـم كانـت الليـالي طويلـة وأنـا أحـاول تهدئتـك لتكفِّـي عـن البـكاء. جـي مـين، لم أكـن شـخصية تحـب الأطفـال مثـل باقـي النـاس. ولكـن كيـف انتهـى بي الحـال لأصبـح عـلى مـا أنـا عليـه؟ لـو سـألني أحدهـم لمـا وجـدت مـا أفـسر بـه الأمـر.

جـي مـين، جدَّتـكِ كانـت خائفـة عـلى الـداوم مـن أن تحـب النـاس. محبَّـةُ النـاس لا تجلـب لقلبـك سـوى الألم والتعـب. ربمـا كان السـبب لأن جدتـك ضعيفـة القلـب، ولا أعلـم متـى بـدأ هـذا الأمـر؟ رغـم ذلـك ظننـت بـأن الوضـع سيتحسَّـن حينـما أتقـدَّم في العمـر. ولكـن لم يحـدث ذلـك. واتَّضـح أنـه رغـم أن عينـيَّ تشـيخان، وكذلـك أذنيَّ، وقدمـيَّ قـد تصلَّبَتَـا مثـل لحـاء الشـجرة، إلا أن قلبـي لم يتغـيَّر.

جـي مـين، ألم تشـعري بالـبرد وأنـتِ ترتدين تلـك الملابس؟ لم أسـتطع أن أشـتري لـك ولـو طقـمَ ملابـس واحـدًا لترتديـه، رغـم أننـي أعلـم حساسـية جسـدك للـبرودة. سـمعت أنـك بمنطقـة بهـا وادٍ، الريـاح سـتهبُّ هنـاك بـلا شـك، فهـل تحرصـين عـلى ارتـداء مـا يدفـئ جسـدك؟ أتعلمـين، سـأتذكَّركِ أكـثر حينـما يحـلُّ الشـتاء. جدتـك قَلِقـةٌ عليـكِ؛ إذ ربمـا ترتعشـين مـن الـبرد وأنـت ترتديـن مثـل هـذه الملابـس.

كنت طفلة شغوفة. كنت تنادينني جدتي! ثم تخبرينني بالكثير من الأموز المتعة. هل يحتاج النمل مثلنا للغطاء حين ينام؟ من المسؤول عن زرٍّ تغشيل النور في السماء بحيث يُطفأ النهار ليأتي الليل؟ كانت جدَّتكِ تتساءل من أين أتيتِ أنتِ وحكاياتك تلك؟ عشتُ لأربعة عقود ولم أكن قد التقيتُكِ بعدُ، فأين كنتِ حينها؟ ومن أين أتيتِ لتخبريني بكل تلك الحكايات العجيبة؟ هل تذكرين حين أصيبت جدَّتُكِ بالزكام وأُدخِلَت المشفى؟ أتيتِ حينها لزيارتي وحدك بعد انتهاء يومك المدرسي، وقد حملت حقيبتك على ظهرك. وعلى ركبتيك آثار بُقَعٌ الحشائس لطخت سروالك المخصَّص لصفِّ اللياقة البدنية. حينما سألتك ماذا تفعلين هنا؟ ناولِتني ما كان في يدك. كان معك ثلاثة من النفل رباعية الأوراق. وضعتها جميعًا بين راحة يدي وقلتِ لي: "جدَّتي، أرجوكِ ألَّا تموتي، ولا تمرضي أيضًا". ضحكتُ لوداعتك، لكن عينيك كانتا مغرورقتين بالدموع. جي مين، الأمر غريب، إلا أنني لا زلت أشعر وكأن قلبي سينفطر كلَّما تذكَّرتُ تلك اللحظة. لماذا أتعبتِ نفسك في البحث حتى اتَّسخَت ثيابك، وكل ذلك من أجل عجوز مثلي؟ ولماذا تمتلئ عيناك بالدموع من أجل عجوز مثلي؟ صغيرتي الوديعة، طفلتي.

أصبحت كتابتها أقلَّ وضوحًا بعدما بدأت تفقد طاقتها ومعها قدرتها على التحكم في يدها، ورغم ذلك لم تتوقف مالجا عن كتابة رسالتها. كانت واثقة من أن جي مين ستتمكَّن من قراءة رسالتها مهما كان خطُّها صعبًا.

طَوَت مالجا الخطاب الذي أرادت أن تعطيه لجي مين شخصيًّا، ووضعته في مكان لا يَصِله ساعي البريد، ولا تصله الرسائل، في قلبها.

كلمة المؤلفة

لا زلتُ أذكر نفسي وأنا واقفة في قسم الروايات الكورية بمكتبة باندي آند لونيز بحي جونج رو، كان ذلك في صيف العام الذي بلغت فيه الثلاثين من عمري. وقفت متسمِّرةً في مكاني لبعض الوقت أتساءل: هل تتاح لي الفرصة أنا كذلك؟ كان موضوع التأليف ونشر الكتب بعيدًا عن نمط حياتي، وكان يبتعد أكثر شيئًا فشيئًا. قدَّمتُ قصصي في الكثير من المسابقات الأدبية على مدار العامين الماضيين، ولكنني لم أوفَّق في أيٍّ منها، بل لم أحصل حتى على تقييم لتلك القصص. حتى قصة "ابتسامة شيوكو" التي عملتُ عليها جاهدة طوال فترة الربيع، كانت قد لاقت نفس المصير من الرفض من الجولة الأولى.

كانت طاقتي على الصبر قد نفدت في تلك الفترة. ولم تكن لديَّ وظيفة ثابتة، وكان عليَّ أن أُسدِّد ديونًا مُستحقَّة بشكل شهري، وهذا الأمر جعلني تحت ضغط مادي على الدوام. وتحت تلك الظروف رأيت أنه من المستحيل أن أكمل طريقي في مَهمَّتي الميؤوسة تلك.

ورغـم رغبتـي في الكتابـة ونـشر أعـمالي، وأن أحيـا كمؤلفـة، رأيـت أن الوقـت قـد حـان أخـيرًا للاسـتلام. وأذكـر أننـي كنـت أبـكي بشـدة وأنـا وحـدي كلّـما راودني هـذا التفكـير. بكيـت كمـن قـرَّر تـركَ حبيبـه الـذي أحبَّـه لفـترة طويلـة.

كلّـما قـلّ عزمـي، وأحسسـتُ بالكسـل في الكتابـة، كنـتُ أسـترجع تلـك اللحظـة التـي بكيـت فيهـا كل تلـك الدمـوع. كان ذلـك الـشيء الوحيـد في الحيـاة الـذي تمنَّيـتُ بـكل صـدق أن أمتهنـه. لا أعلـم إن كان الأمـر محـضَ وهـم وخيـالات، ولكنـي تمنيـت أن أعيـش وأنـا أكتـب.

بعدمـا بـدأت انطلاقتـي الأدبيـة، كتبـت بقلـب مَـن أحـبَّ حبًّـا مـن طـرف واحـد لفـترة طويلـة. وكان ختـام كل جملـة، ومقطـع، وقصـة أمـرًا ممتعًـا في حـدِّ ذاتـه. السـاعات الطويلـة التـي كنـت أقضيهـا عـلى مكتبـي لمجـرد أن أكتـب بعـض السـطور كانـت هـي مـا جعلتنـي عـلى قيـد الحياة. وبعـض النـدوب لم تُشـفَ سـوى بانغـماسي في الكتابـة.

كنـت قاسـية عـلى نفسـي بشـدة في فـترة المراهقـة وبدايـة العشـرينات. وأودُّ أن أعـبِّر عـن أسـفي لـذاتي القديمـة لأنني كرهتهـا ولم أعاملهـا بإنصافٍ، لمجـرَّد أنهـا كانـت عـلى سـجيَّتها. أريـد أن أطهـو لهـذه الفتـاة طعامًـا شـهيًّا، وأن أدلِّـكَ كتفيهـا، وأن أخبرهـا بـأن كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام. أريـد أن أصحبهـا في مـكان دافـئ ومـشرق وأنصـت لحكايتهـا، وأن أشـكرها عـلى اسـتجماعها لشـجاعتها، رغـم جبنهـا، وأنهـا رافقتنـي حتـى هـذه النقطـة.

أعتقـد أن هـذه هـي الهديـة الوحيـدة التـي أسـتطيع أن أقدِّمهـا لأبي الـذي تقاعـد منـذ فـترة قريبـة. وأنـا سـعيدة أن الكتـاب أسـعد أمي. أرسـل التحيـة لأخـي الصغـير الـذي تمالَـكَ نفسـه رغـم الصعـاب اليوميـة. وأريـد أن أوجِّـه التحيـة لجـدي وجـدتي اللَّذيـن تعهَّـدَا برعايتـي في فـترة الطفولـة، وتحمَّـلَا شـخصيتي الغريبـة شـديدة الحساسـية؛ فقـد تلقَّيـتُ منهـما قـدرًا مـن الحـب يكفينـي حتـى نهايـة العمـر وأكـثر. وأوجِّـه شـكري لخالتـي

وزوجها. وأشكر زوجي. كانت هناك الكثير من الصعاب التي واجَهتنا، إلَّا أنني أتمنى أن نتخطاها كما نفعل الآن. وأريد أن أشكر قطتي ليو، ميو، ماري وبوتر.

وأريد أن أشكر أصدقائي الذين وقفوا بجانبي بقلوبهم، ولا أعلم كيف أشكر جي هيه أوني التي كانت تثبِّتني وتُشجِّعني حينما كنت أتراجع. وأشكر الناقدة سو يونج تشيه على مقالاتها الغالية التي لا أنساها، والكاتبة كيم يون سو، وقسم التحرير بدار مون هاك دونج نيه.

وأودُّ أن أشكر كلَّ مَن منحني الفرصة، وآمن بي، رغم أنني كنت لا أزال في مُستَهلِّ طريقي. لن أنسى أبدًا ثقتكم الغالية التي وضعتموها فيَّ، وأتمنى أن أصبح كاتبة تُنتِج أعمالًا مميزة لسنوات قادمة في المستقبل. وأتمنى أن أكتب من وجهة نظر الناس والعالم الذين تعرَّضوا للمضايقات والكراهية لكونهم ذواتهم. وأتمنى أن أكون أنا، بينما أحافظ على شجاعتي ونفسي وأنا أسير على هذا الدرب.

صيف 2016

تشوي إين يونج



نبذة عن المؤلفة

تشوي إين يونج

ولـدت في عـام 1984 في مدينـة كوانـج ميونـج بمقاطعـة كيونـج كي. ودرسـت في قسـم الأدب الكـوري في جامعـة كوريـو. حافظـت أثنـاء دراسـتها الجامعيـة عـلى موقـف نقـدي بشـأن مختلـف القضايـا الاجتماعيـة والسياسـية وحقـوق المـرأة. بـدأت انطلاقتهـا الأدبيـة حـين حصلـت روايتهـا (ابتسـامة شـيوكو) عـلى (جائـزة المؤلفـين الجـدد)، كـما حصلـت عـلى عـدة جوائـز أهمهـا جائـزة (مـون هـاك دونـج نيـه) وجائـزة (هـو كيـون للكتّـاب)، وجائزة(كيـم جـون سـونج الأدبيـة)، وغيرهـا مـن الجوائـز الأخـرى.

و تعـد الكاتبـة تشـوي إيـن يونـج إحـدى أهـم وأشـهر الكاتبـات في كوريـا الجنوبيـة في الوقـت الحـالي.

نبذة عن المترجمة

مروة محمد زهران.

مترجمـة متخصِّصـة في الأدب الكـوري. خرِّيجـة كليـة الألسـن للُغـات، جامعـة عـين شـمس، ضمـن أول دفعـة في قسـم للُغـة الكوريـة في الـشرق الأوسـط. حاصلـة عـلي شـهادة الماچسـتير في الأدب المقـارَن بـين الأدب الكـوري والعـربي، مـن جامعـة أولسـان بكوريـا الجنوبيـة.

أول أعـمالي المترجمـة كتـابٌ عـن وصفـات مـن المطبـخ الـتراثي الكـوري، بعنـوان "جَـمال الأكلات الكوريـة"، نُـشِر عـام 2011. وروايـة مترجمـة مـن العربيـة للكوريـة بعنـوان "ذوات"، للكاتبـة الإماراتيـة زينـب اليـاسي. وقصـة قصـيرة بعنـوان "ألـوان الظـلام". وروايـة بعنـوان "السـاحة" (ترجمـة مشـتركة).


مكتبة
تليجرام
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب

الفهرس

ابتسامة شيوكو

في نثر واضح وغير منمق وبطريقة مباشرة ترسم تشوي إين يونج صورًا حميمية لحياة الشابات في كوريا الجنوبية، صورًا توازن بين ما هو شخصي وما هو سياسي وثقافي تتحدث في قصة ابتسامة شيوكو عن صداقة مشحونة بين فتاتين من المراهقة إلى البلوغ، وفي قصة أخرى تواجه امرأة شابة وفاة عشيقها وتسافر إلى روسيا للبحث عن معلومات حوله، وفي قصة ثالثة يخفي والدا معلمة ماتت في غرق العبارة سيول خبر وفاتها عن جدتها.

حازت المجموعة الأكثر مبيعًا في كوريا الجنوبية على جوائز عدة:

- حاز على جائزة مونهاكدونجني لأفضل كاتبة شابة في 2014.
- حاز على جائزة Munhakdongne لأفضل كاتبة شابة في 2014 و 2017.
- حاز على جائزة Heo Gyun في 2016.

تصميم الغلاف: سيمون سمير



ISBN 978-977-894-083-1

المحروسة